http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

وما دام الحق قد نبه الإنسان بالبأساء فلم يلتفت ، وبالضراء فلم ينتبه إلى المنهج؛ لذلك يأتي له الحق ويمد له بالطغيان .
لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى . . . }

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)

أي أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً باتباع أمراً ونَهيًا تسلم آلاتهم ، لأن الصانع من البشر حتى يصنع آلة من الآلات ، يحدد ويبيّن الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاصا لتؤدي مهمتها ، فما بالنا بمن خلق الإنسان ، إذن فالبشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان في كل خير ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، تأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردتها بركات مادية تجدها في المطر الذي ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النبات ، وكذلك كنوزها التي تستنبط منها الكماليات المرادة في الحياة .
وما معنى البركة؟ . البركة هي أن يعطي الموجودُ فوق ما يتطلبه حجمه؛ كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجده يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة ، ودون ضيق ، فنتساءل : كيف يعيش؟ ويجيبك : إنها البركة . وللبركة تفسير كوني لأن الناس دائماً – كما قلنا سابقاً – ينظرون في وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويغفلون رزق السلب . رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه ويسلب عنك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .
إذن فقوله : { بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض } أي أن يعطي الحق سبحانه وتعالى القليل الكثير في الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا ، ولذلك سمى المال الذي نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماه زكاة مع أن الزكاة في ظاهرها نقص ، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك في الظاهر . وإن أقرضت أحداً بالربا مائة جنيه

فأنت تأخذها منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمى النقص في الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة في الثانية محقا وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط . { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ولكن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } [الأعراف : 96]

إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيانته من خالقه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : { ولكن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جبروت من الخالق ، وإنما هي عدالة منه سبحانه؛ لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فماذا يقول غير المفسدين؟ . سيقول الواحد منهم : مادمنا قد استوينا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على ما يرام ، إذن فلأفسد أنا أيضاً . وذلك يغري غير المفسد بأن يفسد ، ويعطي لنفسه راحتها وشهوتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكتسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضربنا المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملأ عينيه منها ، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسنها ، فهو يناور ويتحايل ، وتتضارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف في ذلك عن صاحب الحلال الذي تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكنْ هؤلاء المفسدين تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فقال فيهم الحق : إنهم يكسبون الفساد ، ولا يجدون في ارتكابه عنتا .

ويقول الحق بعد ذلك : { أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ . . . }

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98)

ونلحظ وجود ذ « همزة استفهام » و « فاء تعقيب » في قوله : { أَفَأَمِنَ } وهذا يعني أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل عليهما الاستفهام ، أي أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابنا بياتاً أو ضحى كما صنع بمن كان قبلهم من الأمم السابقة؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بغتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب؟ والبأس هو الشدة التي يؤاخذ بها الحق سبحانه الأمم حين يعزفون عن منهجه . وما الذي جعلهم يأمنون على أنفسهم أن تنزل بهم أهوال كالتي نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحين يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما يتطلبه الأحداث من زمان ومكان؛ لأن كل حدث لابد له من زمن ولابد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان هنا

هو القرى التي يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتي فيه البأس ، وهو قد يأتي لهم وهم نائمون ، أو يأتي لهم ضحى وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان في مواجهة الشمس فالدنيا تكون بالنسبة له نهاراً . والمقابل له يكون الليل . وقد يجيء البأس على أهل قرية نهاراً ، أو ليلاً في أي وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما في الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفي كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمن يا صاحب النهار أن يأتي البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أن يكون البأس نهاراً أو ليلاً .

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم : { . . . ولكن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } [الأعراف : 96]

وماداموا قد كذبوا فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم ب « افعل » و « لا تفعل » .

إذن فنهارهم هو حركة غير مجدية ، وغير نافعة ، بل هي لعب في الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفقد للحركة ، أو عبث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على غير منهج الله يقضي ليله نائماً أو لاهيًا عاصيًّا ، ونهاره لاعباً؛ لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل في الآخرة من الجزاء الحسن .

ويقول الحق بعد ذلك : { أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله . . . }

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99)

و « الأمن » هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوف ولا متاعب ، ويقال : فلان « آمن »؛ أي لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : { أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله } ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول : وهل يمكر ربنا؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال : { وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ . . . } [فاطر : 43]

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق : { . . . والله خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54]

والمكر أصله الالتفاف . وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة في أعلى إلى غصن معين؛ لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض ، وكذلك نرى هذا الالتفاف في النباتات المتسلقة ونجد أغصانها مجدولة كالحبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة . ولكي تتمكن من خصمك فأنت تبيت له أمراً لا يفطن إليه ، وإذا كان الإنسان من البشر حين يبيت لأخيه شرًّا ، ويفتنه فتناً يُعمي عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوي الذي يمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبييت لا يكتشفه أحد فهو مكر وتبييت الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير؛ لأن الله يحمي الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم . { أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون } [الأعراف : 99]

وهناك من يسأل : هل أمن الأنبياء مكر الله؟ نقول نعم . لقد آمنوا مكر الله باصطفائهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون؟!

نقول : لقد جاء في منهج الرسل جميعاً أن الذي يأمن مكر الله هو الخاسر؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذي أنزل المنهج ليختار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به يخسر طمأنينة الإيمان في الدنيا وإن كسب فيها مالا أو جاها أو علماً ، ويخسر الآخرة أيضاً .

ويتابع سبحانه : { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض . . . }

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100)

و { يَهْدِ } أي يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير ، ومعنى { يَرِثُونَ الأرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ } أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقبهم . وحين يستقرئ الإنسان الوجود الحضاري في الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما في يدك وملكك جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذي يأتي على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، ومادمتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل في بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فالمسألة دُوَلٌ ، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى في حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويعزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتي آخر من بعده . ولذلك يقال : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسنت الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك؛ فيجب أن تفطن وتتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يعز عليك فراقه يوماً .

واحذر أن تحسن الدخول في أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج منه .

واستمع إلى قول الشاعر في هذا المعنى :

إن الأمير هو الذي يُمسي أميراً يوم عزلهْ ... إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطانُ فضلِهْ

وحين يقول الحق : { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض } .

نلحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول ، فلم يقل : أو لم يهد الذين ، بل قال : { يَهْدِ لِلَّذِينَ } ، فما الحكمة في ذلك؟ . نعرف أن « الهداية » هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أي أنك قد هَدَيْت غيرك لصالحك . وقد تكون الهداية وهي الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذي هَدَى وعلى المَهْدِيّ معاً ، لكن إذا كانت

الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على مَن هداك ، أتشك في هدايته لك؟ لا ، إن من حقك أن تشك في الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هَدَى ، أو يعود أمرها على الاثنين؛ ففي ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يَهْدِي ويعود كله لمن يُهْدَي فليس في ذلك أدنى شك .

ولذلك يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي :

« . . . يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المَخْيط إذا أُدْخِلَ البحر » .

إذن فحين يهديهم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذي يعود عليه سبحانه من صفات بهذا العمل؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلن ينشئ خلقه لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا نرى أن كل هداية راجعة إلى المَهْدِيّ . وبذلك يتأكد قوله : { يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض } ما هو مصلحتهم . { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } [الأعراف : **100**]

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : { لَّوْ نَشَآءُ } ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : { أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ } ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هي أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، وسبحانه يقول : { أَن لَّوْ يَشَآءُ الله لَهَدَى الناس جَمِيعاً . . . } [الرعد : **31**]

وما الذي يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً؟ . لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة ، وذلك يثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعطي صفة المحبوبية للمشرع الأعلى ، ثم إنه – سبحانه – خلق خلقاً لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا .

فالمخلوق الذي اختصه سبحانه بقدرة الاختيار في أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصي ، ثم آمن يكون إيمانه دليلا على إثبات صفات المحبوبية للإله .

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبية للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه في الآية نفسها : { أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } . [الأعراف : **100**]

ونلحظ أن الحق لم يقل أنه لو نشاء أصبناهم لذنوبهم وذلك رحمة منه ، بل جعل العقاب بالذنوب التي يختاروها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا في أول سورة البقرة . عن كلمة « الطبع »؛ وهو الختم : { خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ . . . } [البقرة : 7]

لأن القلوب وعاء اليقين الإيماني؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين الكفر ، فهذا يعني أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له : أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطري الذي خلق الله الناس عليه . لأنك أنت قد سَبَّقت ووضعت في قلبك قضية يقينية على غير إيمان؛ لأن أصول الإيمان أن تُخْرِج ما في قلبك من أي اعتقاد ، ثم تستقبل الإيمان بالله ، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان .

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه : قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل قلباً واحداً ، والقلب الواحد حيز ، والحيز –كما قلنا – لا تداخل للمحيَّز فيه؛ فحين نأتي بزجاجة فارغة ونقول : إنها « فارغة » فالذي يدل على كذب هذه الكلمة أننا حين نضع فيها المياه تخرج منها فقاقيع الهواء ، وخروج فقاقيع الهواء هو الذي يسمح بدخول المياه فيها؛ لأن الزجاجة ليست فارغة ، بل يخيل لنا ذلك؛ لأن الهواء غير مرئي لنا .

ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق في صناعتها لتلك المهمة لكان من الحتمي أن تتكسر . والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر – والعياذ بالله لا يسع الإيمان ، والعاقل هو من يطرح القضيتين خارج القلب ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مفيداً لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قلبي بالكفر فهذه عملية لا تؤدي إلى نتيجة . { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } [الأعراف : 100]

أي أو لم يتبيّن للذين يُستخلفون في الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصي والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : { فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } أي السماع المؤدي إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا .

ويقول الحق بعد ذلك : { تِلْكَ القرى نَقُصُّ . . . }

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101)

هذا هو المراد في سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوضحه الحق في موضع آخر من القرآن فقال : { وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . . . } [هود : 120]

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شيء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست بدعاً من الرسل؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم . وإذا كان رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما في رسالته من العلو فلابد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوي ابتلاءات الرسل جميعاً . { تِلْكَ القرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين } [الأعراف : 101]

والطبع – كما قلنا – هو الختم؛ لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال؛ لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا قهراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ . . . }

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102)

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، وردوا منهج الله الذي أرسله على ألسنة رسله . كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى } [الأعراف : 172]

وقد يقف العقل في أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة في آدم؛ لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عَقِلْنا ذلك أو لم نعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أي إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لآبائكم ، وهذا يدل على أنَّ الإنسان وجد من حيوان منوي حي انتقل إلى بويضة حيّة من أمه فنشأ هذا الإنسان . ولو طرأ على الحيوان المنوي موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء من حياة أبيه ، وإن سلسلت ذلك فسنصل لآدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جزئ حي من آدم . ومادام فيه جزئ حي من آدم فقد شهد الخلق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سؤال التقرير ويقول : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } ؟ فيقولون : { بلى } .

وضربنا المثل لنقرب وقلنا إن الذرة الشائعة في شيء ، تشيع في أضعاف الشيء ، وسبق أن قلنا : إننا إذا جئنا بمادة حمراء – مثلاً – في حجم سنتيمتر مكعب ، ثم أذبناها في قارورة ، وبذلك يصبح كل جزء في القارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت القارورة وألقيتها في برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جزيء من المادة الحمراء ، وإن أخذت ماء البرميل

وألقيته في البحر فكل ذرة في البحر الواسع يصير فيها جزيء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من ذهن كل منا أن في كل إنسان جزيئاً من آدم ، وقد شهد هذا الجزئ العهد الأول . ولقائل أن يسأل : كيف يخاطب الله الذر الذي كان موجوداً في ظهر آدم؟ . نقول : كما خاطب الأرض وخاطب السماء ، فهو القائل : { ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ } [فصلت : 11]

إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدح في أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذا بالنسبة للعهد الأول ، وبعده العهد الثاني الذي أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق : { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين }

[آل عمران : 81]

ثم هناك عهود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه وتعالى : { هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين } [يونس : 22]

إنهم لا يسلمون أنفسهم للعطب ، ولا يغترون بجاههم وبالأسباب التي عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا يغشون أنفسهم بل يلجأون صاغرين إلى الله قائلين : { . . . لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين } [يونس : 22]

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد في حادثة ، فلما أنجاهم الله أعرضوا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . } [يونس : 12]

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما أن يكون عهداً خاصًّا .

والحق يقول : { وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } .

أي أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد والخروج عنه؛ لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من المواثيق ، وهو حر في أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملزماً ووجب عليه أن ينفذ العهد باختياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته في إطار هذا العهد ، فإن خرج بحركته عن إطار هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل في الفسق أنه خروج الرطبة من القشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا

تُدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال : فسقت الرطبة أي خرجت عن قشرتها . كأن ربنا جعل التكليف تغليفاً حماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطبة عن الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث وللميكروبات؟ ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفاسق ، لأنه خرج عن الإطار الذي جعله الله له ليحميه من المفاسد ، ومن العطب الذي يقع عليه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى . . . }

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103)

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهو وصالح ولوط وشعيب وما دار بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أراد أن يأتي بتاريخ رسول من أولى العزم من الرسل ، أي من الذين تعرضوا في رسالاتهم لأشياء لا يتحملها إلا جَلْد قوي . وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطاً وافراً في القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هي أطول قصص القرآن؛ لأن انحرافاتهم ونزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبياؤهم كثيرون لذلك فهم يفتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا : نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم : إن كثرة أنبيائكم تدل على تأصل دائكم؛ لأن الأطباء لا يكثرون إلا حين يصبح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولاً واحداً لا يكفيهم ، بل لابد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى } .

وكلمة « بعث » - كما نفهمها - توحي وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون ، واختيرت كلمة « بعث » للرسالات لأن البعث يقتضي أن شيئاً كان موجوداً ثم انطمر ثم بعثه الحق من جديد ، والإيمان يتمثل في عهد الفطرة الأول الذي كان من آدم؛ لأن الله خلقه بيديه خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للذرية ، وهذه الصورة الأصلية هي التي تضم حقائق الإيمان التي كانت لآدم ، وحين يبعث الله رسولاً جديداً ، فهو لا ينشئ عقيدة جديدة ، بل يحيي ما كان موجوداً وانطمر ، وحين يطم الفساد يبعث الله الرسول ، فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مقومات الحياة ممن سبقه لظل الإيمان مسألة رتيبة في البشر .

إننا نأخذ الأشياء التي أورثها لنا أجدادنا وتنفعنا في أمور الدنيا نحتفظ بها ونحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها في إطارها الصحيح . والإنسان يريد أن ينفلت من تقييد حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه : « أرسل » الرسل ، ومرة أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يجيء بشيء جديد ، ولكنه جاء بشيء كان المفروض أن

يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التي ورثها لكم أسلافكم وتنتفعون بها؛ مثال ذلك : نحن ننتفع برغيف الخبز وننتفع بخياطة الإبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية ونسينا الأشياء المنهجية؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهي تحارب الشهوات . { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . } [الأعراف : 103] والآيات –كما نعلم – جمع آية ، وهي الأمر العجيب الذي يقف العقل عنده مشدوهاً .

وتُطلق الآيات ثلاث إطلاقات؛ فهي تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبيًّا معبرة عن كل كمال يوجد في الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارئ لها يأخذ منها على قدر ذهنه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة في خلق الأرض والسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضي مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضي باعثاً وهو الله ، ومبعوثاً إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المنهج .
والآيات التي بعث الله بها موسى هي أدلة صدق النبوة ، وهي أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج ليشاهدها ويسمع لها فرعون وملؤه ، والملأ –كما عرفنا من قبل – هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملأ ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أي الأشراف والسادة . ولماذا حدد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اهتدى الكبار ، والغالب والعادة أن الذي يقف أمام منهج الخير هم المنتفعون بالشر ، وهم القادة أو من حولهم ، ولا يرغبون في منهج الخير لأنه يصادم أغراضهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف في وجه الذين عضوهم بمظالمهم وعضوهم بطغيانهم ، تصبح قلوبهم مع هذا المنقذ! { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . } [الأعراف : 103]
وإن كانت الآيات هي الكلمات المؤدية للمنهج الموجودة في التوراة ، أو كانت الآيات هي المعجزات التي تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضي إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التي أرسلها الحق مع موسى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . } [الإسراء : 101]
ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها في الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو علة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة « سنين » تأتي للجدب الشديد الذي يستمر لفترة من الزمن بحيث يلفت الناس إلى حدثٍ في زمان ، ولذلك نقول : كانت سنة عصيبة؛ لأن السنة عضة من الأحداث ، تهدم ترف الحياة ، ثم تأتي لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيصيبهم بنقص الثمرات ، وهو الجدب والقحط ، وسمي الجدب سنة ، وجمعه سنين ،

لأنه شيء يؤرخ به ، فماذا كان استقبال فرعون وملئه للآيات التي مع موسى عليه السلام؟ يقول الحق : { فَظَلَمُواْ بِهَا } .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتي؟ . لقد ظلموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظلوا على فسادهم ، والمفسدون – كما نعلم – هم الذين يعمدون إلى الصالح في ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختياراته ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإنسان في الأشياء التي بها مقومات الحياة ، مما لا يدخل في اختياره يجدها على منتهى الاستقامة .

إننا نجد الإنسان لا يتحكم في حركة الشمس أو حركة القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريدها الله ، ولا يأتي الفساد إلا في الأمر الذي للإنسان مدخل فيه ، والناس لا تشكو من أزمة هواء – على سبيل المثال – لأنه لا دخل في حركة الهواء لأحد ، لكنهم شَكَوْا من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ونجد شكواهم من أزمة المياه أقل؛ لأن مدخل الإنسان على الماء قليل .

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذي يدير حركتك الوقودية لك فيه بعض من الدخل ، فيجعل من جسمك – على سبيل المثال – مخزناً للدهون ليعطيك لحظة الجوع ما كنزته فيه من طاقة .

ومن العجيب أن الدهون هذه هي مادة واحدة وساعة نحتاج إلى التغذية منها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التي نحتاج إليها .

تحتاج مثلا إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، تحتاج إلى كربون ، يعطي لك الدهن الكربون ، تحتاج إلى فوسفور يعطيك فوسفوراً ، تحتاج إلى مغنسيوم يعطيك الدهن المغنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المخزون في أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر المخزون في هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شهيق وزفير ، ولو أن إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمنعه عنك لحظة الغضب ، لمت قبل أن يرضى عنك ، لكن إياه منع عنك الماء فترة فقد يحن قلب عدوك أو يأتي لك أحد بالماء أو قد تسعى أنت بحيلة ما لتصل إليه .

إذن فالأمر الذي لا دخل للإِنسان فيه نجد على منتهى الاستقامة ، ولا يأتي الفساد إلا من الأمر الذي للإنسان فيه دخل . { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين } [الأعراف : 103]

أي أن آخر الأمر سيعاقب الله المفسدين .

وأراد سبحانه أن يَذْكُر سلسلة القصة لا من بدء سلسلتها ، بل يبدأ من نهايتها ، فسبحانه لا

يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، وللقطة التي يريدها في هذا السياق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه في هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف أوحى لأمه أن تلقيه في البحر ، ولم ترد حادث ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون .

ويقول سبحانه : { وَقَالَ موسى يافرعون . . . }

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104)

ويشرح لنا القرآن أمر بلاغ موسى لفرعون وقومه بان الله واحد أحد وهو رب العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك يبلغهم موسى بأن الإله واحد : { قَالَ رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ } [الشعراء : 24]

ونجد موسى يعدد كلمة الربوبية في آيات أخرى؛ ليأتي بالمظهر الذي دُسَّت فيه دسيسة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ، فقال موسى : إنني أتكلم عن الإله الواحد الذي هو رب السماء والأرض معاً فلا إله إلا الله وحده . وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فأبلغهم موسى بأنه إله واحد ، وكانوا يعتقدون أن للأحياء ألهاً ورباً ، وللأموات إلهاً ورباً ، فقال لهم موسى : { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين } [الشعراء : 26]

ويبلغ هنا موسى فرعونَ وقومَه : { . . . إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين } [الأعراف : 104]

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى : { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ . . . }

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105)

فأي هذه الأمور هو الذي يحتاج إلى بينة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين؟ إن هذا القول يدلنا على أن موسى اختلف مع فرعون أولاً في أن موسى رسول ، وأن للعالمين رباً واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه – إذن – ثلاث قضايا خلافية بين موسى وفرعون ، ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا في قضية واحدة هي : هل هو رسول بلغ عن الله بالقول الحق؟ فماذا طلب منه؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى .

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى في مسألة أن للعالمين ربًّا ، وأن هذا الرب لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلابد أن يرسل رسولاً ، بل وقف فرعون في مسألة : هل موسى رسول

مبلغ عن الله أولا؟
ولذلك يقول موسى : { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرَائِيلَ } [الأعراف : 105]
كأن مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بني إسرائيل . ونعرف أن قصة بني إسرائيل ناشئة من أيام نبي الله يعقوب وابنه يوسف حين كاد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا في أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة الجب ، لقد جاء الحق بقصة بني إسرائيل على مراحل لنتدرج بالانفعال معها . فمراحل الانفعال النفسي أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين : صورة تدل على تصعيد الرحمة في قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر في قلبك ، مثال ذلك : لنفترض أن لك خصماً وصنع فيك مكيدة ، وتحكي أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فتقول : أريد أن انتقم منه بضربه صفعتين ، ثم تصعد الشر فتقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخيّر فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصفعه أو أشتمه وأسبّه فهذا تصعيد في الخير . إذن . يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب طاقة الخير أو الشر التي في النفس . وهكذا نجد إخوة يوسف وهو يكيدون له ، فقالوا : { لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ . . . } [يوسف : 8]
هم يعترفون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون على ذلك ، ويظهرون البينة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر القرآن هذه البينة لنعرف أهميتها ، حتى لا يغفل أحد عنها . لقد كان قلب نبي الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقوياء أشداء؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع في قلب الأبوة والأمومة من الرحمة على قدر ضعف الوليد الصغير . فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب .

ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بنيك إليك؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .
إذن فقول إخوة يوسف : { وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } . هو بينة ضدهم . وكان المنطق يقتضى أن يعرفوا أنهم ما داموا عصبة فلا بد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسباط وذريّة أنبياء ، نجدهم يصعدون الخير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه في أرض بعيدة نائية ليستريحوا منه ويخلو لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقاءه في غياهب الجب؛ بدأوا بالقتل في لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ، أي أن يتركوه في مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقائه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن

يضروه ، أو كانوا يفكرون في نجاته؟ . إذن فهذا تصعيد للخير .
وتوالت الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل في مصر وكثرت أعدادهم . وعندما نستقرئ التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم ملك ، فهناك فرعون وهناك ملك .
فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول : { وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 10]
هكذا نجد الحق يسمى حاكم مصر « فرعون » وفي أيام سيدنا موسى أيضاً يسميه الحق فرعون .
لكن في أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سمَّاه ملكاً : { وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ . . . } [يوسف : 50]
وبعد أن اكتشف العالم الفرنسي شامبليون – حجر رشيد – عرفنا أن الفترة التي دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القرآن هذه الحقيقة التاريخية حين سمى حكام مصر قبل يوسف فراعين ، وفي الفترة التي جاء فيها سيدنا يوسف سماهم « الملوك » ، وهؤلاء هم من أغاروا على مصر وحكموها وساعدهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشّر إلى من أعان الهكسوس؛ فبدأوا في استذلال بني إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس إبّان حكمهم مصر . وأراد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول الحق على لسان موسى : { وَقَالَ موسى يافرعون إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرَائِيلَ } [الأعراف : 104–105]
وكأن موسى يريد أن يخلص بني إسرائيل ، أما مسألة الألوهية وربوبية فرعون فقد جاءت عرضاً .
ويقول فرعون : { قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ . . . }

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106)

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يُظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن ففرعون يعتقد أن لله آيات تثبت صدق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .
ويكشف موسى عليه السلام الآية : { فألقى عَصَاهُ فَإِذاَ . . . }

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107)

وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مدين ورأى ناراً وبعد ذلك قال لأهله : { امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً . . . } [طه : 10]

ثم سمع خطاباً : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 17–18]

وحين يقال له : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى } ، كان يكفي أن يقول في الجواب : عصاي ، ولا داعي أن يقول : « هي » ولا داعي أن يشرح ويقول : إنه يتوكأ عليها وأن له فيها مآرب أخرى؛ لأن الحق لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن فجواب موسى قد جاوز في الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من الواجب أن يعطي الجواب على قدر السؤال . لكن من يقول ذلك ينسى أنه لا يوجد من يزهد في الأنس بخطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام : { هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي . . . } [طه : 18]

ولقد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيبة المخاطب فكان تهافته على الخطاب حبًّا لأنسه في الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } كان من الممكن أن يقول استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللعصا أكثر من إلقاء ، إلقاء الدربة والتمرين على لقاء فرعون حين أمره الحق : { قَالَ أَلْقِهَا ياموسى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى } [طه : 19–20]

فماذا حدث؟ قال له الله : { قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيَرَتَهَا الأولى } [طه : 21]

فساعة خاف ، دل على أن ما حدث للعصا ليس من قبيل السحر؛ لأن الساحر حين يلقي عصاه أو حبله يرى ذلك عصا أو حبلاً ، بينما يرى ذلك غيرُه حية ، ولذلك يقول الحق عن السحرة : { سحروا أَعْيُنَ الناس . . . } [الأعراف : 116]

وهذا يدل على أن حقيقة الشيء في السحر تظل كما هي في نظر الساحر ، لكن موسى أوجس في نفسه خيفة ، فهذا يدل على أن العصا انتقلت من طبيعتها الخشبية وصارت حية .

وكان من الممكن أن تورق العصا وتخضر على الرغم من أنها كانت غصناً يابساً . ولو حدث ذلك فسيكون معجزة أيضاً ، ولكن نقلها الله نقلتين : نقلها من الجمادية ، وتعدى بها مرحلة النباتية إلى مرحلة الحيوانية .

وكأن الحق العليم أزلاً يرد على من أراد اللغط في مسألة إلقاء العصا ، وقد ظن بعض الجاهلين أن ذلك تكرار في الكلام في قصة واحدة . ولم يلحظوا أن جهة الإلقاء للعصا كانت منفكة ، ففي القرآن ثلاثة إلقاءات للعصا : إلقاء التدريب حينما اصطفى الله موسى رسولاً وأعلمه بذلك في طور سيناء : { إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدني . . . } [طه : 14]

وبعد ذلك قال له : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ . . . } [طه : 17–18]

وإلقاء التدريب على المهمة هدفه طمأنة موسى ، حتى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو على يقين أن العصا ستستجيب له فتنقلب حية بمجرد إلقائها ، ولو أن الله قال له خبراً « إذا ذهبت إلى فرعون فألق العصا فستنقلب حية » ، فقد لا يطمئن قلبه إلى هذا الأمر .

فأراد الله أن يدربه عليها تدريباً واقعيًّا ، ليعلم أن العصا ستستجيب له حين يلقيها فتنقلب حية ، وكان ذلك أول إلقاء لها ، أما الإلقاء الثاني فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين ، وإعلامه بالبينة ، وهو ما نحن بصدده الآن في هذه الآية التي نتكلم بخواطرنا الإيمانية فيها .

ثم هناك إلقاء ثالث وهو إلقاء التحدي للسحرة ، ولأن لكل إلقاء موقعاً فلا تقل أبداً : أن ذلك تكرار . وإنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملابسات ، فلكل موقف ما يتطلبه ، فلا تغني لقطة هنا عن لقطة هناك . { فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } [الأعراف : 107]

ومرّة يقول عن العصا : {كَأَنَّهَا جَآنٌّ } .

ويقول المشككون في كلام الله من المستشرقين : كيف يقول مرة إنها ثعبان مبين . ثم مرة أخرى يقول : { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى } ، ومرة ثالثة يقول : {كَأَنَّهَا جَآنٌّ } . ونقول : إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، ومختلفات تتكامل ، فهي ثعبان مرة ، وهي حية مرة ثانية ، وهي جان؛ لأن الثعبان هو الطويل الخفيف الحركة ، والحية هي الكتلة المخيفة بشكلها وهي متجمعة ، والجان هو الحية المرعبة الشكل . فكأنها تمثلت في كل مرة بمثال يرعب من يراه ، وكل مرة لها شكل؛ فهي مرة ثعبان ، ومرة حية ، وثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان ، وتكون حية عند من تخيفه الحية ، وتكون جاناً عند من يخيفه الجان ، ولذلك تجد أن إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم .

ومثال ذلك إبهام الحق لأمر الموت ، فلا يحكمه سن ، ولا يحكمه سبب ، ولا يحكمه زمان ، وفي هذا إبهام لزمانه وإبهام لسببه مما يجعله بياناً شائعاً تستقبله بأي سبب في أي زمان أو في أي مكان ، وهكذا يأتي الإبهام هنا لكي يعطينا الصور المتكاملة ، وقال بعض المستشرقين : إن المسلمين يستقبلون القرآن بالرهبة وبالانبهار . ولا يحركون عقولهم لكي يروا المتناقضات فيه ، لكن غير المسلم إن قرأ القرآن يتبين فيه أشياء مختلفة كثيرة ، قالوا بالنص : « أنتم تعلمون بقضايا اللغة أن التشبيه إنما يأتي لتُلْحِق مجهولاً بمعلوم » ، فيقال : أنت تعرف فلاناً ، فتقول : لا والله لا أعرفه . فيقول لك : هو شكل فلان؛ في الطول ، وفي العرض ، وفي الشكل ، إذن فقد ألحق مجهولاً بمعلوم ليُوضحه . فكيف يلحق القرآن مجهولاً بمجهول ، إن هذا لا يعطي صورة مثلما تكلم القرآن عن شجرة الزقوم فقال : { إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجحيم * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين } [الصافات : 64-65]

فكيف توجد شجرة في الجحيم ، إنها أشياء متناقضة؛ لأن الشجرة فيها خضرة ، وتحتاج إلى ري ، ومائية ، والجحيم نار وجفاف ، ثم إن الشيطان غير معلوم الصورة للبشر ، وشجرة الزقوم غير معلومة لأنها ستأتي في الآخرة ، فكيف يُشَبِّه الله مجهولاً بمجهول .

واستخدم المستشرقون ذلك كدليل على أن المسلمين يأخذون القرآن بانبهار ولا يبحثون فيه ، ونرد عليهم : أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة ، بل عرفتموها صناعة ، ولم تتفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب . وقد تخيلت لغة العرب أشياء رأت فيها البشاعة والقبح؛ كأن قالوا : « ومسنونة زرق كأنياب أغوال » ، والغول كائن غير موجود ، لكنهم تخيلوا الغول المخيف وأن له أنياباً . . . إلخ .

إذن التشبيه قد يكون للأمر المُتَخَيَّل في أذهان الناس ، والأصل في التشبيه أن يلحق مجهولاً ليُعلم ، وشجرة الزقوم لا نعرفها ، ورءوس الشياطين لم نرها ، وهكذا ألحق الله مجهولاً بمجهول ، ولماذا لم يأت بها في صورة معلومة؟ . لأنه – سبحانه – يريد أن يشيع البيان ، ويعمم الفائدة ويربيها؛ لأن الإخافة تتطلب مخيفاً ، والمخيف يختلف باختلاف الرائين ، فقد يوجد شيء يخيفك ، ولكنه لا يخيف غيرك ، وقد تستقبح أنت شيئاً ، ولكن غيرك لا يستقبحه ، ولذلك ضربنا – سابقاً – مثلاً . وقلنا : لو أننا أحضرنا من كبار رسامي الكاريكاتور في العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان تخيلوا الشيطان وارسموه ، أيتفقون على شكل واحد فيه؟ لا؛ لأن كل رسام سيرسم من وحي ما يخيفه هو .

ولقد قال الله في صورة : شجرة الزقوم { طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين } ؛ ليتخيل كل سامع ما يخيفه من صورة الشيطان ، فتكون الفائدة عامة من التخويف من تلك الشجرة . لكنه لو قالها بصورة واحدة لأخاف قوماً ولم يخف الآخرين . ومثال ذلك أمر عصا موسى ، فهي مرة ثعبان ، ومرة جان ، ومرة حية ، وكلها صور لشيء واحد مخيف ، ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : { فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } .

وقوله : { فَإِذَا هِيَ } يوضح الفجائية التي أذهلت فرعون ، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخم في لمح البصر بمجرد إلقائها ، ومن فوائد تدريب سيدنا موسى على إلقاء العصا في طور سيناء أن موسى لن تأخذه المفاجأة حين يلقيها أمام فرعون ، بل ستأخذ المفاجأة فرعون . كأن التدريب أولاً لإقناع موسى وضمان عدم خوفه في لحظة التنفيذ ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب؛ لأن العصا صارت ثعباناً وحيَّة حقيقية ، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا في عين الساحر ولا يخاف منها ، إذن خوفه منها إبّان التدريب دليل على أنها انقلبت حقيقة ، ولا تخيلاً ، وتلك هي مخالفة المعجزة للسحر ، فالمعجزة حقيقة والسحر تخييل ، وهذا هو الذي سيجعل السحرة يخرون ساجدين لأنهم قد ذهلوا مما حدث . { فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } [الأعراف : 107]

و « مبين » أي بيّن ، وواضحة ملامحه المخيفة التي لا تخفى على أحد ، ويقدم موسى عليه السلام الآية الثانية ، فيقول : { وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا . . . }

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)

وهذه آية معجزة أخرى . وقوله : « ونزع » تعني إخراج اليد بعسر ، كأن هناك شيئاً يقاوم إخراج اليد؛ لأنه لو كان إخراج اليد سهلاً ، لما قال الحق : { وَنَزَعَ يَدَهُ } لأنَّ النزع يدل على أن شيئاً يقاوم ، ومثال ذلك قوله الحق : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ . . . } [آل عمران : 26]

لأن نزع الملك ليس مسألة سهلة؛ ففي الغالب يحاول صاحب الملك التشبث بملكه ، لكن الحق ينزعه من هذا الملك . كذلك قوله : { وَنَزَعَ يَدَهُ } ، وهذا يدل على أن يده لها وضع ، ونزع يده وإخراجها بشدة له وضع آخر ، كأنها كانت في مكان حريص عليها . إذن ففيه لقطة بينت الإدخال ، ولقطة بينت النزع ، وهما عمليتان اثنتان . وقال سبحانه في آية ثانية : { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء . . . } [النمل : 12]

و « الجيب » هو مكان دخول الرأس من الثوب ، وإن كنا نسمي « الجيب » في أيامنا مطلق شيء نجعله وعاء لما نحب ، وكان الأصل أن الإنسان حين يريد أن يحتفظ بشيء ، يضعه في مكان أمامه وتحت يده ، ثم صنع الناس الجيوب في الملابس ، فسميت الجيوب جيوباً لهذا .

والحق قال في موضع آخر : { واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء آيَةً أخرى } [طه : 22]

إذن ففيه إدخال وإخراج ، وكل آية جاءت بلقطة من اللقطات؛ فآية أوضحت دخول اليد في الجيب ، وأخرى أوضحت ضم اليد إلى الجناح ، وثالثة أوضحت نزع اليد ، وهذه لقطات متعددة ، تكوّن كلها الصورة الكاملة؛ لنفهم أن القصص في القرآن غير مكرَّر ، فالتكرير قد يكون في الجملة . لكن كل تكرير له لقطة تأسيسية ، وحين نستعرضه نتبين أركان القصة كاملة . فكل هذه اللقطات تجمَّع لنا القصة . وقلنا قبل ذلك : إن الصراع بين فرعون وموسى لا ينشأ إلا عن عداوة ، وحتى يحتدم الصراع لابد أن تكون العداوة متبادلة ، فلو كان واحد عدوًّا والثاني لا يشعر بالعداوة فلن يكون لديه لدد خصومة ، وقد يتسامح مع خصمه ويأخذ أمر الخلاف هينا ويسامحه وتنفض المسألة . لكن الذي يجعل العداوة تستعر ، ويشتد ويعلو لهيبها أن تكون متبادلة . وتأتي لنا لقطة في القرآن تثبت لنا العداوة من فرعون لموسى ، ولقطة أخرى تثبت العداوة من موسى لفرعون ، فالحق يقول : { يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . } [طه : 39]
هذه تثبت العداوة من فرعون لموسى : { فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . } [القصص : 8]

وهذه تثبت لأن موسى عدوٌّ لهم . وكلتا اللقطتين يُكمل بعضها بعضاً لتعطينا الصورة كاملة .
والحق هنا يقول : { وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ } [الأعراف : 108]

ونعرف أن موسى كان أسمر اللون ، لذلك يكون البياض في يده مخالفاً لبقية لون بشرته ، ويده صارت بيضاء بحيث يراها الناس يلفتهم ضوؤها ويجذب أنظارهم ، وهي ليست بيضاء ذلك البياض الذي يأتي في سُمرة نتيجة البرص ، لا؛ لأن الحق قال في آية أخرى : { تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء . . . } [طه : 22]

وكل لقطة كما ترى تأتي لتؤكد وتكمل الصورة . إذن فقوله : { بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ } يدل على أن ضوءها لامع وضيء ، يلفت نظر الناس جميعاً إليها ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان لها بريق ولمعان وسطوع ، وقوله : { بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء } يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً .

ويتابع الحق سبحانه : { قَالَ الملأ مِن قَوْمِ . . . }

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109)

عرفنا أن الملأ هم القوم الذين يتصدرون المجالس ، ويملأونها أو الذين يملأون العيون هيبة ، والقلوب مهابة وهم هنا المقربون من فرعون . وكأنهم يملكون فكرة وعلما عن السحر . وفي سورة الشعراء جاء القول الحق : { قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } [الشعراء : 34]

إذن فهذه رواية جاءت بالقول من الملأ ، والآية الأخرى جاءت بالقول على لسان فرعون ، وليس في هذا أدنى تناقض ، ومن الجائز أن يقول فرعون : إنه ساحر ، وأيضاً أن يقول الملأ : إنه ساحر . وتتوارد الخواطر في أمر معلوم متفق عليه . وقد حدث مثل هذا في القرآن حينما نزلت آيات في خلق الإِنسان وتطوره بأن كان علقة فمضغة إلخ فقال كاتب الوحي بصوت مسموع : { . . . فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14]

عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع : نزلت هذه الآية : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ } الآية قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } .

« وعن زيد بن ثابت الأنصاري قال : أملى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ } إلى قوله : { . . . خَلْقاً آخَرَ } فقال معاذ : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مِمّ تضحك يا رسول الله؟ فقال : » بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين « .

لقد جاءت الخواطر في الحالة المهيجة لأحاسيس الإيمان لحظة نزول الوحي بمراحل خلق الإنسان .

فما الذي يمنع من توارد الخواطر فيجيء الخاطر عند فرعون وعند الملأ فيقول ويقولون؟ أو يكون فرعون قد قالها وعلى عادة الأتباع والأذناب إذا قال سيدهم شيئاً كرروه . { قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } [الأعراف : 109]

ولم يصفوا فعل سيدنا موسى بأنه ساحر فقط بل بالغوا في ذلك وقالوا : إنه ساحر عليم . وأضافوا ما جاء على ألسنتهم بالقرآن في هذه السورة .

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110)

إنها نكبة جاءت لفرعون الذي يدعي الألوهية ، ونكبة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل في هيئته وهيبته؛ قال عن موسى : إنه ساحر ، لكي يصرف الناس الذين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والاقتناع به ، وأنه رسول رب العالمين ، وبعد ذلك يهيج فرعون وطنيتهم ويهيج ويثير غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكانهم فقال : { يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } .
اتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يخرج الناس بسحره من أرضهم ، وهذا القول من فرعون ومن معه له هدف هو تهييج الناس وإثارتهم؛ لأن فرعون اقنع الناس أنه إله . وها هي ذي الألوهية تكاد تنهدم في لحظة ، فقال عن موسى إنه ساحر ، وبين قوم لهم إلف بالسحر ، وقوله : { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } على لسان الملأ من قوم فرعون تدل على أن القائل للعبارة أدنى من المقول لهم ، فالمفروض أن فرعون هو صاحب الأمر على الجميع ، ومجيء القول : { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } يدل على أن الذي يأمر في مسائل مثل هذه هو فرعون ، وهذا يشعر بأن فرعون قد أدرك أن مكانته قد انحطت وأنه نزل عن كبريائه وغطرسته . أو أن يكون ذلك من فرعون تطييباً لقلوب من حوله ، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، فكيف تشاور الناس يا فرعون وأنت قد غرست في الناس أنك إله؟ وهل يشاور الإله مألوهاً؟ . إن قولك هذا يحمل الخيبة فيك لأنك تدعي الألوهية ثم تريد أن تستعين بأمر المألوه .
ويقول الحق سبحانه : { قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ . . . }

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111)

و { أَرْجِهْ } أي أخّره مثل قوله الحق : { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ . . . } [التوبة : 106] .
أي أنهم مؤخرون للحكم عليهم وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فخلفوا وأرجئ أمرهم حتى نزل فيهم قوله سبحانه : { وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ } إلخ الآية .
وقولهم : { أَرْجِهْ وَأَخَاهُ } [الأعراف : 111]
وهكذا كان طلب الإرجاء لأن المسألة أخطر من أن يُتَصَرَّف فيها تصرفاً سريعاً بل تحتاج إلى أن يؤخَّر الرأي فيها حتى يجتمع الملأ ، ويرى الجميع كيفية مواجهتها ، فهي مسألة ليست هينة لأن فيها نقض ألوهية فرعون ، وفي هذا دك لسلطان الفرعون وإنهاء لانتفاعهم هم من هذا السلطان

. فإذا كان قد قال لهم : { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } .
فكأنه كان يطلب منهم الرأي فوراً ، لكنهم قالوا إن المسألة تحتاج إلى تمهل وبطء ، وأول درجات البطء والتمهل أن يُستدعى القوم الذين يفهمون في السحر . فما دمنا نقول عن موسى : إنه ساحر ، فلنواجهه بما عندنا من سحر : وقبول فرعون لهذه المشورة هدم لألوهيته؛ لأنه يدعي أنه إله ويستعين بمألوه هم السحرة ، والسحرة أتباع له . وقوله الحق كان على ألسنتهم : { وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ } [الأعراف : 111]
يدل على أن السحر كان منتشراً ، ومنبثقاً في المدائن وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملأ بقوله : { يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ }

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112)

ولأن المستشرقين يريدون أن يشككونا في القرآن قالوا : ولماذا قال في سورة الشعراء : { يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } . وكان هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين { سَاحِرٍ عَلِيمٍ } و { سَحَّارٍ عَلِيمٍ } ؛ ولأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن « سحّار » تفيد المبالغة من جهتين . فكلمة « ساحر » تعني أنه يعمل بالسحر ، و « سحّار » تعني أنه يبالغ في إتقان السحر ، والمبالغات دائماً تأتي لضخامة الحدث ، أو تأتي لتكرر الحدث . ف « سحّار » تعني أن سحره قوي جدًّا ، أو يسحر في كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر ، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً . ومادام القائلون متعددين . . فواحد يقول : ساحر ، وآخر يقول : سحَّار وهكذا . والقرآن يغطي كل اللقطات . { قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } [الأعراف : 111-112]
و « حاشرين » تعني مَن يحشر لك السحرة ويجمعهم لا بإرادتهم ولكن بقوة فرعون وبطش جنده .

ويقول الحق سبحانه : { وَجَآءَ السحرة فِرْعَوْنَ . . . }

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113)

وقوله : { وَجَآءَ السحرة فِرْعَوْنَ } يدل على بطش الآمر ، أي أنه ساعة قال الكلمة هُرع الجند بسرعة ليجمعوا السحرة . وقد ولغ بعض المستشرقين في هذه اللقطة أيضاً فتساءلوا : ولماذا جاء بقول مختلف في سورة أخرى حين قال : { إِنَّ لَنَا لأَجْراً . . . } [الشعراء : 41]
لقد جاء بها بهمزة الاستفهام ، وفي سورة الأعراف جاء من غير همزة الاستفهام ، وهذه آية قرآنية ، وتلك آية قرآنية . وأصحاب هذا القول يتناسون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد

انفعل انفعالاً أدى به مطلوبه؛ فالذي يستفهم من فرعون قال : « أإن » ، والشجاع قال لفرعون : { أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً } . وفي القضية الاستفهامية لا يتحتم الأجر لأنه من الجائز أن يرد الفرعون قائلا : أنْ لا أجر لكم ، ولكن في القضية الخبرية « إن لنا لأجراً » اي أن بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الأجر ، وقد غطى القرآن هذا الاستفهام ، وهذا الخبر .

وتأتي إجابة فرعون على طلب السحرة للأجر : { قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ . . . }

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)

و « نعم » حرف جواب قائمة مقام جملة هي : لكم أجر ، وأضاف أيضاً : { وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين } .

وهذا دليل على أنه ينافقهم أو يبالغ في مجاملتهم؛ لأنه يحتاج إليهم أشد الحاجة . وهكذا نجد ألوهية فرعون قد خارت أمام المألوهين السحرة . وقوله : { لَمِنَ المقربين } هذه تدل على فساد الحكم؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء . لكن إذا ما كان هناك مقربون فالدائرة الأولى منهم تنهب على قدر قربها ، والدائرة الثانية تنهب أيضاً ، وكذلك الثالثة والرابعة فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناس مصنفين عند الحاكم .

ولذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه كان يسوّي الناس جميعاً في نظره حتى يظن كل إنسان أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يدنى أحداً أو يقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع بأنه مقرب . .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالُواْ ياموسى . . . }

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115)

ونلحظ أنهم لم يؤكدوا لموسى رغبتهم في أن يلقي هو أولا عصاه . ولكنهم أكدوا رغبتهم في أن يكونوا هم أول الملقين . فجاءوا بضمير الفصل وهو (نحن) الذي يفيد التأكيد .

ونعلم أن مَن يعقِّب ويكون عمله تاليا لمن سبقه ، فإن فعله هو الذي سيترتب عليه الحكم .

ولابد أن يكون قوي الحجة . هم يريدون أم يكونوا هم المعقبين ، وأن موسى الذي يبدأ ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدأوا هم أولاً؛ لذلك جاءوا بالعبارة التي تحمل المعنيين : { إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين } [الأعراف : 115]

فعلم موسى أنهم حريصون ، على أن يبدأوا هم بالإلقاء فأتوا بكلمة (نحن) . وفكر موسى أن من صالحه أن يلقوا هم أولاً؛ لأن عصاه ستلقف وتبتلع ما يلقون؛ لذلك يأتي قوله سبحانه : { قَالَ أَلْقَوْاْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سحروا . . . }

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116)

هم – إذن – سحروا أعين الناس ، والسحر –كما نعلم – لطف حيلة يأتي بأعجوبة تشبه المعجزة . وكأنها تخرق القانون ، وهو غير الحيلة التي يقوم بها الحواة؛ لأن الحواة يقومون بخفة حركة ، وخفة يد ، ليعموا الأمر على الناس . لكن « السحر » شيء آخر ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جنس بقانون؛ خلق الإنس بقانون ، وخلق الجن بقانون ، وخلق الملائكة بقانونها : { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ . . . } [المدثر : 31]

وكل قانون له خصائصه ومميزاته التي تناسب عنصر تكوينه ، فالإنسان – مثلاً – لأنه مخلوق من الطين له من الكثافة ما يمنعه من التسلل من خلال جدار؛ لأنك لو كنت تجلس وهناك تفاحة وراء الجدار الذي تجلس بجواره فلن يتعدى ريحها ولا طعمها إلى فمك؛ لأن الجدار يحول بينك وبين ذلك ، لكن لو كانت هناك جذوة من نار بجانب الجدار الذي تستند عليه لكان من الممكن أن يتعدى أثرها لك؛ لأن النار إشعاعات تنفذ من الأشياء ، ولأن الجن مخلوق من نار ، لذلك نجد له هذه الخاصية . { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . } [الأعراف : 27]

فإذا كان الجن له قانون والإنس له قانون ، فهل القانون هو الذي يسيطر؟ لا ، بل رب القانون هو الذي يسيطر لأنه جل وعلا فوق القانون . فيأتي الله للإنس ويُعَلّم واحداً منهم بعضاً من أسرار كونه ليستذل الجن لخدمته ، برغم ما للجن من خفة حركة ، فسبحانه يوضح : لا تظن أيها الجن أنك قد أخذت خصوصيتك من العنصر الذي يكونك لأن هناك القادر الأعلى وهو المعنصر لك ولغيرك ، بدليل أن الإنسان وهو من عنصر آخر يتحكم فيك بعد أن علمه الله بعضاً من أسرار كونه . ولننتبه دائماً أن العلم بأسرار تسخير الجن هو من ابتلاءات الحق للخلق؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ . . . } [البقرة : 102]

فكأن هاروت وماروت وهما يعلّمان الإنسان كيف يمارس السحر ، ينصحان الإنسان الذي يرغب في أن يتعلم السحر أولاً ، ويوضحان له أنهما فتنة أي ابتلاء واختبار ويقولان له : { فَلاَ تَكْفُرْ } ، مما يدل على أن كل من يتعلم السحر؛ إن قال لك : إني سأستعمله في الخير فهو كاذب؛ لأنه يقول ذلك ساعة صفاء نفسه تجاه الخلق ، لكن ماذا إن غافله إنسان من أي ناحية وغلبه على بعض أمره وهو يملك بعضاً من أسرار السحر؟ هل يقدر على نفسه؟ لقد قال إنه أمين وقت التحمل ، لكن هل يظل أميناً وقت الأداء؟ إن من يتعلم السحر قد يستخدمه في الانتقام من غيره ، وبذلك يضيع تكافؤ الفرص ، ونعلم أن تكافؤ الفرص هو الذي يحمي الناس ، ويعطي بعضهم الأمن من بعض ، ويُلزم كل إنسان حدّه .

فإذا أخذ إنسان سلاحاً ليس عند غيره فقد يستخدمه ضد من لا يملك مثله ، والإنسي الذي يأخذ سلاح استخدام الجن إنما يأخذ سلاحاً لا يملكه أخوه الإنسي ، وبذلك يكون قد أخذ فرصة أقوى من غيره وفي هذا ابتلاء؛ لأن الإنسان قد ينجح فيه وقد يخفق فلا يظفر بما يطلبه ، وقوله سبحانه : { فَلاَ تَكْفُرْ } يدل على أنهما علما طبائع البشر في أنهم حين يأخذون فرصة أعلى قد يُضْمَنون وقت صفاء نفوسهم ، ولكنهم لا يُضْمَنون يوم تعكير نفوسهم . { فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله . . . } [البقرة : 102]

ما دام الحق هو الذي أعطاهم هذه القدرة فهو سبحانه القادر على أن يسلبها منهم ، مثلما يمنح الله سبحانه وتعالى القدرة لإنسان ليكون غنيًّا وقادراً على شراء سلاح ناري ، وأن يتدرب على إطلاق النار ، فهذا الرجل ساعة يغضب قد يتصور أن يحل خلافه مع غيره أو ينهي غضبه مع أي إنسان آخر بإطلاق الرصاص عليه . لكن لو لم يكن معه « مسدس » فقد ينتهي غضبه بكلمة طيبة يسمعها ، إذن فساعة ما يمنع الله أمراً فهو يريد أن يرحم؛ لذلك يقول : { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ } .

وفي هذا تحذير لمن يتعلم مثل هذا الأمر ، ويريد سبحانه أن يحمي خلقه من هذه المسألة ، فلو أنك تتبعت هؤلاء لاستذلوك واستنزفوك ، ويتركك الله لهم لأنك اعتقدت فيهم ، أما إن قلت « اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر ، ولكنك احتفظت لنفسك بإذن الضر ، فإني أعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه ، بحق قولك : { وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله } ، ويكفي أن نعلم أنه سبحانه قد قال : { وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله } . هنا لن يمكنهم الله منك ، إنما إن استجبت وسرت معهم ، فهم يستنزفونك ، وأراد الله أن يفضح هذه العملية فقال على ألسنة السحرة الذين استدعاهم فرعون : { أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً . . . } [الشعراء : 41 }

وكأنهم يعترفون بالنقص فيهم ، فعلى الرغم من ادعائهم القدرة على فعل المعجزات إلا أنهم عاجزون عن الكسب الذي يوفي حاجاتهم؛ لذلك طلبوا الأجر من فرعون ، وهذا حال الذين يشتغلون بالسحر والشعوذة . هم يدعون القدرة ويعانون الفاقة والعوز . هكذا حكم الحق بضيق رزق من يعمل بالسحر ، ويفضحهم الحق دائماً ، وللعاقل أن يقول : ماداموا يَدّعُون الفلاح فليفلحوا في إصلاح أحوالهم . ومادام الساحر يدعي أنه يعرف أماكن الكنوز المخبوءة فلماذا لا يعرف كنوزاً في الأرض التي ليست مملوكة لأحد ويأخذها لنفسه؟ هذا إن افترضنا أن الساحر أمين للغاية ولا يريد أن يأخذ من خزائن الناس .

ولذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بشعي الهيئة؛ مصابين في الذرية؛ لأن الكائن منهم استغل فرصة لا توجد لكل واحدٍ من جنسه البشري ، وذلك للإضرار بالناس .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقاً } [الجن : 6]

وهنا يقرر الحق أنهم سيعيشون في إرهاق وتعب . ولذلك يتحدد موقفنا من السحر بأننا لا ننكره مثلما ينكره آخرون . فقد قال بعض من العلماء : إن السحرة جاءوا بعصيّ وضعوا فيها زئبقاً ، وعند وجود الزئبق تحت أشعة الشمس تعطي له حرارة فتتلوى العصى ، لكن نحن لا ننكر السحر ، كما لا ننكر الجن لأنه لا يفوتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن عفريتا من الجن تفلّت عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام : { رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي } » .

فمادام الحق قد قال : إنه خلق خلقاً لا تدركهم بإحساسك ، فنحن نقر بما أبلغنا به الحق؛ لأن وجود الشيء أمر وإدراك وجوده أمر آخر ، وكل مخلوق له قانونه ، فالعفريت من الجن قال لسيدنا سليمان عن عرش بلقيس : { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ . . . } [النمل : 39]

وكأن الجن يطلب زمناً ما ، فقد يجلس سليمان في مقامه معهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثا ، لكن الذي عنده علم من الكتاب يقول : { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . . } [النمل : 40]

ولابد أن يكون طرفه قد ارتد في أقل من ثانية بعد أن قال ذلك ، ولهذا نجد القرآن يورد ما حدث على الفور فيقول : { فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ } .

مما يدل على أن الله قد خلق الأجناس ، وخلق لكل جنس قانوناً ، وقد يكون هناك قانون أقوى من قانون آخر ، لكن صاحب القانون مخلوق لذلك لا يحتفظ به؛ لأن خالق القانون يبطله ، ويسلط أدنى على من هو أعلى منه . ولندقق في التعبير القرآني : { سحروا أَعْيُنَ الناس } .

ونحن أمام أشياء هي العصى والحبال . وجمع من البشر ينظر . ونفهم من قوله الحق : { سحروا أَعْيُنَ الناس } أن السحر يَنْصَبُّ على الرائي له ، لكن المرئي يظل على حالته ، فالعصى هي هي ، والحبال هي هي ، والذي يتغير هو رؤية الرائي . ولذلك قال سبحانه في آية ثانية : { . . . يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى } [طه : 66]

إذن فالسحر لا يقلب الحقيقة ، بل تظل الحقيقة هي هي ويراها الساحر على طبيعتها . لكن الناس هي التي ترى الحقيقة مختلفة . إذن فالسحرة قد قاموا بعملهم وهو : { سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم } .

واسترهبوهم أي أدخلوا الرهبة في نفوس الناس من هذه العملية ، وظن السحرة أن موسى سيخاف مثل بقية الناس المسحورين ، ونسوا أن موسى لن ينخدع بسحرهم؛ لأنه باصطفاء الله

له وتأييده بالمعجزة صار منفذاً لقانون الذي أرسله فجعل عصاه حية ، وصاحب القانون هو الذي يتحكم . وهم قد جاءوا بسحر عظيم ، وهو أمر منطقي؛ لأن العملية هي مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاء ألوهيته ، لذلك لا بد أن يأتوا يآخر وأعظم ما عندهم من السحر .

ويقول الحق : { وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى . . . }

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117)

ولماذا احتاجت هذه المسألة إلى وحي جديد خصوصاً أنه قد سبق أن تم تدريب موسى على إلقاء العصا؟ . ونقول : فيه فرق بين التعليم للإعداد لما يكون ، والتنفيذ ساعة يكون ، فساعة يأتي أمر التنفيذ يجيء الحق بأمر جديد ، فربما يكون قد دخل على بشرية موسى شيء من السحر العظيم ، والاسترهاب ، هذا ونعلم أن قصة موسى عليه السلام فيها عجائب كثيرة . فقد كان فرعون يقتل الذكران ، ويستحي النساء ، وأراد ربنا ألا يُقتل موسى فقال سبحانه : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . } [القصص : 7]

وقوله سبحانه : { أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ } يدل على أن العملية المخوفة لم تأت بعد ، بل ستأتي لاحقّاً . وهات أيَّة امرأة وقل لها : إن كنت خائفة على ابنك من أمر ما فارميه في البحر . من المؤكد أنها لن تصدقك ، بل ستسخر منك؛ لأنها ستتساءل : كيف أنجيه من موت مظنون إلى موت محقق؟ . وهذا هو الأمر الطبيعي ، لكن نحن هنا أمام وارد من الله إلى خلق الله ، ووارد الله لا يصادمه شك . إذن فالخاطر والإلهام إذا جاء من الله لا يزاحمهما شيء قط . ولا يطلب الإنسان عليه دليلاً لأن نفسه قد اطمأنت إليه؛ لذلك ألقت أم موسى برضيعها في البحر .

ويقدّر الله أنها أم فيقول : { وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ . . . } [القصص : 7]

ولن يرده إليها فقط ، بل سيوكل إليه أمراً جللاً . { . . . وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7]

وكأن الحق سبحانه يوضح لأم موسى أن ابنها لن يعيش من أجلها فقط ، بل إن له مهمة أخرى في الحياة فسيكون رسولاً من الله . فإذا لم تكن السماء ستحافظ عليه لأجل خاطر الأم وعواطفها ، فإن السماء ستحفظه لأن له مهمة أساسية { وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } . ونلحظ أن الحق هنا لم يأت بسيرة التابوت لكنه في آية ثانية يقول : { إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل } [طه : 38-39]

ولم يقل في هذه الآية : { وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي } ؛ لأنه أوضح لها ما سوف يحدث من إلقاء اليم له بالساحل . وقوله في الأولى : { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ } . هو إعداد للحدث قبل أن يجيء ، وفي هذه الآية : { إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى . . . } إلخ تجد اللقطات سريعة متتابعة لتعبر عن

التصرف لحظة الخطر . لكن في الآية الأولى : { وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } نجد البطء والهدوء والرتابة؛ لأنها تحكي عن الإعداد . لما يكون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعطي كل جنس قانوناً ، وكل قانون يجب أن يُحترم في نطاقه ، لأن تكافؤ الفرص بين الأجناس هو الذي يريده الله . وحينما أراد سبحانه وتعالى أن يبين لنا هذه المسألة أوضح أن على المؤمن أن ينظر إلى المعطيات من وراء التكاليف ، وفي آية الدّيْن – على سبيل المثال – نجد الحق يوصي المقترض « المدين » – وهو الضعيف – أن يكتب الدَّيْن ، ويعطي بذلك إقراراً للدائن وهو القوي القادر فيقول سبحانه :

{ وَلاَ تسأموا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إلى أَجَلِهِ . . . } [البقرة : 282]

والمسألة هنا في ظاهر الأمر أنه يحمي الدائن ونقوده ، لكن علينا أن ننتبه إلى أنه يحمي المدين من نفسه؛ لأن الدَّيْن إن لم يكن موثقاً فالمدين لن يبذل الجهد الكافي للسداد ، وباجتهاد المدين نفيد الوجود بطاقة فاعلة . ولكن إن لم نوثق الدَّيْن ، وتكاسل المدين عن العمل والسداد فقد تشيع الفوضى في المجتمع ويرفض كل إنسان أن يقرض أحداً ما يحتاج إليه . وبذلك تفسد الأمور الاقتصادية .

إذن فسبحانه حين يأمر بتوثيق الدَّيْن ، وإن كان في ظاهر الأمر حماية للدائن . لكنّه في باطن الأمر يحمي سبحانه المدين ، لأن هناك فرقاً بين ساعة التحمل للحكم ، وساعة أداء الحكم .

مثال ذلك حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندي ألف جنيه وخائف أن يضيع مني فخذه أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودَع عنده إن شاء أنكر ، وإن شاء أقر . ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك . يقول ذلك وفي ذمته ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتي ليطلبه يعطيه له ، إنه يَعِدُ ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتي له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتعلل بالحجج ليبعد صاحب المال عنه .

إذن هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة الأداء لهذه الأمانة . والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معاً ، إنّ بعض الناس يرفض الأمانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء .

والذي يتعلم شيئاً يناقض ناموس وجوده كتعلم السحر نقول له : احذر أن تُبتلى وتُفتن ، بل ابتعد واحفظ نفسك ولا تستعمل ذلك ، واحذر أن تقول أنا سأستعمل ما تعلمته من سحر في الخير ، ومن يأتي لي وهو في أزمة سوف أحلها له بالسحر . ونقول : لهذا الإنسان : أنت تتكلم عن وقت التحمل ، ولكنك لا تتكلم عن وقت الأداء .

ويقول الحق سبحانه : { وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } [الأعراف : 117]

والإِفك هو قلب الشيء على وجهه ، ومنه الكذب . وعلمنا من قبل أن كل شيء له نسبة كلامية وله نسبة واقعية ، فإذا قلت مثلاً « محمد مجتهد » فهذه نسبة كلامية ، لكن أيوجد واحد في الواقع اسمه محمد وموثوق في اجتهاده؟ . إن كان الأمر كذلك فقد وافقت النسبة الكلامية النسبة الواقعية ، ويكون الكلام هو الصدق ، أما الكذب فهو أن تقول « محمد مجتهد » ولا يوجد إنسان اسمه محمد ، وإن كان موجوداً فهو غير مجتهد ، ويكون الكلام كذباً لأن النسبة الكلامية خالفت النسبة الواقعية ، وحين يكذب أحد فهو يقلب المسألة ونسمى ذلك كذباً ، وشدة الكذب تسمى إفكاً .

أو الكذب ألا يكون هناك تطابق ، وإن لم تكن تعلم ، والإِفك أن تتعمد الكذب ، وهذا أيضاً افتراء . { أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } .
وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَإِذَا } وهي تعبر عن الفجائية حيث ابتلعت عصا موسى – بعد أن صارت حية – ما أتى السحرة وجاءوا به من الكذب والإِفك وسحروا به أعين الناس .
ويقول سبحانه بعد ذلك : { فَوَقَعَ الحق وَبَطَلَ . . . }

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118)

وقوله : { فَوَقَعَ الحق } أي صار الحق النظري واقعاً ملموساً؛ لأن هناك فارقاً بين كلام نظريًّا وكلام يؤيده الواقع ، والوقوع عادة يكون من أعلى بحيث يراه ويعرفه كل من يراه .
وقوله سبحانه : { فَوَقَعَ الحق } أي ثبت الحق ، فبعد أن كان كلاماً خبريًّا يصح أن يصدَّق ويصح أن يُكَذب . صار بصدقه واقعاً . { فَوَقَعَ الحق وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } .
والذي بطل هو ما كانوا يعملون من السحر . إن الحق جعل الصدق موسى واقعاً مشهوداً . وبذلك غُلب السحرة .
ويقول الحق : { فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وانقلبوا صَاغِرِينَ }

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119)

ولم يغلب السحرة فقط ، بل غلب أيضاً فرعون وجماعته ، وعاش كل من هو ضد موسى في صَغَار ، صغار للمستدعِي وصغار للمستدعَى . لذلك ذيل الحق الآية بقوله : { وانقلبوا صَاغِرِينَ } أي أذلاء .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ }

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120)

ولم يقل الحق : وسجد السحرة ، ولكنه قال : « ألقى » مما يدل على أن خرورهم للسجود ليس برأيهم ، لكنه عملية انبهارية مما حصل أمامهم ، كأن شيئاً آخر ألقاهم ساجدين ، وهو الانبهار بالحق . فالساحر منهم كان يعتقد أنه هو الذي يسحر ، ثم يفاجأ مجموع السحرة أن موسى حين ألقى عصاه رأوها حية بالفعل فعرفوا أن المسألة ليست سحراً ، وحينما ألقوا عصيهم وحبالهم التي جاءوا بها من كل المدائن ، قيل إنها حُملت على سبعين بعيراً وشاهدوا كيف أن العصا التي صارت حية أو ثعباناً لقفت كل هذا وابتلعته! وحجم العصا هو حجم العصا مهما طالت ،
وهكذا تيقن أن هذا لا يمكن أن يكون من فعل ساحر ، وانظر إلى الاستجابة منهم لمَّا رأوا : { قالوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين }

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121)

وهل هم سجدوا بعد الإيمان؟ أم آمنوا بعد السجود؟ النص هنا يظهر منه أنهم آمنوا بعد السجود ، ولكن كان الأمر يقتضي ألا يسجد أحد إلا لأنه آمن ، لكن نحن نعرف أن الإيمان عمل قلبي ، والسجود عمل عضلي وسلوك عملي ، فكل منهم آمن بقلبه فسجد .
وهناك فرق بين أن يؤمنوا فيسجدوا ثم يعلنوا إيمانهم؛ فيقولوا : آمنا برب العالمين؛ لذلك نحن لا نرتب السجود على إيمان ، بل نرتب السجود مع القول بالإيمان وبإعلان الإيمان؛ لأن إعلان الإيمان شيء ، والإيمان شيء آخر ، فكأنهم آمنوا فخروا ساجدين وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان ، وكأن الناس سألوهم : ما الذي جرى لكم؟ فقالوا : { آمَنَّا بِرَبِّ العالمين } .
إذن فمن يحاول أن يستدرك على النص فعليه أن ينتبه إلى أن إخبارهم عن الإيمان يعني وجود الإيمان أولاً ، والسحرة قد آمنوا فسجدوا ، فاستغرب منهم الناس هذا السجود ، وهنا قال السحرة : لا تستغربوا ولا تتعجبوا فنحن قد آمنا برب العالمين . { آمَنَّا بِرَبِّ العالمين } [الأعراف : 121]
وقيل في بعض التفاسير : إن فرعون قال : أنا رب العالمين . لكن السحرة لم يتركوا قوله هذا فأعلنوا أن رب العالمين هو : { رَبِّ موسى وَهَارُونَ } . وقال فرعون : لقد ربيت أنا موسى ، فقالوا : لكنك لم ترب هارون .
ولذلك أوضح الحق هنا أن رب العالمين هو : { رَبِّ موسى وَهَارُونَ }

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122)

ولأن السحرة أعلنوها واضحة بالإيمان برب العالمين رب موسى وهارون ، وكان لابد أن يغضب فرعون ، فيأتي القرآن بما جاء على لسانه : { قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ . . . }

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123)

وكأن فرعون مازال يحاول تأكيد سلطانه ، ونعلم أن بني إسرائيل اختلطوا بالناس في مصر ، ومنهم من تعلم السحر . ولذلك اتهم فرعون السحرة بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون في مأزق ويريد أن يخرج منه؛ لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة ، وهو لا يريدهم أن يتشككوا في ألوهيته ، فينهدم الصرح الذي أقامه على الأكاذيب؛ لذلك قال السحرة : إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة . . أي أنكم اتفقتم مع موسى ، وسيأتي ويقول : اتهاماً لموسى : { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر . . . } [طه : 71]

ونتيجة لهذا المكر المتوهم بين بني إسرائيل وموسى يتوعدهم فرعون : { لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ . . . }

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124)

والوعيد -كما نراه - قاسٍ وفظيع ، فتقطيع الأيدي والأرجل ثم الصلب كلها أمور تخيف ، فماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم؟ إنهم يقولون : { قالوا إِنَّآ إلى . . . }

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125)

إنك قد عجلت لنا الخير لأننا سنكون في جوار ربنا ، فأنت بطيشك وحماقتك قد أسديت لنا معروفاً وخيراً من حيث لا تدري . ويزيدون في تقريع فرعون بما يجيء في القرآن على ألسنتهم : { وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا . . . }

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126)

ما الذي تكرهه منا لأن « تنقم » تعني تكره ، وقولهم لفرعون : أليس الذي تكرهه منا أنَّا آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا؟ وهل الإيمان بآيات الإله حين تجيء مما يُكره؟!! ويسمون ذلك في اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم؛ كأن يقول إنسان : ماذا تكره فيّ؟ أصدقي؟ أمانتي؟ أجودي؟ أعلمي؟ كأنه يعدد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنها لا تُكره ، لكن الخطأ في مقاييس من يكره الصواب ، فهي أمور لا تستحق أن تُكره أو تعاب أو تُذَم . لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير وكلهم يفضل جوار الله على جوار فرعون . وهذا الذي يعتبره فرعون عقاباً إنما يثبت خيبته حتى

في توقع العقوبة؛ لأنه لو لم يهددهم بهذه الميتة فهم سيموتون ليرجعوا إلى الله ، وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن ينقلب إلى الله ، وكأنهم أبطلوا وعيد فرعون حين قال لهم : { لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } [الأعراف : 124]

ثم يتجهون إلى ربهم وخالقهم فيقولون : { رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } .

و « الإفراغ » أن ينصب شيء على شيء ليغمره ، وكانهم يقولون : أعطنا يا رب كل الصبر ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم . ولذلك قال بعض العارفين بالله : عجبي لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء بررة .

ويقول سبحانه : { وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ . . . }

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127)

وهكذا نعرف أن المقربين من فرعون هم أول من خافوا على سلطانهم ، ويدل هذا القول أيضاً على أن فرعون لم يتعرض لموسى بأي أذى؛ لأنه مازال يعيش في رهبة اليقين وصولة الحق مما جعله متوجساً وخائفاً من موسى؛ لأن فرعون أول من يعلم أن مسألة ألوهيته كذب كلها ، ويعلم جيداً أن موسى على حق ، لكن إعلان انهزامه أمام الجمع ليس أمراً سهلاً على النفس البشرية ، وسأل الملأ من قوم فرعون الذين اهتز أمامهم سلطانه ومكانته ، قالوا : لفرعون : أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض؟ . أو فيما يبدو أن موسى وهارون تركا المكان بعد أن انتهيا من أمر السحرة ، ولم يقبض عليهما فرعون؛ لذلك تساءل الملأ من قوم فرعون : { وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأرض وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ } [الأعراف : 127]

و « يذرك » أي يدعك ويتركك ، وكان فرعون يعتقد أن هناك آلهة علويين وآلهة سفليين ، وهو رب العالم السفلي كله . لذلك قالوا : { وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ } . وهناك قراءة أخرى « ويذرك إلاهتك أي عبادتك » . أي يتركك أنت ويترك عبادتك . ويقول فرعون : { قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ } .

وحتى تلك اللحظة لم يتعرض فرعون لموسى ، ولا يزال خوفه من موسى يمنعه من الاقتراب أو الدنو أو الاتصال به ولو بكلمة ، إنه يأخذ الحذر من أن يقدم على شيء ضد موسى ، فيفاجئه موسى مفاجأة ثانية . ويقال إن الثعبان الذي ظهر ساعة ألقى موسى عصاه فتح شدقيه واتجه إلى فرعون ، فقال : كف عني وأومن بما جئت به . وهو أمر محتمل؛ لأن فرعون حتى هذه اللحظة لم يجرؤ على الاقتراب من موسى ، وجاء بخبر قتل الأبناء وسبيْ النساء ولم يأت بسيرة موسى . { . . سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } [الأعراف : 127]

والقوي حين يملك القدرة على الضعيف لا يشد الخناق عليه شدًّا ليفتك به؛ لأنه يعرف ضعفه ، ويستطيع أن يناله في أي وقت ، لكن لو كان الخصم أمامك قويًّا فأنت ترهبه بالقوة حتى يخضع لك . وهنا يقول فرعون : { وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } .

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم مسيطرون وغالبون ، ولن يستطيع قوم موسى أن يفلتوا منهم . ويؤكد فرعون : سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم؛ لأن الأبناء هم العدة ، والنساء عادة شأنهن مبني على الحجاب ، وعلى الستر ، وفي إبقاء المرأة وقتل الرجل إذلال للرجال؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء . ولذلك كان العرب حين يغيرون على عدو ، يصحبون نساءهم لتزيد الحمية ولا يخور ولا يجبن واحد وتراه زوجه أو أخته أو ابنته وهو على هذا الحال ، وكذلك كان العرب يخافون الانهزام حتى لا يمسك العدو نساءهم ويأخذهن سبايا .

وهنا يؤكد فرعون إصراره على إذلال قوم موسى بأن يعيد قتل الأبناء ، وأن يستحيي النساء ، وكان الفرعون يفعل مثل ذلك الأمر من قبل ، والسبب في ذلك أن بني إسرائيل كانوا يساعدون ملوك الهكسوس ، وبعد أن طرد الفراعنة الهكسوس ، اتجهوا إلى إيذاء بني إسرائيل الذين كانوا في صف الهكسوس ، ومن بقي من بني إسرائيل تعرض لتقتيل الأبناء ، لكن الحق أنقذ موسى حين أوحى لأمه أن تلقيه في اليم ليربيه فرعون . وها هو ذا فرعون يعيد الكرة مرة أخرى بالأمر بتقتيل الأبناء وسبي النساء .

ويقول الحق بعد ذلك : { قَالَ موسى لِقَوْمِهِ . . . }

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)

ويقرر موسى الحقيقة الواضحة وهي أن الأرض ليست لفرعون ، والعاقبة لا تكون إلاَّ للمتقين . وكأنه بهذا القول يريد أن يردهم إلى حكم التاريخ حيث تكون العاقبة دائماً للمتقين ، فإن قال لفرعون : وإنا فوقهم قاهرون ، مستعلون غالبون مسلطون مسيطرون ، فإن موسى يرد على ذلك : أنا أستعين بمن هو أقوى منك . إن موسى عليه السلام يأمر بأن يستعينوا بالله ، ويصبروا على ما ينالهم من بطش فرعون وظلمه .

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمّنهم في الأرض ويمكن لهم فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق . ولكن ماذا كان موقف قوم موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، والنصر لهم؟ . نجد الحق سبحانه يقول : { قالوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ . . . }

قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أوذينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، وبعد أن جئت ها نحن أولاء نتلقى الإيذاء .كأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً . إذن هم نظروا للابتلاءات التي يجريها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى المنة والمنحة والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك هزمهم موسى ، وكان يجب أن يكون تنبيها لهم لقدر عطاءات الله ، هم يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسبوا أيام الرخاء .

وقوله : { فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } يدل على أنهم سوف يخونون العهود ، ويفعلون الأشياء التي لا تتناسب مع هذه المقدمات . وفي الإسلام نجد عمرو بن عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رغيف أو رغيفان ، فقال : التمسوا رغيفاً لابن عبيد . فرد عليه العامل : لا نجد . فلما ولي الخلافة وعاش في ثراء الملك ونعمته دخل عليه ابن عبيد وقال : لقد صدق معكم الحق يا أمير المؤمنين في قوله : { . . . عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف : 129]

وقد قال موسى لقومه بعد أن عايروه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا ، أي بالتذبيح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكأن مجيئك لم يفدنا شيئاً لأننا مقيمون على العذاب الذي كنا نُسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة في أن تكون موجوداً؛ بدليل أن الذي حدث بعدك هو الذي حدث قبلك .

ولم يلتفتوا إلى أن الإيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكأن موسى يرد عليهم بأن أسباب الإيذاء ستنتهي ، وأن الله سيهلك عدوكم الذي آذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد . ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة؛ بل يزيدكم بأن يستخلفكم في الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكأن هنا أمرين : الأمر الأول سلبي : وهو إهلاك العدو ، والأمر الثاني إيجابي : وهو استخلافكم في الأرض وهذا أمر لكم ، ووعد من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تنتبهوا إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم في الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى { عسى } فهي كلمة – كما يقول علماء اللغة – تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول . وهناك فرق بين التمني وبين الرجاء . فالتمني أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون في الحصول عليه عسر ، ولكنك تريد – فقط – بالتمني إشعار حبك له ، فأنت إذا قلت : ليت الشباب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حبك لمرحلة الشباب .

وقصارى ما يعطيه أن يعلمنا أنك تحب هذا المتمنَّي . لكن هل يتحقق أو لا يتحقق . . فهذه ليست واردة .

لكن « الرجاء » شيء محبوب يوشك أن يقع . وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمني . وأداة التمني « ليت » وأداة الرجاء « عسى » . وحين يكون بعد « عسى » ما يُرْجَى فلذلك مراحل تتفاوت بقوة أسباب الرجاء في الوقوع . فأنا مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إليّ أنا ، لأنَّ إكرامي لك يقتضي بقائي ، وعدم تغير نفسي من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسي قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامي لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغيار ، ومادمت صاحب أغيار فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكني لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسي عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل في حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى الله أن يكرمك فلان وهو مساويه ، فهذا أمر مستبعد قليلاً؛ لأن من يقول ذلك لا يملك أن يقوم فلان بإكرام المساوي له ، لأنه صاحب أغيار .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يعجزه شيء عن إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فسبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أو يستعصي أو يتأبى عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : { عسى رَبُّكُمْ } فقد انتهت المسألة وتقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هي : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن بعد الحق بالإكرام أو بالرحمة . { عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ . . . } [الأعراف : **129**]

والكلام كما نراه هو من موسى ، ولا يقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء؟ . نعلم أن موسى رسول أرسله الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً : { عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ } .

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمفردها ، أما أن يهلك الله عدوي ويعطيني الحق مكانة عدوي العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا ما سوف يحدث يوم القيامة؛ لأن الحق يقول : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . . } [آل عمران : **185**]

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فما بالك بمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة؟ . لقد نال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : { عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ } . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هي : { وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض } .

لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون؟ . هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها؟ فالإنسان ظلوم كفار .

وكلمة « ينظر » إذا جاءت على الإنسان فُهِم المراد منها أي يراك بناظره . وإذا أُسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حدقة عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره؛ لأنه هو – سبحانه – عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ في مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه . وعميد الكلية يقول له : ما رأيك؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثاني لابد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذي رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت في الحكم؛ ولو مكنتني من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدي الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب في الامتحان .

إن الله سبحانه حين يقول : { فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } . هو سبحانه لا ينظرها ليعلمها – حاشا الله – فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكن يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم أزلاً بكل من يهدي ومن يضل . ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن في الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن في النار لا تسع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسع كل الخق ، ولم يحكم بعلمه في هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً آمنتم فلكم كلكم أماكن في الجنة . وعلى فرض أنكم – والعياذ بالله – كفرتم فلكم أماكن في النار ، وسبحانه لن ينشئ شيئاً جديداً ، بل أعد كل شيء وانتهى الأمر .

وحين يأتي أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلن لأهل الجنة : أورثتموها وخذوها أنتم : { ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا . . . } [الأعراف : 43]

وهي ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها . فإياك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً . لا . أنَّه العليم أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب . . . } [الحديد : 25]

وسبحانه يعلم أزلاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذي يكون حجة على الخلق . وهنا في الآية التي نحن بصددها ثلاثة أشياء : أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن

يستخلفكم في الأرض ، فينظر كيف تعملون . ونحقق فيما تحقق منهما .
وجاء سبحانه في مقدمة الإِهلاك ، فقال : { وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بالسنين . . . }

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130)

وهكذا نرى أن الإِهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله .
نحن نعلم أن السنة هي العام . . أي من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تطلق - أيضاً - على الجدب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه على قومه :
« اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف »
أي أن ينزل بهم سبحانه بعضاً من الجدب ليتأدبوا قليلاً .
ويقال : « أسنت القوم » أي أصابهم قحط وجدب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجدب .
ولماذا سماها سنة؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقه بالشرِّ قليلة في الكون ، وسبحانه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يبتليهم في لحظة ، فإذا ما ابتلاهم في وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المفجعة؛ لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذي يعد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة التي عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء؟ ونجد أن أيام الرخاء هي أكثر من أيام البلاء : { وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات } .
وعرفنا أن السنين - كما قلنا - تعني الجدب والقحط ، أما قوله سبحانه : { وَنَقْصٍ مِّن الثمرات } فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، أو كان الجدب والقحط في البادية ، أما « نقص الثمرات » فكان في الحضر ، ويقال : إن النخلة الواحدة في الحضر كانت لا تطرح في السنة إلا بلحة واحدة . ولماذا هذه البلحة؟ لأن أسباب رحمته سبحانه يجب أن تبقى في خلقه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لا نقطع نسل النخيل؛ لذلك يُبقي الله أسباب رحمته لنا .
إننا نرى في واقعنا مهما حاولوا أن يستزرعوا فواكهه بدون بذور بواسطة التقدم العلمي المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الثمار بلا بذور ثم أكلناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق في استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الثمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تَنْضج بذرتها ، فأنت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها .

لكن حين يسودَّ بذرها ويكون صالحاً لأن تعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصير مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفي هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العاصين نجده سبحانه يستبقي الرحمة معهم .

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [الأعراف : 130]

وقوله : { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } يعني أن على الإنسان أن يتذكر أنه الخليفة في الأرض وأنه غير أصيل في الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذي يفسد العالم أن الإنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، وسننها الكونية ويحرث ويبذر ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويستخرج المياه من الآبار ينسى أن كل ذلك « أسباب » ولا يتذكر المُسبِّب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال في حياتنا اليومية أن الإنسان منا إذا جاء ليفتح صنبور المياه في البيت فلم يجد ماءً فيتجه أول ما يتجه إلى محبس المياه الذي يتحكم في مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سدد ، وإن وجده سليماً ، يبحث هل أنبوبة وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أو لا؟ وإن كانت ماسورة المياه سليمة فهو يبحث عن الخلل في آلة رفع المياه ، ويظل يبحث في الأسباب الكثيرة ، وقديماً لم تكن المياه تأتي إلا من الآبار وعندما لا يوجد في البئر ماء يقول العبد : يا رب اسقني . والحضارة الآن أبعدتنا بالأسباب عن المسبِّب .

والحق قد أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يلتفتوا إلى المسبِّب ويقولون : « يا رب » ويقول القرآن عن الإنسان : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً . . . } [يونس : 12]

إذن فالإنسان يذكر المسبِّب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات الحياة ، فإذا امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان : يا رب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ليذكروا خالقهم .

ويقول الحق بعد ذلك : { فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحسنة قَالُواْ . . . }

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131)

والحسنة إذا أطلقت فهي الأمر الذي يأتي من ورائه الخير . ولكن الحسنة مرة تكون لك ، ومرة تُطْلَب منك ، فالحسنة التي لك في ذاتك أولاً أن تكون في عافية وسلام ، ثم الحسنة في مقومات الذات ومقومات الحياة ، وهي في النبات ، والحيوان ، والخصب والثروة . والحسنة المطلوبة منك هي أيضاً لك . فسبحانه يطلب منك عمل شيء يورِّثك في الآخرة حسنة ، ولذلك يقول

سبحانه : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . } [الأنعام : 160]

وهذه هي الحسنة التي تعطي الإِنسان خيراً فيما بعد . إذن فالحسنة التي في ذاتك من عافية وسلامة أو في مقومات الذات من ثمرات وحيوانات وخصب وأعشاب وثراء فكلها موقوتة بزمن موقوت هو الدنيا . والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود . فأي الحسنات أرجح وأفضل بالنسبة للإِنسان؟ . إنها حسنة الآخرة .

وقوله الحق : { فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحسنة } أي جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الرزق يقولون : « لنا هذه » أي أننا نستحقها؛ فواحد يقول : أنا أستحقها لأنني رتبت لها وأتقنت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون : { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ علىعلم عندي . . . } [القصص : 78]

وأجرى عليه الحق التجربة ، فمادام يدعي أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذي عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته . وهم قالوا عن الحسنات التي يهبها الله لهم : « قالوا لنا هذه » أي نستحقها ، لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج . وجرت العادة قديماً بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض ، ثم يبذرون الحب وينتظرون الثمار . فإن جاءت لهم سيئة مثل أخذهم الله لهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى . { . . . وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 131]

فإذا ما جاءتهم سيئة يطَّيَّرون أي يتشاءمون لأن الطيرة هي التشاؤم ، وضده التفاؤل ، ويقال : « فلان طائره نحس » ، و « فلان طائره يمن وسعد » . وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويزجره ويثيره ، فإن طار يميناً فهذا فأل حسن ، وإن طار يساراً فهذا فأل سيئ ، والحق هنا يوضح : لا تظلموا موسى ، لأن شؤمكم أو حظكم السيئ ليس من موسى؛ لأن موسى لا يملك في كون الله شيئاً ، وإنما المالك للكون هو رب موسى . وكأن الحق يريدهم أيضاً ألا يفتنوا في موسى إن صنع شيئاً يأتي لهم بخير ، وهنا يقول لهم لا تتطيروا بموسى ، لأن طائركم من عند الله .

ولأن أحداث الحياة صنفان : حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذي لم يذاكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة ، وهنا لا غريم لهذا الإِنسان ، بل هو غريم نفسه .

وهناك شيء يقع عليك ، واسمه حدث قهري ، فالإنسان في الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره في شيء . وإمَّا أحداث قدرية تنزل بالإِنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإِنسان؛ لأن الإِنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء ، وإلى عاجل الأمر فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر . ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل .

مثال ذلك : أن يكون للإنسان ابن نجيب وذكي وترتيبه دائماً من العشرة الأوئل ، ثم جاء في ليلة الامتحان أو في يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول : إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، وسبحانه منزه عن العبث ، بل حكيم ولابد أن له حكمة في مثل هذه الأمور . وبعد مدة تتبين الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين الحسود . وحدث له ما يكره ، فكأن الله يصنع له تميمة يحميه بها من الحسد . وقديماً حين كانوا يصنعون للطفل الجميل « فاسوخة » ، ولا يهتمون بنظافته ولا بملابسه ، لماذا؟ يقال حتى لا تتجه إليه عين العائن الحاسد . وأقول : وما الذي يدرك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطارئ ليرد عنه العين ، ويُسكت الناس عنه؟ وما الذي يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذي يدخله الكلية التي يريدها ، ثم يستذكر في العام التالي وتكون المذاكرة سهلة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك على أنك لم تنجح في العام السابق وأن الله أراد بك خيراً . . لتبذل جهداً وتنجح وتنال المجموع الذي أردته لنفسك .

إذن فالمقادير التي تجري على الناس بدون دخل لهم فيها ، فلله فيها حكمة ، وهنا يقال : { طَائِرُهُمْ عِندَ الله } ، أما إن كان للإِنسان دخل فيما يجري له فيقال : طائرك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك . { فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحسنة قَالُواْ لَنَا هذه وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [الأعراف : **131**] ألم يتطير اليهود في المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجيء هذا الرجل ، ولم يتفهموا حكم الله . لقد كانوا سادة في الجزيرة؛ لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق التجارية ، وتعاملوا في الربا وتجارة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ، وأراد الله أن يشغلهم بأخذ شيء من أسبابهم ويهد كيانهم ليلفتهم إلى أنهم خرجوا عن المنهج إلى أن هناك رسولاً قد جاء بعودة إلى المنهج .

وقوله الحق : { ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } يفيد أن هناك قلة تعلم . فما موقف هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة؟ . كان موقفهم هو الصمت خوفاً من الطغيان؛ لأن الطاغية أجبرهم وقهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على باطل ، ونرى في حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور ويعلمون الطغيان ولكنهم لا يتكلمون .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ . . . }

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132)

أي وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام : أي شيء تأتينا به من المعجزات لتصرفنا عما نحن فلن نؤمن لك ، وسموا ما جاء به موسى « آية » استهزاء منهم وسخرية . وكل هذه مقدمات تبرز الإهلاك الذي قال الله فيه : { عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ . . . } [الأعراف : 129]
وأعلنوا أن ما جاء به موسى هو سحر على الرغم من أنهم رأوا السحرة الذين برعوا في السحر وعرفوا طرائقه وبذّوا فيه سواهم قد خروا ساجدين وآمنوا ، كيف يحدث هذا والسحرة كلهم جُمِعوا إلى وقت معلوم؟ وشهد كل الناس التجربة الواقعية التي ابتلعت فيها عصا موسى كل سحر السحرة فآمنوا وسجدوا ، فكيف يتأتى لمن لا يعرفون السحر أن يتهموا موسى بالسحر؟ وكيف يظنون أن ما يأتي به من آيات الله هو لون من السحر؟ . إنهم يقولون كلمة « مهما » وهي تدل على استمرارية العناد في نفوسهم مثلما يقول واحد لآخر : لقد صممت على ألا أقبل كلامك ، فيكرر الرجل : انتظر لتسمع حجتي الثانية فقد تقنعك ، فيقول : مهما تأتني من حجج فلن أسمع لك ، وهذا يعني استمرارية العناد والجحود والتمرد ويقدمون حيثيات هذا الجحود فيقولون : { وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } [الأعراف : 132]
وإذا كانوا يظنون أن آيات الله التي مع موسى من السحر ، فهل للمسحور إرادة مع الساحر؟ . لو كانت المسألة سحراً لسحركم وانتهى الأمر . وقلنا قديماً في الرد على الذين قالوا : إن محمداً يسحر ليؤمنوا به ، قلنا إذا كان هو قد سحر الناس ليؤمنوا به ، فلماذا لم يسحركم لتؤمنوا وتنفض المسألة؟ إن بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحر .
وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرطاً ، وله جواب ، ويقول العلماء : إن أصلها « مه » أي كُفّ عن أن تأتينا بأية آية فلن نصدقك . وهذا يعني أن هناك إصرار وعناداً على عدم الإيمان .
ويبين الحق عقابه لهم على ذلك : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد . . . }

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133)

وكلمة « الطوفان » يراد بها طغيان ماء ، والماء -كما نعلم- هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بذاتيتها ، بل بتوجيهات القادر عليها ، وعندما ننظر إلى الطوفان الذي أغرق من قبل قوم نوح ، ولم ينج أحد إلا من ركب مع نوح في السفينة؛ وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على طغيانهم . وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بنو إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقي فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ، ويظل هكذا ، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام ، لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بني إسرائيل لا تلمسها المياه ، وهذه معجزة واضحة ، لقد

عمّ الطوفان وأراد الحق أن ينجي بني إسرائيل منه دون حيلة منهم حتى لا يقال آية كونية جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة ، لكن الطوفان جاء لبيوتهم ولم يلمس بني إسرائيل .
وقال الرواة : إن الطوفان دخل على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى ، وقال له : كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان . لكنهم عادوا إلى الكفر .
وجعل الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح ربنا : أنا عذبت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعطينا ملامح تشعرنا بصدق القضية ، فيهبط السيل في أي بلد ويهدم الديار ويغرق الزرع والحيوانات ، لنرى صورة كونية ، وكذلك الجراد يرسله الله على فترات فيهبط في أي وقت من الأوقات ، ونقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التي حكى الله عنها ، فلو لم يوجد جراد ولا طوفان لكنا عرضة ألا نصدق . وابتلاهم الله بالقمل كذلك .
{ والقمل } هو غير القَمْل . فالقَمْل هو الآفة التي تصيب الإنسان في بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذي يصيب الحبوب ، ومفردها قُمَّلَة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التي تهلك النبات والحرث ، وحين نراه نفزع ونبحث عن تخليص الزرع منه باليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للخلق ، وهي مجرد تنبيه وإرشاد ولَفْتٌ للالتفات إلى الحق .
وكذلك يرسل الله عليهم { والضفادع } ، وعندما يضع أي إنسان منهم يده في شيء يجد فيها الضفادع؛ فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والمياه التي يشربها يجد فيها الضفادع!! وإن فتح فمه تدخل ضفدعة في الفم!! . فهي آية ومعجزة ، وكذلك { والدم } ، فكان كل شيء ينقلب لهم دماً .
ويقال : إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بني إسرائيل وقالت لها : خذي الماء في فمك ومُجيه في فمي ، كأنها تريد أن تحتال على ربنا وتأخذ مياها من غير دم ، فينتقل من فم الإسرائيلية وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التي هي من قوم فرعون صار دماً .

{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مّفَصَّلاَتٍ . . . } [الأعراف : 133]

وقوله سبحانه : { مُّفَصَّلاَتٍ } أي لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعة مع بعضها البعض لتفزعهم دفعة واحدة وتختبرهم أيعلنون الإيمان أم لا؟ بل جاء سبحانه بكل آية مُفصلة عن الآخرى؛ فلا توجد آية مع آية أخرى في وقت واحد ، أو جاء بها علامات واضحات فيها مواعظ وعبر ، مما يدل على موالاة الإنذارات للرغبة في أن يَذّكروا ، وأن يرتدعوا ، فلو اذكروا وارتدعوا من آية

واحدة يكف عنهم سبحانه البأس .

وأرسل سبحانه الآيات وهي : طوفان ، جراد ، قمل ، ضفادع ، دم ، هذه آيات خمس في هذه آيات خمس في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، ومن قبل قال الحق إنه أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبعاً ، ومن قبل كانت عصا موسى التي كانت تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثماني آيات ، وكذلك « اليد البيضاء » التي أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هي : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات . . هي عجائب؛ كل منها عجيبة يسلطها الله على مَن يريد إذلاله ، ويبتلي الله بها نوعا من الناس ولا يبتلي بها قوماً آخرين . فماذا كان موقفهم من الآيات العجائب؟ نجد الحق يذيل الآية : { فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ } . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا في حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز . . . }

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134)

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذي عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون في عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقدية هي أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبولْ الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطي الإيمان بالله . { . . . قَالُواْ ياموسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنdَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إِسْرَآئِيلَ } [الأعراف : 134]

أي ادع ربّك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسوله المؤيَّد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ما جئت به ولنرسلن ونطلقن معك بني إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم في أحط وأرذل الأعمال ، ولكنهم في كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم : { فَلَماَّ كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز . . . }

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135)

فكأن لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين : بين قوله الحق : { فَلَماَّ كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ } وبين قوله السابق : { ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز } ، فمن إذن يكتشف الرجز؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يعرفها الحق ، فهو القائل : { إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ } . والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه : { فانتقمنا مِنْهُمْ . . . }

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136)

ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب في ذواتهم ، وفي مقومات حياتهم ، وفي معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا؛ لأنه لا فائدة منهم؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قدرة ، بل عن عدالة تقدير؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم . ويلاحظ هنا أن أهم ما في القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث الذي جاء في سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول : { وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي إِنَّكُم مّتَّبَعُونَ } [الشعراء : 52]

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق؛ لأن كل آية في القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج لقطة من اللقطات؛ لأن القصة تأتي بإجمال في موضع وبإطناب في موضع آخر ، وهنا يأتي موقف الإغراق بإجمال : { فانتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم } .

وكلمة { فَأَغْرَقْنَاهُمْ } لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرضاً آخر في سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } . مدركون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله علم أن الله لن يخذله؛ لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام ممتلئاً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه : {كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62]

هو يقول : « كلا » أي لن يدركوكم لا بأسبابه ، بل أسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحيثيتها معها وقال : { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذي أوى إلى ركن شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهي عند هذا الوضع؛ لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : « كلا » بملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوع بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأتبع ذلك بقوله : { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } بالحفظ والنصرة . . أي أن الأسباب التي سبق أن أرسلها معي الله

فوق نطاق أسباب البشر ، فالعصا سبق أن نصره الله بها على السحرة ، وهي العصا نفسها التي أوحى له سبحانه باستعمالها في هذه الحالة العصيبة قائلاً له : { اضرب بِّعَصَاكَ البحر . . . } [الشعراء : 63]

ونعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التي تعينه على الاستطراق ، ولو لم يكن الماء سائلاً ، وبه جمود وغلظة لصار قطعاً غير متساوية ، ولكن الذي يعينه على الاستطراق هو حالة السيولة ، ولذلك حين نريد أن نضبط دقة استواء أي سطح نلجأ إلى ميزان الماء .

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام : { اضرب بِّعَصَاكَ البحر } [الشعراء : 63]

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة وفقد قانون الاستطراق ، ويصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : { فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم } .

أي صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد في الجبل الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سنة كونية ، والذي خلق هذه السنة الكونية هو الذي يستطيع أن يبطلها . وحين سار موسى وقومه في اليابس ، وقطع الجميع الطريق الموجود في البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون وجنوده ، وهذا تفكير بشري أيضاً ، ويأتي لموسى أمر من الله : { واترك البحر رَهْواً . . . } [الدخان : 24]

أي اترك البحر ساكناً على هيئته التي هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُغري الطريق اليابس فرعون وقومه فيأتوا وراءكم ليلحقوا بكم ، فإذا ما دخلوا واستوعبهم اليابس؛ أعدنا سيولة الماء واستطراقه فيغرقون؛ ليثبت الحق أنه ينجي ويهلك بالشيء الواحد ، وكل ذلك يجمله الحق هنا في قوله : { فانتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم } . و « اليم » هو المكان الذي يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً في قصة أم موسى ، يقول الحق : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . } [القصص : 7]

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا في سورة الأعراف هو البحر . ويأتي سبب الإغراق في قوله : { بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ } .

كيف إذن يعذبهم ويغرقهم نتيجة الغفلة ، ونعلم أن الغفلة ليس لها حساب؟ بدليل أن الصائم قد يغفل ويأكل ويصح صيامه . ويقال إن ربنا أعطى له وجبة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه غافل . لكن هنا يختلف أمر الغفلة؛ فالمراد ب « غافلين » هنا أنهم قد كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعراضاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمنهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق ان قاله سبحانه : { عسى رَبُّكُمْ أَن

يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ . . . } [الأعراف : 129]
ثم يأتي بعد ذلك القول الذي يحقق ما سبق أن قاله سبحانه : { وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف : 129]
ويقول الحق تأكيداً لذلك : { وَأَوْرَثْنَا القوم الذين . . . }

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137)

أي صارت مصر والشام تحت إمرة بني إسرائيل ، وهي الأرض التي باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شيء من مقومات الحياة ، وترف الحياة : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ } .
{ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ } أي استمرت عليهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة؛ لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه التي جاءت على لسان موسى : { . . . وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرض فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف : 129]
هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه : { وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا } [الأعراف : 137]
ونعلم أن كلمة { مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا } تقال بالنسبيات؛ فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاهات نسبية؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له « مغرب » بالنسبة لمكان آخر . وحين ينتقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر . وعلى سبيل المثال نجد من يسكن في الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن يسكنون أوروبا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء « بالمشرق والمغرب » بصيغة الجمع كما هنا فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً؛ فإذا غربت الشمس في مكان فهي تشرق في مكان آخر . وفي رمضان نجد الشمس تغرب في القاهرة قبل الإسكندرية بدقائق .
ونعلم أن سبب هذه الدورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله في كل أوقات الله ، مثال ذلك حين نصلى نحن صلاة الفجر نجد أناساً يصلون في اللحظة نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون صلاة المغرب ، وغيرهم يصلي صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله في أن هناك عبادة في كل وقت وفي كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً « الله أكبر » لينادي لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : « الله أكبر » مناديًّا لصلاة الظهر

أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف في المطالع أراد به سبحانه أن يظل اسمه مذكوراً على كل لسان في كل مكان لتعلو « الله أكبر ، الله أكبر » في كل مكان .
وأنت إذا حسبت الزمن بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من « لا إله إلا الله » أبداً : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى } . ونعلم أن كلمة « الحسنى » وصف للمؤنث ، و « كلمة » مؤنثة ، والكلمة هي قوله الحق : { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين } [القصص : 5]
لقد قال الحق القصة بإيجاز ، وهذه هي التي قالها ربنا وهي كلمة « الحسنى » لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنقاض العدو ، فهي نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن جعلهم أئمة وهداة وورثهم الأرض : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ } .

وهم بالفعل قد صبروا على الإيذاء الذي نالوه وذكره سبحانه من قبل حين قال : { يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ . . . } [البقرة : 49]
وجاء عقاب الله لقوم فرعون : { . . . وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ } [الأعراف : 137]
والتدمير هو أن تدرك شيئاً وتخربه ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقيًّا في الآثار التي تدلك على عظمة ما فعلوا ، وتجد العلماء في كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة . ومن العجيب أن كل كشوف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أثري جاء من فوق الأرض أبداً .
وكلمة « دمرنا » تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعرية لتغطيها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطينا نوع ما عمّروا؛ كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة في وادي الملوك ، وكانت مغطاة بالتراب بفعل عوامل التعرية التي تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن غبت عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر؛ ثم تعود فتجد التراب يغطي جميع المنزل والأثاث؛ كل ذلك بفعل عوامل التعرية التي تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التي تثبت الأرض نجد طرقات القرية التي تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل به قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعلو ، وكل ذلك من عوامل التعرية التي تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالتنقيب ، إذن فكلمة « دمرنا » لها سند . والحق يقول عن أبنية فرعون : { وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 10]
ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف

تتماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء الهرم قد تم بأسلوب تفريغ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون الصخرة التي على قمة الهرم . إذن فقد كانوا على علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثاراً وتحنيطاً لجثث القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن القائمين به كانوا من الكهنة المنسوبين للدين ، لتأكدنا أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال الدين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد حُرِّف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو الذي هدى الناس من أول الخلق إلى واسع العلم . { وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ } [الأعراف : 137]

و « يعرشون » أي يقيمون جنات معروشات ، وقلنا من قبل : إن الزروع مرة تكون على سطح الأرض وليس لها ساق ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له عريشة أو كما نسميه نحن التكعيبة لتحمله وتحمل ثمرهُ .

وبعد ذلك يقول الحق : { وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَآئِيلَ . . . }

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغمورين في نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلافاً في الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طلعوا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حسدوا من يجهلون قيمة الإيمان ويعكفون على عبادة الأصنام ، ويعكف تعني أن يقيم إقامة لازمة ، ومنه الاعتكاف في المسجد ، أي الانقطاع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبادة الله في بيته . { يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ ياموسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . . . } [الأعراف : 138]

وهذا القول من قوم موسى هو قمة الغباء ، كأن الإله بالنسبة لهم مجهول على رغم أنه قد أسبغ عليهم من النعم الكثير ، وهذه أول خيبة ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكمالاته وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقيلتهم لم تستوعب النعم الغامرة وقلوبهم مغلقة لم يعمها الإيمان . وقالوا : اجعل لنا إلهاً! وأرادوا أن ينحت لهم الأصنام ، وقد يقول واحد منهم : رأس الإله كبيرة قليلاً صغّرها بعض الشيء ، وأنفه غير مستقيمة فلنعدلها بالإزميل ، وقولهم : { اجعل لَّنَآ إلها } . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإيمان؛ لذلك يقول لهم موسى : { إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } .

ولم يقل لهم : « لا تعلمون » بل قال : « تجهلون » لأن هناك فارقاً بين عدم العلم بالشيء ، وبين الجهل بالشيء ، فعدم العلم يعني أن الذهن قد يكون خالياً من أي قضية ، أما « الجهل »

فهو يعني أن تعلم مناقضاً للقضية ، إذن فهناك قضية يعتقدها الجاهل ولكنها غير واقعية . أما الذي لا يعلم فليس في باله قضية ، وحين تأتي له القضية يقتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمي مثلاً الذي لا يعلم ، لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذي يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما في نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطي له القضية الجديدة ، إن الذي يخرج ما في نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطي له القضية الجديدة ، إن الذي يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمي حين تعطي له المعلومة فليس عنده ما يناقضها . لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ . . . }

إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139)

و { مُتَبَّرٌ } أي هالك ومدمر ، وهنا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التي تعبد الأصنام؛ وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها ، فلابد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يُستقرأ ، ومثال ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طلب من كل واحد على انفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف في الوصف لأننا نستوحي واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعية فكل واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضي يحاور الشهود محاورات ليتبيّن ما يثبتون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يستوحون حقيقة واقعية ، فلن يختلفوا في روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربي يقول : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » أي إن كذبت – والعياذ بالله – وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تتذكر كذبتك ، وأنت لن تتذكرها لأنها أمر متخيّل وليس أمراً ثابتاً . وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولمعاناً فنقول : إياك أن تغتر بهذه الزهوة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول : { أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17]

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو السائل أو الماء من الرغوة والقش والمخلفات التي تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى . ونحن نختبر المعادن لنعرف هل هي مغشوشة أو لا . . ونعرضها على النار ، فيطفوا ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى في القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى : { إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [الأعراف : 139]

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : لبقية الجوارح ، وكل الأحداث ناشئة عن قول أو عن فعل ، والقول والفعل معاً هما « عمل » . ولذلك يقول الحق : { لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2]

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل .

وقوله الحق : { وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } إن الأصنام التي كانوا يصنعونها ويعبدونها ، كانت تقوم على أقوال وأفعال ، كأن يقولوا : يا هبلٍ ، يا لات ، يا عزّى ، ويناجون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقفون أمامها صاغرين أذلاء ، إذن فقد صدر منهم قول وفعل يضمهما معاً العمل .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام : { قَالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ . . . }

قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140)

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : { إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } ، ثم قال : { إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام من دون الله إنما يفعلون باطلاً؛ فقال : { قَالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إلها وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين } .

وقوله : { أَغَيْرَ الله } أي أن الإله الذي عرفتم بالتجربة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعدوكم الذي استذلكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلبوا ربًّا غيره؟

وقوله : { قَالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ } أي أأطلب لكم إلهاً غيره؟ وفي سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم بقمة التفضيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى : { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَونَ . . . }

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

وإذا سمعت « إذ » فافهم ان معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، و « إذ » يعني جيداً ولا يغيب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشده .

ويقول بعدها مبيناً ومفسراً ذلك العذاب : { يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ } .

ونلحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون

نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هي تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفي آية ثانية يقول سبحانه : { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ . . . } [البقرة : 49]

أي أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفي آية ثالثة يقول : { إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ . . . } [إبراهيم : 6]

لقد جاء ب « الواو » هنا للعطف . لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقمة النعم . لكن : { وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكروا } ، فموسى يمتن بكل النعم التي ساقها الله إلى بني إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : { وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } .

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر في الهم والحزن على من يستبقي من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن في الخدمة .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَوَاعَدْنَا موسى . . . }

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)

وعلمنا من قبل في مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالي ، والثاني تفصيلي؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه في سورة البقرة يقول : { وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . } [البقرة : 51]

جاء بها هناك بالإجمال . لكنه شاء هنا في سورة الأعراف ألا يأتي بها مرة واحدة مجملة . بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمّها الحق بعشر أخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال . لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحْمَل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصَّل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال .

وضربنا من قبل المثل في خلق السماء والأرض في ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتي بخبر الستة أيام وهي مجملة . لكنه شاء سبحانه في موضع آخر بالقرآن أن يقول : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } [فصلت : 9-10]

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها في ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها : { ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ *

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . . } [فصلت : 11-12]
وهنا في موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل في ظاهر الأمر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكي أنها ستة أيام فقط .

فهل هي ستة أيام أم ثمانية أيام؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه في بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا في ساعتين ، وإلى الإسكندرية في ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا في الثلاث الساعات : { وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ } .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إنجاء بني إسرائيل أنه - سبحانه - سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، في مدة الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر آخر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه؛ لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنفه ويشتد عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبني إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفي ذلك يقول الحق على لسان هارون : { قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بني إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي }

[طه : 94]

فكأن العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة .

وهنا يقول الحق في سورة الأعراف : { وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين } [الأعراف : 142]

و « اخلفني » أي كن خليفة لي فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون بامتداد إرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التي تجمع بين موسى وهارون : { إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ . . . } [طه : 47]

لأن كلاًّ منهما رسول ، وقول الحق : { وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ } فيه التحنن ، أي أنني لي بك صلة قبل أن تكون شريكاً لي في الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لي ، ومن حقي عليك أن تسمع كلامي وتخلفني . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معي في الرسالة إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة والمشاركة في الرسالة . وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومي » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذي يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهيًا فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بطهر

وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوضح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل عليّ بريح المسك فزد عشرة أيام؛ حتى تأتي كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هي الأيام التي عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب . { وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين } [الأعراف : 142]

وهنا أمر ونهى « أصلح » هي أمر ، و « لا تتبع » هي نهي ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة في « افعل كذا » ، و « لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلَّفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلابد أن يكونوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل ان الله ركز كل التكاليف في مسألة آدم وحواء في الجنة فقال : { وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا } ، وكان هذا هو الأمر . وقال : { وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة } ، وهذا نهي : { وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين } .

وكلمة « أصلح » تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء الله يزيد فيه صلاحاً فليفعل .

وقوله : { وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين } لأنه قول موجه لنبي وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكنَّ موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكأن موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألاَّ يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك سيقول هارون بعد ذلك مبرراً تركه بني إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده في منعهم وإنذارهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه . { . . . إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بني إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } [طه : 94]

ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَمَّا جَآءَ موسى . . . }

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

والميقات هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال . ونسميه وقت العمل . وغلب على أشياء في الإسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظْرَف فيهما ، أي يكونان ظرفاً له؛ فلابد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف

الزمان ، وظرف المكان . إلا أن ظرف الزمان غير قار أي غير ثابت؛ فقد يأتي الصبح ويذهب ويأتي بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .

والمواقيت – إذن – إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة « الصوم » لها زمن محدد وهو رمضان . فالذي يتحكم في الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث في أي مكان .

وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضاً الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس في أي مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحاج . ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معاً .

والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما يسمى بالميقات المكاني ولكل أهل جهة ميقاتهم المكاني الذي يطلب منهم ألاَّ يمروا عليه إلاَّ وهم محرمون . فمرة يتحكم الزمان ، ومرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معاً .

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى للميقات أو جاء في الميقات؟ لقد جاء في الميقات ، واللام تأتي بمعنى « عند » . ونعلم أن « اللام » تأتي بمعنى « عند » كثيراً في القرآن ، مثل قوله : { أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ اليل . . . } [الإسراء : 78]

أي أقم الصلاة عند دلوك الشمس أي عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل . ومن الدلوك إلى الغسق نجد صلاة الفجر ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقي الفرض الخامس وهو الفجر ، وقال فيه الحق : { . . . وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء : 78]

ولماذا بدأ بدلوك الشمس؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة في المعراج ، فكانت أول فريضة هي الظهر ، وكأن الحق يعني خذ الغاية وخذ البداية ، وكانت البداية هي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقي الفجر ، وجاء فيه : { وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً } .

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوع . { وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً } [الإسراء : 79]

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم : { وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } .

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : { وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال في مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلاماً

عاماً : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ . . . } [الشورى : 51]

وفي هذا نفي أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث : الوحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحي بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى في قلب النبي دفعة ، مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يراد بالوحي الإلهامات؛ مثل الوحي إلى أم موسى ، والوحي إلى الحواريين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحي : التسخير؛ كالوحي للأرض ، والنحل .

وبعد ذلك . . { أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ } أي أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، { أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً } هو جبريل عليه السلام . والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات .

وهنا في كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه غيب لم يكشف لنا عنه ونترك الأمر فيه الله .

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها في البشر . فليس وجود الإنسان كوجود الله ، وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ، لأن كل شيء يخص الله إنما نأخذه في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق : { إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي . . . } [الأعراف : 144]

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد في البشر ، ويوجد مثله . في وصف الله مثل « استوى » ، و « جلس » و « وجه » ، و « يد » نأخذ كل ذلك في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } . { وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ . . . } [الأعراف : 143]

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراق اصطفائي ، وكأنه قال لنفسه : مادام قد كلمني فقد أقدر أن أراه؛ لأن استطابة الأنس تمد للنفس سبل الأمل في الامتداد في الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى } [طه : 17]

كان الجواب يكفي أن يقول : « عصا » لكنه قال : { قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي . . . } [طه : 18]

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ما تفعل بها؟ وأراد بالكلام أن يطيل الأنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال .

ولله المثل الأعلى – نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إيناساً له . وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرفت نفسه أن يراه : { وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ } .

لم يقل موسى : أرني ذاتك . بل قال : { أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ } كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشيئة الحق وقدم موسى الطلب معلقاً بمشيئة الله وإرادته؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى في الوحي والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفى من الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفى من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل الناس كلام الله؛ لأن الصفات الكمالية العليا الخالقة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق .

ضربنا المثل من قبل – ولله المثل الأعلى – بصناعات البشر ، وأن الإنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأي شيء ، فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يحطم الأشياء التي هي أقل منه أو تحطمه الأشياء التي هي أكثر صلابه منه؛ وإن اصطدم بشيء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد ينكسر الإنسان . ولذلك ترك الإنسان في البيت شيئاً من النور الضئيل؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيضع ما نسميه « الوناسة » قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود في المنزل؛ لأنها تفسد فوراً ، لذلك يأتي لها بمحول يأخذ من القوي ويعطي الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذي لا يأخذ من القوي إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الواسطة من البشر اصطفاء ومن الملائكة اصطفاء ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطي مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطي المصطفى من البشر للبشر . كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطي الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين تبرزون في الآخرة وتعدون إعداداً آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } .

ولا يستوي الناس في ذلك؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق . يقول تعالى في شأن الكفار : { كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ } فلا يستوي المؤمن والكافر في هذه الحالة ، فمادام الكافر محجوبا فالمؤمن غير محجوب ويرى ربَّه . وقال موسى : { رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ } .

قال الحق : { قَالَ لَن تَرَانِي } .

وفي اللغة نجد أن « لن » تأتي تأبيدية ، أي تؤبد المستقبل أي لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها .

فهل معنى ذلك أن قول الحق : { لَن تَرَانِي } أن موسى لن يرى الله في الدنيا ولا في الآخرة؟ .
ونقول : ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ } [إبراهيم : 48]
إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفي أن أهل الجنة سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجيء « لن » في قوله الحق : { لَن تَرَانِي } تأبيدها إضافي ، أي بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه : { ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً . . . } [الأعراف : 143]
وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح : لن تراني ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتي انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك أن تراني . إن الجبل بحكم الواقع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل اندك . والدكُّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوِّي بشيء أسفل منه . والحق هو القائل : {كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً } [الفجر : 21]
وهنا في موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلى على خلق من خلقه ، ولكن أيقدر المتجلَّىي عليه على هذا التجلي أم لا يقدر؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلى له ربه اندك ، إذن فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلي أو لا يقوى؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلي لله بدليل أن الأقوى منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية . ويبين لنا أن موسى قد صعق لرؤية المتجلَّى عليه فكيف لو رأى المتجلِّي؟!! { فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً } . ويقال : خر الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق في آية قرآنية : { وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً . . . } [ص : 24]
والحق يخبرنا هنا : { وَخَرَّ موسى صَعِقاً } ، وصعقه تُطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماءة الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه : { . . . فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } [الزمر : 68]
إذن النفخة الأولى لصعق وموت الجميع ، ثم تأتي النفخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : { فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ } .

وهذا يدل على أن الصعقة ليست هي الصعقة المميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : « فلان فاق لنفسه » وهنا « أفاق » موسى على حاجتين اثنتين ، أفاق من الغشية التي حصلت له من الصعقة ، وكأنَّه تساءل : لماذا انصعقت؟ لقد انصعق لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : { فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ } ، وساعة تسمع كلمة « سبحانك » اعرف أنَّه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذي نحن بصدده وهو رؤيته – تعالى – أي تنزيها لك يا رب أن يراك مخلوقك؛ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئي ، ومعنى : « رأيت الشيء » أي أن عين البشر قد قدرت على الشيء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعني أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً؛ لأن المقدور لا ينقلب قادراً ، والقادر لا ينقلب مقدوراً . { . . . فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين } [الأعراف : 143]

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون ، وأنَّ ربنا فقد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التي يعطيها الله له ويتنعم بفيض جود لا ببذل مجهود؟ .

ويقرر موسى ويقول : { وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين } ، أي بأنّ ذاتك – سبحانك – لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال : { سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ المؤمنين } وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له : لا تلتفت إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك : { قَالَ ياموسى إِنِّي . . . }

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة ، وقوله : { اصطفيتك عَلَى الناس } تعبير فيه دقة الأداء لأنه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يُفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد في دائرة الاصطفاء البشري : { إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي } . ولقائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل : { إِنَّ الله اصطفى ءَادَمَ وَنُوحاً . . . } [آل عمران : 33]

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة منفردة ، وبين اصطفاء في رسالة ومعها شيء زائد ، وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – فإذا جئت كمدرس لتلاميذ وأعطيت واحداً منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثاني قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر باجتماع قلم وزجاجة حبر في هدية واحدة .

والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرف الكلام : { اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي } .
وعرفنا من قبل أن « رسالاتي » هي في مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة في النزول ، فكأن كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخير رسالة ، فهي رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين : { قَالَ ياموسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَآ آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين } [الأعراف : 144]
أي لا تنظر إلى ما منعتك ، بل اذكر أني اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لي هذا . ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقي له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفاءل ينظر إلى الكوب الذي نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب ملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، وبرغم أن كُلاًّ منهما يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل نظر إلى ما بقي من نعم الله .
إننا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموي في دمشق وجرحت رجله في أثناء السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عناية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً أي دواء تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإني لا أريد أن أغفل عن ربي لحظة عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنوها ، فقال هاتوها . فأحضروها له وأمسك بها وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو فقد عافيت في أعضاء .
هذه نظرة المؤمن الذي لا ينظر إلى ما أُخذ منه بل ينظر إلى ما بقي له . وكذلك كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أني منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح . . . }

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145)

والكَتْب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أي شيء ، وعندما يقول ربنا : { وَكَتَبْنَا } فالله لم يزاول الكتابة بنفسه ، ولكن أرسله من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل : { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ . . . } [يس : 12]
وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هي بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى الأعلى ، أو ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة : { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً } .
ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً . وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا

يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جدًّا لديهم ، وصار كل مكتوب يسمونه لوحاً . { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح مِن كُلِّ شَيْءٍ . . . } [الأعراف : 145]

وقوله سبحانه : { مِن كُلِّ شَيْءٍ } يعني : من كل شيء تتطلبه خلافة الإنسان في الأرض في الوقت المناسب له؛ فالرسل تأتي بعقيدة ، لكن قد يأتي تشريع مناسب للفترة الزمنية التي جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتي من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب في الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعني ألاَّ تنشئ حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذي لا يُنشئ مسائل جديدة . بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه : { وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } أي أن الكلام لم يأت مجملاً ، بل يأتي بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التي في الألواح بقوة .

ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهي نهيا قد يكون هذا النهي مخالفاً لرتابة ما ألف . وبذلك ينزع هذا النهي أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف ، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان في هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تتغلب على الشهوة الرتيبة التي تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن المنهج سوف يخرجه مما ألف ، ولابد أن يقبل على المنهج بقوة وعزم ليواجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : « افعل » وعلى المؤمن – إذن – أن يأخذ التكاليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق متع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطي متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطي للمؤمن نفعاً يتناسب مع طلاقة قدرة الله في النفع . إذن لابد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك في المنهج ، بل معك غيرك . فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أيحدد المنهج حريتي؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدي عليك آخرون؛ فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب في

هذه الحالة . ويتابع الحق بيان ما في الألواح من قيم فيقول سبحانه : { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا } .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهي « حسن »؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابته مصيبة من أحد يعتبره غريماً له ، فإذا ماكان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به . وهذا ما يبيحه الله في القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يعفو ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره مادامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « الأحسن » ، وجاءت هذه الترقيات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق في الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة في حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز .

كيف؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ، ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل بقاء النوع . لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع في أعراض الناس وانتهاك حرماتهم ، وحب الاستطلاع غريزة ، والذين اكتشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود .

لكن لا يصح ولا ينبغي أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستذلالي .

إن للإنسان غرائز يعليها الشرع؛ أمّا الحب فهو مسألة عاطفية . فالمشرع ، يقول لك : أحبب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلم من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت .

ولنا في رسول الله أسوة حسنة حين قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين » .

فقال عمر : كيف؟ .

وكررها رسول الله فعلم عمر – رضي الله عنه – بفطرته أن ذلك أمر تكليفي .

وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلي . فيقول المؤمن لنفسه : من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكل مؤمن يحب رسول الله حبًّا عقليًّا ، وقد يتسامى إلى أن يصير حبًّا عاطفيًّا .

والإنسان منا –كما قلنا سابقاً – يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مُرّ ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتي له به .

إذن التكليف يتطلب الحب العقلي . ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عندما مرّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : ازو نفسك عني فأنا لا أحبك ، فرد الرجل بكل جرأة إيمانية : أو عدم حبك لي يمنعني حقًّا من حقوقي؟ . قال عمر : لا ، قال الرجل

: إنما يبكي على الحب النساء .

والحق يقول هنا : { يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا } فمثلاً ، حين يُقْتَلُ إنسان فلولي الدم أن يقتص ، لكن الحق يحنن قلب ولي الدم على القاتل فيقول : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف . . . } [البقرة : 178]

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدئ من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43]

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة .

ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجئ أو افتقاد حبيب؟ . من إذن غريمك في المرض؟ وممن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انفعالك؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : { واصبر على مَآ أَصَابَكَ } أي مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : { إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } . ونلحظ أن الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام »؛ لأن لك غريماً يهيجك ساعة أن تراه ، وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق لسيدنا موسى : { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا } . يعني إذا وجدت لهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن ، لماذا؟؛ لأن الإنسان إذا روَّض نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسيء إليه ، فعليك أن تراعي في ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقوله الحق سبحانه : { فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . . } [النحل : 126]

ولكن منَ منا يتصف بالدقة في الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى؟ فإن كان هناك من صفعك وتريد أن ترد الصفعة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذي في صفعتك له؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة .

إذن لماذا تدخل نفسك في متاهات ، ولماذا لا تعفو وينتهي الأمر؟

وحين يدلك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهي شراسة النفوس وضغن الصدور . فحين يقتل إنسانٌ إنسانا آخرَ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا وليّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من وليّ الدم فيستحي القاتل - بعد ذلك - أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد وليّ الدم أو من ينسب إلى وليّ الدم ، وحينذاك تنتهي أي ضغينة أو رغبة في الثأر ، ولذلك نجد البلاد التي تحدث فيها الثأرات وتستشري فيها عادة الأخذ بالثأر - مثل صعيد مصر - نجد القاتل إذا ما أخذ كفنه على يده ودخل على وليّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه وليّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من وليّ

الدم ، وتصفى الثأرات وتنتهي . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا } . ومثال آخر على الأخذ بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفي الدين ، هنا نجد الحق يقول : { فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ . . . } [البقرة : 280]
اقترض الرجل لأنه محتاج؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهو عكس السؤال الذي يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة؛ لأن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشيء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض تتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرِض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .
إذن فهناك حَسَن وهناك أحسن ، الحَسَن هو أن تأخذ حقك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا المثل والأسوة في سيدنا الحسن البصري – رضي الله عنه – الذي أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعل الله في جانبنا » . ودائماً أضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أُسي إليه ، وكذلك الأمر فينا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله؛ نجد رب الخلق مع من أُسيء إليه ، وعلى من أسيء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذي أساء إلي قد جعل ربنا في جانبي ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه : { الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } [الزمر : 18]
وفي آية ثانية يقول الحق : { واتبعوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ . . . } [الزمر : 55]
ويذيل الحق الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : { سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين } .

ودار الفاسقين هي النار ، وكأن الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتي سيرة النار هنا؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبتعد عن كل ما أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبني إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكأن الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا المآل فالتزموا منهج الحق .
إذن فقوله الحق : { سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين } معناه حملهم على ما في الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعة أحسن ما أنزل على الله . أو { دَارَ الفاسقين } هي المدائن التي دمرّت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل

الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تمرون عليها في الغدو والرواح .
ويقول الحق بعد ذلك : { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي . . . }

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146)

والآيات جمع آية وهي الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف اليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب } ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول في البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق : { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق . . . } [الأعراف : 146]
إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعتبار في آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق سيبطل كيدهم في أن يتجهوا للحق بالهدم؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .
إذن وجه الصرف أن يسلط الحق عليه من الكبر ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة ، ومقومات الكبر قد تكون قوة ، لكن ألم يرَ المتكبر قويًّا قد ضعف؟ وقد يكون الثراء من مقومات التكبر ، لكن ألم يرَ المتكبر غنيًّا قد افتقر؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم يرَ ذا جاه صار ذليلاً؟ .
إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاتي لا يُسْلَب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً؛ لأنه لا يوجد في الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغيار التي تحدث وقد تزول . فكلها من الله وليست أموراً ذاتية؛ لأن القوة فيك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الثراء ذاتيًّا فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن فمقومات الكبرياء في البشر غير ذاتية .
وقوله سبحانه : { يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق } يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك فالكبرياء لله وحده . واعلموا أن كل متكبر في الأرض لا يخطر الله بباله؛ لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله في باله لتضاءل؛ لأن الله يخطر فقط ببال المتواضعين من الناس ، ولذلك نضرب هذا المثل : إننا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومرؤوس لآخر ، وهناك مرؤوس فقط . والرئيس المرؤوس لا

يستطيع أن يجلس مع المرؤوسين له بتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطي أوامر؛ لأنه قد يلتفت فيجد رئيسه وقد دخل عليه . فلو فعل الرئيس المرؤوس ذلك لضحك منه المرؤوسون له .

فكذلك الناس الذين لا يستحضرون الله في بالهم نجدهم مثار سخرية ، لكن الذين يستحضرون الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر في الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطبع على قلوبهم ، فما بداخل هذه القلوب من الكفر لا يخرج ، وما في خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم في الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته في الكون . { وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً . . . } [الأعراف : 146]

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغي يطلق العِنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذي يحرمه من شيء ليعطيه أشياء أثمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلحظ أن كلمة السبيل تأتي مرة كمذكر كقوله؛ { لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً } ، ومرة تأتي مؤنثة ، فالحق يقول : { قُلْ هذه سَبِيلِي } .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الغي من أهل الكبر : { ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ } . وقديماً قلنا إن الغفلة لا توجب الجزاء عليها؛ لأن الغافل ساهٍ وناس ، ولكن هؤلاء صدفوا عن الأمر صدوفاً عقليًّا مقصوداً ، لدرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أي التفات .

ويقول الحق بعد ذلك : { والذين كَذَّبُواْ . . . }

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147)

وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : { وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا } . ويقول أيضاً : { ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } . ويقول سبحانه : { والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } .

إذن فالمسألة كلها مناطها في الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صدق مَنْ أرسل من الرسل ، والقرآنية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان . { والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ . . . } [الأعراف : 147]

ويقال : حبط الشيء أي انتفخ وورم من علة أو مرض . أي أنهم في ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم

عملوا أعمالا حسنة ولكنها في الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس في باله أنه بفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشهرة لينتشر ذكره ويذيع صِيتُه ويثني الناس عليه ، أو للجاه والمركز والنفوذ . ولذلك حين « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد؟ . قال :

» من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله « .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليفتخر به . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ونقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت في بالهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس في بالهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم في الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم . { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا . . . } [الشورى : 20]

فمن زرع وأحسن اختيار البذور ، واختيار التربة وروى بنظام يأتي له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب ، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكن مَن خلق الله ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاصيًّا أو طائعاً ، لكن عطاء الألوهية يكون في اتباع المنهج ب » افعل ولا تفعل « وهذا خاص بالمؤمنين ، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة في السنن الكونية . يأخذون حظهم منها ، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها ، إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم . وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم . أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لرب الآخرة ، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول في حقهم :

{ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } [الفرقان : 23]

وكذلك يقول : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً . . . } [النور : 39]

فالكافرون مثلهم مثل الظمآن الذي يسير في صحراء ويخيل له أن أمامه ماء ، ويمشي ويمشي فلا يجد ماء .

أما غير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يمني نفسه بأن المياه قادمة وأنه سيحصل عليها . {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً . . . } [النور : 39]

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً ، بل يفاجأ : { وَوَجَدَ الله عِندَهُ } . إنه يفاجأ بأن الإله الذي كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة فيوفيه حسابه ويجزيه على عمله القبيح . إذن فإن

عمل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس في باله الله فعليه ألاّ يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطي الله لهؤلاء الأجر في قانون نواميس الحياة الكونية؛ لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه . { والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [الأعراف : 147]

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذي أنزل هذا المنهج ، ولكنّهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف : 103-104]

ويقول الحق بعد ذلك : { واتخذ قَوْمُ . . . }

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148)

وقوله : { مِن بَعْدِهِ } أي من بعد ذهابه لميقات ربه بعد أن قال لهارون : { اخلفني فِي قَوْمِي } . بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حليهم عجلاً جسداً له خُوار ، ونعرف أن الحلي هو ما يُتَزين به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلي هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر يسهل إصلاحه ، كما أن كسر الذهب بطيء ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان الطيب ، كسره بطيء ، واجباره سهل .

وساعة نسمع كلمة « زينة » قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلي . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجواهر ، أو بالماس . ولذلك إذا أطلقت كلمة « الحلي » فالمراد بها الذهب .

وهذه الزينة هي التي صنع منها موسى السامري تمثال العجل ، وبطبيعة الحال أخذ الحلي الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلي وقد كانوا مستضعفين ، ومستذلين؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحلي كسلفة سيردونها من بعد ذلك . ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلي معهم!

وغرق قوم فرعون وبقيت الحلي مع قوم موسى ، وصنع موسى السامري من ذهب هذه الحلي عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله : { عِجْلاً جَسَداً } أي أنه مُجَسَّم ، أي له حجم واضح . وأخذ أهل التفسير من كلمة « جسداً » أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : « فلان هذا مجرد جثة » . أي كأنه جثة بلا روح .

وقوله الحق : { عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ } ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها

حياة؛ لأنه لو كان جسداً فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عجلاً جسداً له خوار ، ولاكتفي بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : { لَّهُ خُوَارٌ } دليل على أن الجسدية في العجل لا تعطي له الحياة . وجاء بالوصف في قوله : { لَّهُ خُوَارٌ } والخُوار هو صوت البقر . وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التي كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه –كما نعرف – من الحلي المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دبره هبة الهواء؛ صنعت وأحدثت في جوفه صوتاً يشبه صوت وخوار البقر الذي يخرج من فمه ، وهذه المسألة نراها في الناي وهو أنبوبة من القصب مما يسمى الغاب البلدي وتصنع به ثقوب ، ويعزف عليه العازف ليخرج منه النغمة التي يريدها .
وحين صنع موسى السامري العجل بهذه الحيلة ، حدث هذا الصوت مشابها لخوار البقر .

وقصة هذا العجل تأتي في سورة طه بوضوح وسنتعرض لها حين نتعرض بخواطرنا الإيمانية لسورة طه بإذن الله : { . . . عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ } [الأعراف : **148**]
ولماذا اختار السامري العجل؟ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوة ، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة ، وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم . وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل . حين يريدون حرث الأرض . وكان أَيِّدًا ، أي قويًّا وشديداً في حرث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عجلاً يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله؟ . وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز ببني إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون الأصنام؛ فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .
ويأتي القول من الحق : { . . . أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ } [الأعراف : **148**]
وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله؛ لأن العبد لابد أن يتلقى من المعبود أوامر ، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن ينفذه ، وأن يأتي المنهج بواسطة رسل يبلغون رسالات الله وكلام الله للبشر . أما الذين يعبدون الشمس – مثلاً – فنسألهم : لماذا تعبدونها؟ وما المنهج الذي أرسلته الشمس لكم؟ . إن العبادة هي طاعة العابد للمعبود في « افعل » و « لا تفعل » فهل قالت لكم الشمس « افعلوا » و « لا تفعلوا »؟ لا؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ، وكيف يوجد – إذن – معبود بدون منهج للعابد؟ وهل قالت : إن من يعبدني سأشرق عليه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعبدني فلن أعطيه شيئاً من ذلك؟ لم تقل الشمس ذلك

فهي تعطي من آمن بها ومن كفر ، ولم ترسل خبراً عن الآخرة وقيام القيامة .
وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضي أمراً ونهيا ، في « افعل » و « لا تفعل » ولم يقل معبود من هؤلاء ما الذي نطيعه وما الذي نعصاه . والأصل في المعبود أنه يهدي العابد السبيل الموصل إلى خيره في الدنيا وفي الآخرة . لذلك يقول الحق : { أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ } . و { وَكَانُواْ ظَالِمِينَ } لأنهم أعطوا حقًّا لمن ليس له الحق ، والحق سبحانه أعلى قمة في الحق ، ولذلك قال عن الشرك به : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَمَّا سُقِطَ في أَيْدِيهِمْ . . . }

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور . لكن الناس الذين امتلكوا قدراً من البصيرة ، أو بقية إيمان قالوا : هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها وندموا على ما كان ، ويقال : سُقِط في يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية التي لا تختلف فيها أمة عن أمة ، بل هي في كل الأجناس ، وفي كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلا وحدث له عكس ما يفعل يعض على الأنامل ندماً وغمًّا ، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبعي في المخاطبات ، في كل الأجناس . ويعض الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن يعمله ، فإذا كان الشيء عظيماً فهو لا يكتفي بالأنملة بل يمسك يده كلها ويعضها . والحق يقول : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ } .
و « سُقط في أيديهم » أي جاءت أنيابهم على أيديهم ، كأن الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم ورأوا أن ذلك باطل وخسران . أي قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكون من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَمَّا رَجَعَ موسى . . . }

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسِفاً ، يدلنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل .
والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها : « المواجيد النفسية » ، أي الشيء الذي

يجده الإنسان في نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقاً بين من يحزن ويكبت في نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا اسمه : غضبان . وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين؛ وقدّم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفي في مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح .

وقديماً قلنا : إن كل تصور شعوري له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى . مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية في النفس ، ثم مرحلة نزوعيه بالحركة ، وضربنا المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذا إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويطمئن لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطفها فهذا نزوع حركي . والتشريع للإدراك أو للوجدان لكنه قنن للسلوك . إلا في غض البصر عما حرم الله وذلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، ونلحظ بكلمة أَسِف . وهي مبالغة . فهناك فرق بين أَسِف وآسف ، آسف خفيفة قليلاً ، لكن أسِف صيغة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد اشتد عليه وتمكن منه . { قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ . . . } [الأعراف : 150]

وقوله سبحانه : { أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ } أي استبطأتموني ، وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتممها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أنني لن آتي؟ أو أنني أبطأت عليكم؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلي أو من أجل إله قادر؟ . ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى :

« من كان يعبد محمدًّا فإن محمدًّا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتموني أو خفتم أن أكون قد مت . فهل كنتم تعبدونني أو تعبدون ربنا .

{ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألواح } ، ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقدر موسى على أخيه : { وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } وهذا « النزوع الغضبي » الذي جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأخوة هنا لا نفع لها ، فماذا كان رد الأخ هارون : ؟ { . . . قَالَ ابن أُمَّ إِنَّ القوم استضعفوني وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعدآء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين } [الأعراف : 150]

نلحظ أنه قال : « ابن أم » ولم يقل : « ابن أب » لأن أبا موسى وهارون طُوي اسمه في تاريخ النبوات ولم يظهر عنه أي خبر ، والعلم جاءنا عن أمه لأنها هي التي قابلت المشقات في أمر حياته ، لذلك جاء لنا بالقدر المشترك البارز في حياتهما ، ولأن الأمومة مستقر الأرحام؛ لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ، وأخوة من الأب والأم ، والأخوة من الأب والأم أمرهم معروف .

لكن نجد في أخوة الأم حناناً ظاهراً ، ويقل الحنان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما - موسى وهارون - وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر في تاريخهم . أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التي جاءت عن موسى متعلقة بأمه ، لذلك نجد أخاه هارون يكلمه بالأسلوب الذي يحننه : { قَالَ ابن أُمَّ إِنَّ القوم استضعفوني وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي } .

ومادام قد قال : { وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي } فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذي أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكروا في قتله ، ويتابع الحق بلسان هارون : { فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعدآء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين } .

والشماتة هي إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم ، وقوله : { وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ } . . إجمال للرأس في عمومها ، وفي آية أخرى يقول : { لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي } .

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال : إن القوم استغضعفوني لأني وحدي وكادوا يقتلونني ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة في الحياة؛ حتى أنهم كادوا يقتلونه ، إذن فهو لم يوافقهم على شيء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله سبحانه : { وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين } .

وكأنه يقول : لموسى إنك أن آخذتني هذه المؤاخذة في حالة غضبك ، ربما ظُنَّ بي أنني كنت معهم ، أو سلكت مسلكهم في اتخاذ العجل وعبادته . وأراد الحق سبحانه أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه؛ فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذي بيّن العلة في أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولا يمكن أن يطلب منه فوق هذا ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقي الألواح وفيها المنهج؟ والأمر الثاني : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق منه؟

ويقول الحق على لسانه بعد ذلك : { قَالَ رَبِّ اغفر لِي . . . }

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)

قال يا رب اغفر لي إن كان قد بدر مني شيء يخالف منطق الصواب والحق . واغفر لأخي هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ في قتال من عبدوا العجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولو مادون القتل جرحاً أو خدشاً أو . . أو . . إلخ .

ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة : { وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين } [الأعراف : 151]

وحين تسمع { أَرْحَمُ الراحمين } أو { خَيْرُ الرازقين } ، أو { خَيْرُ الوارثين } ، أو { أَحْسَنُ الخالقين } ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه . فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملا وإن كان محدودا يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلا على أنها عطاء ومنحة منه – سبحانه – أما صفات الله فهي صفات لا محدودة ولا متناهية جلالا وكمالا وجمالا فسبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } ، فإذا كان خلق الله هو { أَرْحَمُ الراحمين } فهذا يعني أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خلقه على خلقه؛ فمن رحم أخاه سُمِّيَ رحيماً ، وراحماً ، ولكن الله أرحم الراحمين؛ لأن الرحمة من كل إنسان ضمان لمظهرية الغضب في هذا الأحد ، يقال : « رحمت فلاناً » أي من غضبك عليه وعقوبتك ، وإنّ عقوبتك على قدر قوتك ، لكن الله حين يريد أن يأخذ واحداً بذنب فقوته لا نهاية لها ، وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها .

ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّ الذين اتخذوا . . . }

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152)

حين يقال : { اتخذوا العجل } قد نجد من يتساءل : هل اتخذوه مذبوحاً يأكلونه؟ أو يثير الأرض أو يسقي الحرث ويدير السواقي؟ لأن العجل موجود لهذه المهام ، لكنهم لم يأخذوا العجل لتلك المهام ، بل إنهم قد اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً ، أما اتخاذه فيما خُلِقَ له فلا غبار عليه ، وهو هنا محذوف ومتروك لفطنة السامع؛ فإذا اتخذنا العجل فيما خُلِقَ له العجل لا ينالنا غضب من الله ، أما الذين سينالهم غضب الله فهم من اتخذوا العجل في غير ما خُلِقَ له ، إنهم اتخذوه إلهاً : { سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحياة الدنيا } .

وقوله : { سَيَنَالُهُمْ } يدل على أن أوان الغضب والذلة لم يأت بعد ، وسيحدث في المستقبل ، ومستقبل الدنيا هو الآخرة ، ولكن الحق هنا يقول : إن الذلة ستحدث في الدنيا ، فكيف يكون { سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ } مع أنهم تابوا؟ ويوضح سبحانه لنا ذلك في قوله : { فتوبوا إلى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ } .

فبعضهم تاب إلى بارئه وقتل نفسه فلماذا إذن الغضب؟

ويوضح الحق لنا أن الذي ينالهم من الغضب هو ما ألجأهم إلى أن يقال لهم : « اقتلوا أنفسكم » ، وهكذا نفهم أن قوله تعالى : { سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ } أي قبل أن يتوبوا ، وقتل النفس هو منتهى الذلة ومنتهى الإهانة . { . . . سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحياة الدنيا وَكَذَلِكَ نَجْزِي

المفترين } [الأعراف : 152]
أي أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم ، فكل مفتر يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لابد أن يناله هذا الجزاء؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث في تاريخهم؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك – سبحانه – أن يعتبر السامع للقصة في نفسه . واعتبار السامع للقصة في نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيهاً وتحذيراً : { وَكَذَلِكَ نَجْزِي المفترين } أي احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم ، وهو سبحانه ينبه كلا لينتفع من هذه العبرة وهذه اللقطة فإنَّ التاريخ مسرود لأخذ العبرة ، والعظة ليتعظ بها السامع .
ويقول الحق بعد ذلك : { والذين عَمِلُواْ . . . }

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)

وهذا ما حدث ، فبعد أن اتخذوا العجل ، وقال لهم : اقتلوا أنفسكم توبة إلى بارئكم ، ثم تابوا إلى الله وآمنوا بما جاءهم ، غفر الله لهم . وإذا كان الحق قد قص علينا مظهرية جباريته فإنه أيضاًً لم يشأ أن يدعنا في مظهرية الجبارية ، وأراد أن يدخلنا في حنان الرحمانية . لذلك يقول هنا : { والذين عَمِلُواْ السيئات ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وآمنوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأعراف : 153]
وقوله : { ثُمَّ تَابُواْ } أي ندموا على ما فعلوا وأصروا وعزموا على ألاَّ يعودوا ، ونعلم من قبل أن التوبة لها مظهريات ثلاثة؛ أولاً : لها مظهرية التشريع ، ولها مظهرية الفعل من التائب ثانياً ، ولها قبولية الله للتوبة من التائب ثالثاً . ومشروعية التوبة نفسها فيها مطلق الرحمة ، ولو لم يكن ربنا قد شرع التوبة سيستشري شره في السيئة فهذه رحمة بالمذنب ، وبالمجتمع الذي يعيش فيه المذنب . بعد ذلك يتوب العبد ، ثم يكون هنا مظهرية أخرى للحق ، وهو أن يقبل توبته .
التوبة – إذن – لها تشريع من الله ، وذلك رحمة ، وفعل من العبد بأن يتوب ، وذلك هو الاستجابة ، وقبول من الله ، وذلك هو قمة العطاء والرحمة منه سبحانه .
وقوله الحق : { والذين عَمِلُواْ السيئات ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وآمنوا . . . } [الأعراف : 153]
إنَّ هذا القول يدل على أن عمل السيئة يخدش الإيمان ، فيأمر سبحانه عبده : جدّد إيمانك ، واستحضر ربك استحضاراً استقباليًّا؛ لأن عملك السيئة يدل على أنك قد غفلت عن الحق في أمره ونهيه ، وحين تتوب فأنت تجدد إيمانك وتجد ربك غفوراً رحيماً : { إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } .
إن ذنب العبد يكون فيما خالف منهج ربه في « افعل » و « لا تفعل » ، ومادام العبد قد استغفر الله وتاب فسبحانه يقبل التوبة . ويوضح : إذا كنت أنا غفوراً رحيماً ، فإياكم يا خلقي أن تُذَكِّروا مذنباً بذنبه بعد أن يتوب؛ لأن صاحب الشأن غفر ، فإياك أن تقول للسارق التائب :

« يا سارق » ، وإياك أن تقول للزاني التائب : « يا زاني » ، وإياك أن تقول للمرتشي التائب : « يا مرتشي » لأن المذنب مادام قد جدّد توبته وآمن ، وغفر الله له ، فلا تكن أنت طفيليًّا وتبرز له الذنب من جديد .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَماَّ سَكَتَ عَن مُّوسَى . . . }

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

وهل للغضب سكوت؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت؟ نعم؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعيًّا أمام من أذنب ، فكأن الغضب يلح عليه ، ويقول للغاضب : اضرب ، اشتم ، اقتل . كأن الغضب قد مُثِّل وصُوِّر في صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر ، فشبَّه الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى في أن يفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه .

أو هو كما قال إخواننا العلماء : من القلب في اللغة ، أي أنه يقلب المسألة ، اتكالاً على أن فطنة السامع سترد كل شيء إلى أصله؛ كما نسمع في اللغة : خرق الثوبُ المسمارَ ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذي قام بخرق الثوب؛ لأننا لن نتخيل أنّ الثوب يخرق مسماراً .

ويسمى ذلك « القلب » أي أن يأتي بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة السامع . أو أن المسمار مستقر في مكانه ، والثوب هو الذي طرأ عليه فانخرق ، فيكون سبب الخرق من الثوب ، فكأن الفاعلية الحقيقية من الثوب : { وَلَماَّ سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب } .

أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى . { وَلَماَّ سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب أَخَذَ الألواح وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف : 154]

وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غضبان أسفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقي ، فالغضب جعله يلقي الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فأخذها ثانية . { . . . وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف : 154]

النسخة من الكتاب مأخوذة من الشيء المنسوخ أي المنقول من مكان إلى مكان ، ويقال : نسخت الكتاب الفلاني من الكتاب الفلاني . أي أن هناك كتاباً مخطوطاً ثم نقلناه بالطباعة أو بالكتابة إلى نسخة أو عدد من النسخ ، أي أخذته من الأصل إلى الصورة ، واسمه منسوخ ، وكلمة نُسخة على وزن « فُعْلَة » وتأتي بمعنى مفعولة ، فنسخة تعني منسوخة ، وفي القرآن مثل هذا كثير . والحق سبحانه وتعالى قال : { إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ

يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني إِلاَّ مَنِ اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ . . . } [البقرة : 249]

و « غُرْفة » أي مغروفة ، وهي القليل من المياه في اليد لتبل الريق فقط ، والغرفة أيضاً تكون في البيوت؛ لأنها مكان متقطع من مكان آخر ولها جدران تحددها . واسمها غرفة لأنها مغروفة من المكان في حيز مخصوص . وهنا يقول الحق سبحانه : { وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ } .

و « هدى » المقصود بها المنهج الموصل للغاية في « افعل » و « لا تفعل » .

إنّه يوصل للغاية وهي ثواب الآخرة . إذن فالهدى والرحمة شيء واحد له طرفان ، فالهدى هو المنهج الذي إن اتبعته تصل إلى الرحمة ، ولذلك يقول الحق : { هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } .

وهكذا نجد المنهج هدى ورحمة ، فمن يسمع كلام الله ويتبعه يهتدي ويرحمه ربنا؛ لأنه جعل الله في باله وخاف من صفات الجبارية في الحق ، ولهذا لابد أن يستحضر الإِنسان أو المؤمن رهبته لربه وخوفه منه – سبحانه – ليكون المنهج هدى ورحمة له . ويكون من الذين يرهبون ربهم .

وساعة ترى المفعول تقدم في مثل قوله سبحانه هنا : { . . . لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف : 154]

نفهم أن هذا هو ما يسمى في اللغة « اختصاص » وقَصْر مثلما قال الحق في فاتحة الكتاب : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } .

وما الفرق بين { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } و « نعبدك »؟ إن قلنا : « نعبدك » فهو قول لا يمنع من العطف عليه ، فقد نعبدك ونعبد الشركاء معك؛ لكن قولنا : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } أي خصصناك بالعبادة وقصرناها عليك سبحانك فلا تتعدى إلى غيرك .

إذن حين تقدم المفعول فهذا هو عمل الاختصاص . ومثال ذلك في حياتنا حين نقول : « أكرمتك » ، ولا مانع أن نقول بعدها « وأكرمت زيداً وأكرمت عمراً » . لكن إن قلت : إياك أكرمت ، فهذا يعني أني لم أكرم إلا إياك . وهنا يقول الحق : { لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } .

ولقائل أن يقول : ألا يمكن أن يدعي أحد الرهبة ظاهراً وأنه ممتثل لأمر الله رياء أو سمعة حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإِسلام ، ويأخذون في الثناء عليه؟ ولكن هنا نجد التخصيص الذي يدل على أن العبد لا يرهب أحداً غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله ، وليست رياء ، ولا سمعة ، ولا لقصد الثناء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { واختار موسى قَوْمَهُ . . . }

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155)

وكلمة « اختار » تدل على أن العمل الإختياري يُرجح العقل فيه فعلاً على عدم فعل أو على فعل آخر ، وإلا فلا يكون في الأمر اختيار؛ لأن « اختار » تعني طلب الخير والخيار ، وكان في مكنتك أن تأخذ غيره ، وهذا لا يتأتى إلا في الأمور الاختيارية التي هي مناط التكليف ، مثال ذلك : اللسان خاضع لإرادة صاحبه الاختيارية التي هي مناط التكليف ، مثال ذلك : اللسان خاضع لإرادة صاحبه فخضع للمؤمن حين قال : لا إله إلا الله ، وخضع للملحد حين قال – لعنه الله – : لا وجود لله ، ولم يعص اللسان في هذه ، ولا في تلك . والذي رجح أمراً على أمر هو ترجيح الإِيمان عند المؤمن في أن يقول : لا إله إلا الله ، وترجيح الإلحاد عند الملحد في أن يقول ما يناقض ذلك . والحق هنا يقول : { واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً } .

والذين درسوا اللغة يقولون : إن هناك حدثاً . وأنّ هناك موجدا للحدث نسميه فاعلاً مثل قولنا : «كتب زيد الدرس » أي أن زيداً هو الذي أدى الكتابة ، ونسمي « الدرس » الذي وقعت عليه الكتابة مفعولاً به ، ومرة يكون هناك ما نسميه « مفعولاً له » أو « مفعولاً لأجله » مثل قول الابن : قمت لوالدي إجلالاً ، فالذي قام هو الابن ، والإجلال كان سبباً في إيقاع الفعل فنسميه « مفعولا لأجله » : ونقول : « صُمْت يوم كذا » ونسميه « مفعولاً فيه » ، وهو أن الفعل ، وقع في هذا الزمن . فمرة يقع الحدث على شيء فيكون مفعولاً به ، ومرة يقع لأجل كذا فيكون مفعولاً لأجله ، ومرة يقع في يوم كذا؛ العصر أو الظهر فيكون مفعولاً فيه ، ومرة يكون مفعولاً معه « مثل قولنا : سرت والنيل : أي أن الإنسان سار بجانب النيل وكلما مشى وجد النيل في جانبه .

وهنا يقول الحق : { واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا . . . } [الأعراف : 155]

ولأن اختيار موسى للسبعين كان وقع من القوم؛ فيكون المفعول قد جاء من هؤلاء القوم ، ويسمى » مفعولاً منه «؛ لأنه لم يختزهم كلهم ، إنما اختار منهم سبعين رجلاً لميقاته مع الله سبحانه .

وقالوا في علة السبعين إن من اتبعوا موسى كانوا أسباطاً ، فأخذ من كل سبط عدداً من الرجال ليكون كل الأسباط ممثلين في الميقات ، وكلمة » ميقات « مرت قبل ذلك حن قال الله : { وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ . . . } [الأعراف : 143]

وهل الميقات هذا هو الميقات الأول؟ لا؛ لأن الميقات الأول كان لكلام موسى مع الله ، والميقات الثاني هو للاعتذار عن عبدة العجل . { واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ .

. . } [الأعراف : 155]

ولماذا أخذتهم الرجفة؟

لأنهم لم يقاوموا الذين عبدو العجل المقاومة الملائمة ، وأراد الله أن يعطي لهم لمحة من عذابه ، والرجفة هي الزلزلة الشديدة التي تهز المرجوف وتخيفه ونترهبه من الراجف . وحين أخذتهم الرجفة قال موسى : { رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ } .

أوضح موسى : لقد أحضرتهم من قومهم . وأهلوهم يعرفون أن السبعين رجلاً قد جاءوا معي ، فإن أهلكتهم يا رب فقد يظن أهلهم أنني أحضرتهم ليموتوا وأسلمتهم إلى الهلاك . ولو كنت مميتهم يا رب وشاءت مشيئتك ذلك لأمتّهم من قبل هذه المسألة وأنا معهم أيضاً . ويضيف القرآن على لسان موسى والقوم معاً : { . . . أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهآء مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين } [الأعراف : 155]

أنت أرحم يا رب من أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وهذا القول يدل على أن العملية عملية فعل ، والفعل هو عبادة العجل؛ فلو أن هذا هو الميقات الأول لما احتاج إلى مثل هذا القول؛ لأن قوم موسى لم يكونوا قد عبدوا العجل بعد . ولكنهم قالوا بعد الميقات الأول : مادام موسى قد كلم الله ، فلابد لنا أن نرى الله ، وقالوا فعلاً لموسى : { أَرِنَا الله جَهْرَةً . . . } [النساء : 153]

إذن نجد أن ما حصل من قوم موسى بعد الميقات الأول هو قولهم : { أَرِنَا الله جَهْرَةً } وليس الفعل ، أما هنا فالآية تتحدث عن الفعل : { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهآء مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ } .

وهكذا نعلم أن الآية تتحدث عن ميقات ثانٍ تحدد بعد أن عبد بعضهم العجل ، والفتنة هي الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً في ذاته ، ولا يقال في أي امتحان إنه مذموم . إنما المذموم هو النتيجة عند من يرسب ، والاختبار والامتحان غير مذموم عند من ينجح .

إذن فالفتنة هي الابتلاء والاختبار ، وهذا الاختبار يواجه الإنسان الجاهل الذي لا يعلم بما تصير إليه الأمور وتنتهي إليه ليختار الطريق ويصل إلى النتيجة . ولا يكون ذلك بالنسبة لله؛ لأنه يعلم أزلاً كل سلوك لعباده ، لكن هذا العلم لا يكون حجة على العباد؛ ولابد من الفعل من العباد ليبرز ويظهر ويكون له وجود في الواقع لتكون الحجة عليهم . والأخذ بالواقع هو الأعدل .

وقول موسى عليه السلام : { إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ . . . } [الأعراف : 155]

هذا القول يعني : أنك يا رب قد جعلت الاختبار لأنك خلقتهم مختارين؛ فيصح أن يطيعوا ويصح أن يعصوا . والله سبحانه هو من يُضل ويهدي؛ لأنه مادام قد جعل الإنسان مختاراً فقد جعل فيه القدرة على الضلال ، والقدرة على الهدى .

وقد بيّن سبحانه من يشاء هدايته ، ومن يشاء إضلاله فقال : { . . . والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين }

[آل عمران : 86]

والسبب في عدم هدايتهم هو ظلمهم ، وكذلك يقول الحق : { . . . والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : 264]

وهكذا نرى أن الكفر منهم هو الذي يمنعهم من الهداية . إذن فقد جعل الله للعبد أن يختار أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قهراً عن الله؛ لأنه سبحانه لو لم يخلق كلا منا مختاراً لما استطاع الإنسان أن يفعل غير مراد الله ، ولكنه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار – أيها الإنسان – الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه الله لك ، وسبحانه قد بيّن أن الذي يظلم ، والذي يفسق هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين من يختار الهداية؛ لأنه أهل أن يعينه الله على الهداية .

ويقول الحق على لسان سيدنا موسى في نهاية هذه الآية : { . . . أَنتَ وَلِيُّنَا فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين } [الأعراف : 155]

والولي هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من قربته منك بودك له ، ولم تقربّه إلا لحيثية فيه قد تعجبك وتنفعك وتساعدك إذا اعتدى عليك أحد أو تأخذ من عمله لأنه عليم . إذن فالمعنى الأول لكلمة الولي أي القريب الذي قربته لأن فيه خصلة من الخصال التي قد تنفعك ، أو تنصرك ، أو تعلمك .

وقول موسى { أَنتَ وَلِيُّنَا } أي ناصرنا ، والأقرب إلينا ، فإن ارتكب الإنسان منا ذنباً فأنت أولى به ، إنك وحدك القادر على أن تغفر ذنبه؛ لذلك يقول موسى : { فاغفر لَنَا } ، ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً لأن درءها مقدم على جلب المصلحة ، فقدم موسى عليه السلام طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعا ربّه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة . وقد قال ربنا في مجال درء المفسدة : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار } وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار : { وَأُدْخِلَ الجنة } . وهذا جلب منفعة ومصلحة .

إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، – وعلى سبيل المثال – إنك ترى تفاحة على الشجرة ، وتريد أن تمد يدك لتأخذها ، ثم التفت فوجدت شابًّا يريد أن يقذفك بطوبة ، فماذا تصنع؟ انت في مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك . وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وهنا درء المفسدة متمثل في قول موسى : { فاغفر لَنَا } ثم قال بعد ذلك : { وارحمنا } وهذا جلب مصلحة ، والقرآن يقول : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ . . . } [الإسراء : 82]

لأن الداء يقع أولاً ، وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء ، والرحمة ألاَّ يجيء لك داء بالمرة . فإذا أخذت القرآن لك نصيراً فلن يأتي لك الداء أبداً . { . . . فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين } [الأعراف : 155]

ومثلها مثل قول الحق سبحانه : { خَيْرُ الرازقين } ، و { خَيْرُ الماكرين } ، و { خَيْرُ الوارثين } و { خَيْرُ الغافرين } هنا؛ لأن المغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكنا نعرف أن مغفرة الرب فوق مغفرة الخلق؛ لأن الغافر من البشر قد يغفر رياء ، وقد يغفر سمعة ، قد يغفر لأنه خاف بطش المقابل . لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل .

ويقول الحق بعد ذلك : { واكتب لَنَا . . . }

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156)

ونلحظ أن هذه الآية تضم طلبات جديدة لسيدنا موسى من ربّه بعد قوله : { فاغفر لَنَا وارحمنا } . ونرى أن خير الغافرين تعود لقول موسى – عليه السلام – : { فاغفر لَنَا } أما الحسنة في قوله : { واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً } فإنها تعود على طلب الرحمة : { واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة } .

هو إذن يطلب الحسنة في الدنيا وكذلك في الآخرة ، والحسنة لها معنى « لغوي » ، ومعنى « شرعي » أما المعنى اللغوي فكل ما يستحسنه الإنسان يُسمى حسنة ، ولكن الحسنة الشرعية هي ما حسنه الشرع ، فالشرع رقيب على كل فعل من أفعالنا وتصرفاتنا ، فالحسنة ليست ما يستحسنه الإنسان؛ لأن الإنسان قد يستحسن المعصية ، وهذا استحسان بشري بعيد عن المنهج ، أما الاستحسان الشرعي فهو في تنفيذ المنهج ب « افعل » و « لا تفعل » .

والحسنة المعتبرة في عرف المكلفين من الله هي الحسنة الشرعية؛ لأن الإنسان قد يستحسن شيئاً وهو غير شرعي لأنه ينظر إلى عاجلية النفع فيه ، ولا ينظر إلى آجلية النفع ، ولا ينظر إلى كمية النافع . والنفع – كما نعلم – في الدنيا على قدر تصورك في النفع ، أما النفع في الآخرة فلا يعلم قدره إلا علاّم الغيوب – سبحانه – إذن فقوله : { واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً } يكون المراد بها الحسنة الشرعية في الدنيا عملاً ، وفي الآخرة جزاءً .

ونلحظ أن موسى أراد بالحسنة الأولى ما يعم الحسنة الشرعية والحسنة اللغوية؛ فهو دعاء بالعافية والنعم الجلية الطيّبة؟ ، وكل خير الدنيا في ضوء منهج الله . والحق سبحانه وتعالى يقول : { قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة . . . } [الأعراف : 32]

إذن فالحسنة الخالصة هي في يوم القيامة ، ولكن هناك من ينتفع بها في الدنيا؛ فالجماد منتفع برحمة الله ، والنبات برحمة الله ، والحيوان منتفع برحمة الله ، والكافر منتفع برحمة الله . كل ذلك

في الدنيا ، وهي الرحمة التي وسعت كل شيء ، لكن مسالة الآخرة كجزاء على الإحسان فهو جزاء خاص بالمؤمنين .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام : { إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ } .

و « هاد » أي رجع ، و « هدنا إليك » أي رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه ، وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا ، وما دمنا قد رجعنا إليك يا ربي فأنت أكرم من أن تردنا خائبين . ويرد الحق سبحانه : { . . . قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } [الأعراف : 156]

وقوله الحق : { عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ } أي لا يوجد من يدفعني ويرشدني في توجيه العذاب لأحد؛ فحين يذنب عبد ذنباً أنا أعذبه أو أغفر له؛ لذلك لا يقولن عبد لمذنب إن الله لابد أن يعذبه؛ لأنه سبحانه هو القائل : { عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . . } [الأعراف : 156]

وما المقصود بالرحمة هنا؟ أهي الرحمة في الدنيا أو الرحمة في الآخرة؟ إنها الرحمة في الدنيا التي تشمل الطائع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، ولكنها خالصة في اليوم الآخر -كما قلنا - للمؤمنين .

وقوله سبحانه : { فَسَأَكْتُبُهَا } يدل على أن هذا سيكون في الآخرة . أي أن رحمة الله وسعت كل شيء في الدنيا ولكنها رحمة تنتهي بالنسبة للكافرين في إطار الدنيا ، ولكن بالنسبة للمؤمنين فهي رحمة مستمرة قد كتبها الله أزلاً وتعطي للمؤمنين فضلاً ومنَّة وعطاء منه - سبحانه - { . . . فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } [الأعراف : 156]

وعندما سمع بعض اليهود ذلك قالوا : نحن متقون ، فقيل لهم : في أي منهج أنتم متقون أفي منهج موسى؟ لو كنتم متقين في منهج موسى -كما تزعمون - لآمنتم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لأن من تعاليم موسى أن تؤمنوا برسول الله محمد - عليه الصلاة والسلام - ولذلك جاء قوله تعالى : { الذين يَتَّبِعُونَ . . . }

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

فهذه تسع صفات لسيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهي أن الله أوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ، وأنه صاحب المعجزات ، أنه بلّغ ونبأ بأفضل وأتم العقائد والعبادات والأخلاق – وهو – عليه الصلاة والسلام – الأمي الذي لم يمارس القراءة والكتابة ولم يجلس إلى معلم ، فهو – عليه السلام – باقٍ على الحالة التي ولد عليها ، وقد ذكره ربّه – جل وعلا – باسمه وصفاته ونعوته عند اليهود والنصارى في التوارة والإنجيل وقد كتمها الكافرون منهم أو أساءوا تأويلها ، كما وصفه ربه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلفهم بفعل ما تدعوا إليه الطبائع المستقيمة والفطر السليمة؛ لأن في ذلك النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة ، وأنه – صلى الله عليه وسلم – يزجرهم وينهاهم عن كل منكر مستهجن تستقبحه الجبلة القويمة ، والخلقة السوية ، ويحل لهم ما حرم عليهم من الطيبات التي منعوا منها وحظرها الله عليهم جزاء طغيانهم وضلالهم ، ويحرم عليهم كل ضار وخبيث : كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش ، ويخفف عنهم ما شق عليهم وثقل من التكاليف التي كانت في شريعة موسى – عليه السلام – كقطع الأعضاء الخاطئة وتحريم الغنائم عليهم ووجوب إحراقها ، وكذلك يخفف الله ويحط عنهم المواثيق الشديدة التي فرضت عليهم عقابا لهم على فسوقهم وظلمهم .

يقول – جل شأنه – : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [النساء : **160-161**]

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين على سيدنا رسول الله أن يبلغوا أقوامهم بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يؤمن الأقوام التي يشهدون ويعاصرون رسالته صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن رسول الله لم يكن معاصراً لأحد من الرسل ، ولكن البشارة به قد جاءت بها أنبياؤهم وسجلت في الكتب المنزلة عليهم ، وكل رسول سبق سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، قد أمره الله أن يبلغ الذين أرسل إليهم أن يتبعوا الرسول محمداً ويؤمنوا به ولا يتمسكوا بسلطة زمنية ويخافوا أن تنزع منهم . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه معجزة وبينة فلابد أن يؤمنوا به . { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين . . . } [آل عمران : **81**]

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خميرة إيمانية حتى لا يتعارض اتباع الأديان . ولا يفهم أصحاب دين موجود أن ديناً آخر جاء لينسخه ويأخذ منه السلطة الزمنية؛ لأن رسالة الإيمان موصولة وتحدث الأقضية للناس بامتداد الزمان . فكل الرسل يحرصون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المواهب ولا تتعاند فيها الحركات .

وقد طلب الحق من الرسل ذلك وأخذ عليهم العهد وبعد ذلك أكده فقال :

{ أَأَقْرَرْتُمْ } واستوحى منهم الكلام الذي يؤيد هذا المنهج . ولذلك لا يصح لتابع نبي أن يصادم

رسالة جديدة مؤيدة بمعجزة ومؤيدة بمنهج يضمن للإنسان الحياة وسلامتها وسعادتها .

ولم يكتف الحق بأن يجعل الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه ونسلم مجرد خبر ، بل وضع لمحمد وحده سمة في الكتب التي سبقته ، ووصفه لهم مشخصاً ، وحين يصفه مشخصاً فهذا أوضح من الخبر عنه بكلام . ولذلك قال عبدالله بن سلام عندما سأله عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منّي يا بني . قال : وَلِمَ؟ قال : لأني لست أشك في محمد أنه نبيّ ، فأما ولدي فلعل والدته قد خانت ، فقبّل عمر رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه : { يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ } .

ولا شك أن الإنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سمات خاصة وهي التي تثبت شخصيته صلى الله عليه وسلم المادية ، وليس الأمر في رحلة الإسراء والمعراج مجرد كلام ، بل إنه حينما سئل عن هذه الرحلة قال : « رأيت موسى وإذا رجل ضَرْبٌ ، رَجَلٌ كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى فإذا رَبعة أحمر كأنه خرج من ديماس– الحمَّام– وأنا أشبه ولد إبراهيم به » .

وكذلك أعطى الله في التوراة والإنجيل لا الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أعطي تفاصيل صورته بحيث تتشخص لهم ، فلا يلتبس به عند مجيئه مع التشخيص شريك ، فيقول سبحانه : { يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ } . ولكن فريقاً منهم كتموا الحق ليحتفظوا بالسلطة الزمنية ، لأنهم كانوا يظنون أنه حين يأتي دين جديد سيأخذ منهم هذه السلطة الزمنية ويقود الأمم والشعوب . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل رسل السماء إلى الأرض متعاونين لا متعاندين ، ينصر بعضهم بعضاً . كما جاء في سورة الفتح : { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } [الفتح : 29]

لقد جاء الحق بصورة المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله في التوراة والإنجيل ، لأن الدين الإسلامي الذي نزل على محمد لن يأتي دين بعده؛ لذلك جاء بسيرة رسول الله وصفاته وصفات أتباعه في التوراة والإنجيل ، وفي هذا الدين ما تفتقده اليهودية التي انجرفت إلى مادية صرفة وتركت الروحانيات؛ لذلك تأتي سيرة أتباع محمد في التوراة : { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود } .

حين أسرف اليهود في المادية أراد الله أن يأتي برسول يجنح ويميل إلى الروحانية وهو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام .

. ليحصل الاعتدال في تناول الحياة دون إفراط أو تفريط .
إذن فالحق سبحانه وتعالى مهد لكل رسول بأن يبشر به الرسول السابق لأنه لا معاندات في الرسالات . ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الموكب الرسالي ، كان ولابد أن يصفه الله – سبحانه – وصفًا ليس بالكلام ، بل يصفه كصورة ، بحيث إذا رأوه يعرفونه ، ولذلك نجد سيدنا سلمان الفارسي حين رأى رسول الله في المدينة ورأى منه علامات كثيرة أحب أن يرى فيه علامة مادية ، فرأى في كتف الرسول خاتم النبوة .
ولكن هل نفع ذلك؟ نعم ، فكثير من الناس آمن به . « وقد أقام رسول الله مناظرة بينه وبين اليهود بواسطة عبدالله بن سلام ، الذي قال بعد أن أسلم بين يدي رسول الله : » يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أي رجل فيكم عبدالله بن سَلاَم؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أفرأيتم إن أسلم عبدالله؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك؟ فخرج عبدالله إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه « .
إذن فالأوصاف الكلامية والأوصاف الشخصية المشخصة جاءت حتى لا يقال : إن أديان السماء تتعاند ، إنها كلها متكاتفة في أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زماناً ومكاناً . وقديماً كان العالم معزولاً عن بعضه ، وكل بيئة لها أجواؤها وداءاتها؛ فيأتي الرسول ليعالج في مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداءات في الدنيا؛ جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداًُ بتعاليمه التي تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإِصر هو الحِمْل الثقيل ، والأغلال جمع غُلّ وهو الحديدة التي تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .
وقد ذكر الحق الأوصاف ومهَّد الأذهان إلى مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بالنور الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هي الجامعة المانعة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك : { قُلْ ياأيها الناس . . . }

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)

هنا يأمر الحق رسوله بالآتي : { قُلْ ياأيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } في رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفي ذلك يقول رسول الله :
« أعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلي . . نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم وكان

النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة » .
ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة بعمومية تسخير الكون للخلق؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس : { قُلْ يأيها الناس } . وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسل إليهم : { إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } وأراد سبحانه أن يعطينا الحيثيات التي تجعل لله رسولاً يبلغ قومه وكافة الأقوام منهج الله في حركة حياتهم ، فقال : { الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض } .
ومادام هو الذي يملك السموات والأرض ، ولم يدّع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفي السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد . ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك . وفي هذا يقول الحق : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . } [المؤمنون : 91]
إذن فما دام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأوْلى أن يعبد ، وأول قمة العبادة أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحيثية ألوهيته الأولى أن له ملك السموات والأرض . وما دام إلهاً فلا بد أن يطاع ، ولا يطاع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية إنه هو التوحيد . وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة فقال : { يُحْيِي وَيُمِيتُ } . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً؛ لأن الله هو الذي له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيي ويميت .
ولذلك نجد من حاجّ إبراهيم في ربه يقول الحق عنه : { أَنْ آتَاهُ الله الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ . . . } [البقرة : 258]
وحاول هذا الملك أن يدير حواراً سفسطائيًّا مضللا ليفحم ويسكت إبراهيم – عليه السلام – فقال : { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . . . } [البقرة : 258]
وذلك بأن يأمر بقتل انسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لا يميته بل يحييه في منطق السفسطائيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت؟ . طبعا لا؛ لأن هناك فارقا بين الموت والقتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميته؛ لأن الموت يأتي بدون هدم بنيته بشيء؛ برصاصة أو بحجر أو بقنبلة . ولا أحد قادر على أن يميت احداً إذا رغب في أن يميته ، فالموت هو الحادث بدون سبب ، لكن أن يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه : { يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ .

. . } [الأعراف : 158]
وانظروا إلى الدقة في الأداء؛ فما دام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إني رسول الله إليكم جميعاً ،

وحيثية الإيمان هي الإقرار والاعتقاد بوحدانية الإله الذي له ملك السموات والأرض ، وهو لا إله إلا هو ، وهو يحيي ويميت؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى : { فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ } .

لم يقل محمدٌ وآمنوا بي؛ لأنها ليست مسألة ذاتية في شخصك ما يا محمد ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإِيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصلية { فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ } ، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . . وبعد ذلك قال في وصف النبي : { النبي الأمي الذي يُؤْمِنُ بالله وَكَلِمَاتِهِ } . والأمية -كما علمنا من قبل - شرف في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله ، وهي إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن ، وإمّا بالذي قاله موسى لقومه : « وجعل كلامي في فيه » .

ويقول فيه عيسى - الذي لا يتكلم من قِبَل نفسه - ، وإنما تأتي له كلمات ربنا في فمه ، والقول الشامل في وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم : ما بيّنه الحق في قوله : { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى } [النجم : 3]

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82]

ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد؟ ونقول : إنه سبحانه قد علمه أزلاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أي شيء هو أزلي في علم الله ، وكأنه يقول للشيء : اظهر يا كائن للوجود ليراك الناس بعد أن كنت مطموراً في طيّ قدرتي .

وسواء أكانت الكلمة بخلق الأسباب ، مثل خلث الشمس والقمر أم بخلق شيء بلا أسباب ، كعيسى - عليه السلام - فأنه «كلمة منه » أي كلمة تخطت نطاق الأسباب؛ بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفي هذا تخطٍ للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

{ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ } . ونعلم أن كل شيء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هي أيضاً الآيات التي فيها منهج الأحكام ، ولذلك يأتي قوله الحق : { قولوا آمَنَّا بالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَآ أُوتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة : 136]

ويروي لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

« أني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد » .

وقول موسى آمنوا بالكتاب الآخر ، هو الذي يدل عليه قول الحق سبحانه : { قولوا آمَنَّا بالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط . . . } [البقرة : 136]

ويذيل الحق الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

{ واتبعوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } . و « لعل » رجاء وطلب . ونعلم أن كل طلب يتعلق بأحد أمرين : إما طلب لمحال لكنك تطلبه لتدل بذلك على أنك تحبه ، وهو لون من التمني مثل قول من قال : ليت الشباب يعود يوماً ، إنه يعلم أن الشباب لا يعود لكنه يقول ذلك ليشعرك بأنه يحب الشباب . أو كقول إنسان : ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح ، وهذا طلب لمحال ، إلا أنه يريد أن يشعرك بأن هذا أمر يحبه ، إمَّا طلب ممكن التحقيق . وهو ما يسمى بالرجاء . وله مراحل : فأنت حين ترجو لإنسان كذا ، تقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والإدخال في باب الرجاء أن تقول : لعلي أعطيك؛ لأن الرجاء منك أنت ، وأنت الذي تقوله ، ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه ، والأقوى أن تقول : لعل الله يعطيك . أما الله يعطيك . ولكنها من كلامك أنت فقد يستجيب الله لك وقد لا يستجيب ، أما إذا قال الله : لعلكم ، فهذا أرجي الرجاءات ، ولابد أن يتحقق .

وحينما يتكلم الحق عن قوم موسى ، يتكلم عنهم بعرض قصصهم ، وفضائحهم للعهد بعد نعم الله الواسعة الكثيرة عليهم ، وأوضح لنا : إياكم أن تأخذوا هذا الحكم عاماً؛ لأن الحكم لو كان عاماً ، لما وُجد من أمة موسى من يؤمن بمحمد . ولذلك قلنا قديماً إن هناك ما يسمى « صيانة الاحتمال » . ومثال على ذلك نجد من اليهود من آمنوا برسالة رسول الله مثل مخريق الذي قال فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مخريق خير يهود » . وعبدالله بن سلام إن بعض اليهود كانوا مشغولين بقضية الإيمان ، ولذلك لا تأخذ المسألة كحكم عام؛ لأن من قوم موسى من يصفهم الحق بالقول الكريم : { وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ . . . }

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159)

وحين يسمع قوم موسى هذا القول سيقولون في أنفسهم أنه يعلم ما في صدورنا من تفكير في الإيمان برسالة صلى الله عليه وسلم . ولكن لو عمَّم الحكم فمن يفكر في الإيمان بمحمد يقول : لماذا يصدر حكماً ضدي وأنا أفكر في الإيمان؟ لكن الحق « صان الاحتمال » وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يفكرون في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال : { وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف : 159]

أي يدلون الناس على الحق ويدعونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون في حكمهم بين الناس

ولا يجورون .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ . . . }

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ **(160)**

وحين يقول الحق « قطعناهم » فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يخصص كأي كتاب فصلاً لموسى وآخر لعيسى وثالثاً لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإيماني عجينة واحدة في الدعوة ، فيأتي بقضية عيسى ، ثم يدخل في الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كي يستغل انفعالات النفس بعد أي قصة من القصص .

وهنا يعود الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى . فبعد أن أنصفهم وبيّن أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول : { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } . والمقصود هنا بنو إسرائيل ، ومعنى « قطعت الشيء » أن الشيء كان له تمام وجودي مع بعضه ، ثم قطعته وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم « أسباطاً » ، و « السبط » هو ولد والولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثني عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت : { . . . ياأبت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } [يوسف : **4**]

وحين تعد وتحصي ستجد أحد عشر كوكباً مرئية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائي ، فيصير العدد أربعة عشر واترك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، وخذ الأحد عشر كوكباً ، وأضف الرائي وهو يوسف فيكون العدد اثنى عشر . وهؤلاء هم الاثنى عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثنى عشر ابناً من أمهات مختلفة ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميول الأهوائية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تنبأ سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف : { لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً . . . } [يوسف : **5**]

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سبب من أسباب وحيثية التقطيع : { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً } .

وفي سورة يوسف نقرأ : { هذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً . . . } [يوسف : **100**]

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً . . . } [الأعراف : **160**]

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك في الماء تحسباً للاختلاف فيما بينهم ، فجعل الحق لكل سبط

منهم عيناً يشرب منها ليعالج ما فيهم من داءات الغيرة والحقد على بعضهم البعض؛ لأن الحق قال عنهم : { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأسباط في أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل في أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل « العرب » يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسمونهم « أسباطاً » ، ونعرف أن لفظ « اثنتي » يدل على أنهم إناث ، و « عشرة » أيضاً إناث ، لأننا نقول : « جاءني رجلان اثنان » و « امرأتان اثنتان »؛ أي اثنان للذكور ، واثنتان للإناث ، وكلمة « اثنتي عشرة » عدد مركب وتمييزه يكون دائماً مفرداً ، ولذلك يقول الحق : { أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً } .

إذن « اثنتا عشرة » يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا « سبط » وسبط مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذا جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : « كل جمع مؤنث » وأيضاً فالمراد بالأسباط القبائل ، ومفردها قبيلة وهي مؤنثة ، وقطعهم أي كانت لهم – من قبل – وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شيء واحد ، فجاء بكلمة « أسباط » مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : « اثنتا عشرة قبيلة » ، ولا يقال اثنتا عشرة قبائل ، فوضع أسباطاً ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تضم أسباطاً لذا جاء التمييز مذكراً . . . { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً . . . } [الأعراف : **160**]

أي جعلنا كل سبط أمة بخصوصها . والواقع الكوني أثبت أنهم كذلك؛ لأنك لا تجد لهم – فيما مضى – تجمعاً قوميًّا وهو ما يسمونه « الوطن القومي لليهود » برغم أن الدول الظالمة القوية أعانوهم وأقاموا لهم وطنًّا على أرض فلسطين ، ومع ذلك نجد في كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التي تحيا في رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا في الشعوب ، ففي باريس – مثلاً – تجد « حي اليهود » ، وفي لندن المسألة نفسها ، وفي كل مدينة كبيرة تتكرر هذه الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، وبعاداتهم معزولين عن الشعوب ، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم : { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } .

وقطعهم ربنا في الأرض أي أنه نشرهم في البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً مستقلاً ، ولذلك ستقرأ في سورة الإسراء إن شاء الله : { وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . . } .

أي أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى : اسكنوا الأرض وحين تقول لنا يا رب : « اسكن » فأنت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإنسان في الإسكندرية أو القاهرة أو الأردن أو سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن { اسكنوا الأرض } فهذا يعني أن انساحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } .

أي أنه حين يجيء وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم – أيها اليهود – لأن عدوكم لن

يتتبعكم في كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم في كل مكان تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتي بهم الحق لفيفاً ويتجمعون . في هذا الوطن القومي الذين يفرحون به ، ونقول لهم : لا تفرحوا فهذا هو التجمع الذي قال الله عنه : { جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } لتكون الضربة موجهة لكم في مكان واحد تستأصلكم وتقضي عليكم .

ويأتي الحق بعد ذلك بخبر المعجزات : { وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر .

. . } [الأعراف : 160]

و « استسقى » المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هي طلب الماء الذي يمنع على الإنسان العطش ، ومادام قد طلبوا السقيا فلابد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم في التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرّي .

والحق يقول : { إِذِ استسقاه قَوْمُهُ } ، أي طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتي أرويكم ، ولكن سأستسقي لكم ربي ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودي الاضطراري : الهواء والماء والطعام . وساعة ترى « همزة » وسيناً « وتاء » واقعة على شيء من الأشياء فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين سار موسى والعبد الصالح ونزلا قرية استطعما أهلها ، أي طلبا طعاماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهنا « استسقى » أي طلب المقوم الثاني وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغني عنه . لذا لم يضعه الله في يد أحد بل أعطاه ومنحه كل الخلق .

ولما كان الهواء غير مملوك وهو مشاع؛ لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعام يُمكن أن يُملك ، والماء يُمكن أن يُملك ، فقال سبحانه مرة « استطعم » ، وقال هنا « استسقى » ، ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد في القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه :

{ استهوته الشياطين . . . } [الأنعام : 71]

أي طلبت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريده الله .

وقصة الاستسقاء وردت من قبل في سورة البقرة : { وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ } . وفي سورة الأعراف التي نحن بصدد خواطرنا عنها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض؟ . طبعاً لا؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار؟ لا؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الواهب للماء؛ فقال هنا : « إذ استسقاه قومه » ، وفي سورة البقرة قال : { وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ } .

وهذا ترتيب طبيعي . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار؛ لأن المستسقي هنا القوم ، والمستسقي لهم هنا هو موسى والمستسقي منه هو الله – جلت

قدرته- وهذا أمر طبيعي .
والحق سبحانه يقول في سورة البقرة : { وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ الحجر . . . } [البقرة : 60]
ونجد الوحي نزل إلى موسى بقوله : { فَقُلْنَا اضرب } ؛ وهنا في سورة الأعراف نجد الحق يقول : { وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر . . . } [الأعراف : 160]
ولنا أن نعرف أَنَّ { فَقُلْنَا } تساوي « أوحينا » تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مناطات تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المناط في قوله الحق : { وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً } .

فليس كل وحي لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحي له من بعد ذلك كغيره من الرسل .
وقوله الحق : { أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً . . . } [الأعراف : 160]
هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا { فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم } ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فينحبس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرة الله في أن يعطي ويمنع بالشيء الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التي في يد الله يحركها كيف يشاء . ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أي كالجبل ، وامتنعت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فأوحى له الله : { واترك البحر رَهْواً } .
أي تركه كما هو عليه؛ لأن الله يريد أن يغتر فرعون وقومه بأن يروا اليابس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا النفاذ منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته فغرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشيء الواحد ، وكذلك في أمر العصا؛ إنها حين ضربت الماء فلقته فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب .
{ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً . . . } [الأعراف : 160]
وهنا تعبير « انبجست » ، وهناك تعبير « انفجرت » ، ونعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ، فالانبجاس أن يأتي الماء قطرة قطرة ، ثم يأتي الانفجار وتتدفق المياه الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتي وتجيء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك .
إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التي أعقبت الضربة في لقطات متعددة لمظهر واحد؛ له أولية وله

آخرية .

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلم ... علمت بالقلم القرون الأولى

أرسلت بالتوراة موسى مرشداً ... وابن البتول فعلَّم الإنجيلا

ثم جاء لسيدنا محمد وقال :

وفجرت ينبوع البيان محمداً ... فسقى وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع في العبارة حين قال : « فسقى الحديث » ، فالحديث سقيا أما القرآن فمناولة من الله لخلقه . والحق يقول : { فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً } .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تنبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتي عشرة عينا وعلم كل أناس مشربهم؛ لذلك كان لابد أن يكون المكان متسعاً .

وأن هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال من الأرض . { فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ . . . } [الأعراف : 160]

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذي يخصه؟ إنها قسمة الله وصارت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهذا يدل أيضاً على التساوي ، فلم تنفجر عين بماء أكثر من الأخرى فتثير الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أراده الحق : { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ } .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بني إسرائيل في التيه ، وفي الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجاءت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : { وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام } .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط غمامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يضعهم في عشرين خيمة مثلا ، فهل يعجز ربنا عن ذلك؟ طبعاً لا . وإذا كان الحق قد ضمن لنا في الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نعرى ، ولا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقي أمر الطعام لهؤلاء .

فقال : لا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقي أمر الطعام لهؤلاء . فقال : { وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . } [الأعراف : 160]

ساعة تأتي كلمة « أنزلنا » نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يُفترض أن يكون مكانها عاليًّا ، لكن هي مسألة جاءت من أعلى من قدرتك ، أي من فوق أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و « المنّ » مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الزئبق . يجدونه على الشجر . ولا يزال

هذا الشجر موجوداً إلى الآن في العراق ، يهزونه صباحاً فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاءة بيضاء واسمه عندهم المنّ – أيضاً – وهو طعم القشدة وليونتها ، وحلاة العسل .
و « السلوى » هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوروبا وحوض البحر المتوسط واحدته « سَلواة » وهو « السُّماني » ويسميه أهل السواحل « السُّمان » وهو يأتي مهاجراً ولم يربه أحد ، وفي هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد وأسبابهم . { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . } [الأعراف : 160]
وهناك مصانع تصنع المن في أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسلوى – كما قلنا – هو طائر « السمان » الموجود في بيئة أخرى يغريه ربنا بالطقس الدافئ فيأتي إلينا لنأخذه ، وهذه الطيور جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبعثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدلل على أنه حين يريد الماء ، وكما ظلّلهم بالغمام ، وبذلك صارت حاجاتهم قدريَّة ليس لهم فيها أسباب وجاءت لهم بالهناء .

فقالوا : ومن يدرينا أن الرزق الذي يأتينا من المن والسلوى سيستمر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد؟ إنهم قالوا لنبيهم سيدنا موسى ما حكاه القرآن بقوله : { وَإِذْ قُلْتُمْ ياموسى لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ فادع لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا . . . } [البقرة : 61]
وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أي مِصْرٍ من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون : { اهبطوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ } . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ، إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل تمردوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله : { وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسكنوا . . . }

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161)

وهذه القصة مذكورة أيضاً في سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : { وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ } ، ولم يذكر الحق من القائل؛ لأن طبيعة الأمر في الأسباط أنه سبحانه جعل لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يأتلفون؛ فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء

، والنقباء يقولون للناس .
وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفي آية أخرى قال الحق : { وَإِذْ قُلْنَا } . وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة توضح أن المصدر الأصيل في القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب؛ لذلك يوضح هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « وإذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هي بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا : لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا : { . . . فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } [المائدة : 24]
والحق لا يبين لنا القرية في هذه الآية؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التي لها وزنها وخطرها وهي تنفيذ الأمر على أي مكان يكون : { اسكنوا هذه القرية وَكُلُواْ مِنْهَا } .
ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم في التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء غماما ، وتفجير ماء من صخر ، ومَنّ وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم : { وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ } . وقديماً كان لكل قرية باب؛ لذلك يتابع سبحانه : { وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّداً } .
والحطة تعني الدعاء بأن يقولوا : يا رب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التي أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفّههم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو : { . . . نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيائاتكم سَنَزِيدُ المحسنين } [الأعراف : 161]
وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أي سلب مضرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك في سورة البقرة قد جاء النص التالي : { وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المحسنين } [البقرة : 58]
فالكيان العام واحد ونجد خلافاً في الألفاظ واللقطات عن الآية التي وردت في سورة الأعراف . أول خلاف { وَإِذْ قُلْنَا } ، و { وَإِذْ قِيلَ } ، وشاء الحق ذلك ليأتي لنا بلقطة مختلفة كنا أوضحنا من قبل . ففي آية سورة البقرة يقول سبحانه : { ادخلوا } وفي آية سورة الأعراف يقول : { اسكنوا } ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهي السكن أي ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله في سورة الأعراف : { اسكنوا } ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة .

وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية؛ لأنه لا يسكن أحد في القرية إلا إذا دخلها .
وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتي لتكرار ، بل للتأسيس وللإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : { وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ } . وفي آية سورة البقرة يقول : { فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً } .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والتوّ بتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رغداً » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا؛ لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وتأن . وقال الحق هنا في سورة الأعراف : { وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّداً } . أي أنه قدم قولهم « حطة » على السجود ، وفي آية سورة البقرة قدم السجود فقال : { وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ . . . } [البقرة : 58]

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من ينفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا في سورة الأعراف :
{ . . . نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيائاتكم سَنَزِيدُ المحسنين } [الأعراف : 161]
وفي سورة البقرة يقول : { نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المحسنين } .
ونعلم أن صيغة الجمع تختلف؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تأنيث ، ففي جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « قفل » فنقول في جمعها « أقفال » . أما في جمع التأنيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد في المفرد من علامة تأنيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و « فاطمات » ، و « أكلة » ، و « أكلات » وهذا جمع مؤنث سالم ، أي ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة . لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء- سبحانه- بجمع المؤنث السالم الذي يدل على القلة وبجمع التكسير الذي يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا؛ لأن المخاطبين غير متساوين في الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً في عجز الآيتين ، فقال في سورة البقرة : { وَسَنَزِيدُ المحسنين } وجاء عجز سورة الأعراف بدون « واو » فقال : { سَنَزِيدُ المحسنين } .

وقد عودنا ودعانا الحق إلى أن نقول : اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة . وهنا يوضح سبحانه : أنا لن أكتفي بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكني سأزيدكم حسناً ، وفي هذا سلب للضرر وجلب للنفع . كأن الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذي ينبئ ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و « خطيآتكم » التي تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يا رب فقيل؟ لهم : { سَنَزِيدُ المحسنين } هل يغفر لنا فقط ، أو أنه سيجازينا بالحسنات أيضاً؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق : { . . . وَلَوْ

كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً } [النساء : 82]
ويقول الحق بعد ذلك : { فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ . . . }

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162)

هذه الآية تدل على أنهم افترقوا فرقتين؛ لأن الحق سبحانه مادام قد قال : { مِنْهُمْ } فهذا يعني أن بعضهم قالوا وفعلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : « حطة » وطلب منهم أن يدخلوا سجداً . والتغيير منهم جاء في القول؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرئي مما يدل على أن بعضهم يرائي بعضاً ، ففي القول أرادوا أن يهذروا ويتكلموا بما لا ينبغي ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : « حطة » قالوا : « حنطة » استهزاءً بالكلمة .
وهكذا نرى أن التبديل جاء في القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبديل أيضاً حدث من بعضهم في الفعل . فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مقعداتهم ، كنوع من التعالي ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك؛ لأن سلوكهم في الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل . { فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ . . . } [الأعراف : 162]
وكأن الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم في أثناء التيه وكيف ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، واستسقى لهم موسى فجاءت المياه . لكن غريزة التبديل والتمرد لم تغادرهم .
وما داموا قد بدَّلوا في كلمات الله ، فعليهم أن ينالوا العقاب : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السمآء . }
وهناك آية ثانية في سورة البقرة يقول فيها الحق : { فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السمآء } [البقرة : 59] . والفارق بين « الإنزال » وبين « الإرسال » أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه في المطر : { وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً } . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن في الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ } . فالذي يحتاج إلى استمرارية في الفعل يقول فيه الحق : « أرسل » بدليل أن الله حينما أراد أن يجيء بالطوفان ليغرق المكذبين بموسى قال : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان . . . } [الأعراف : 133]
وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود في الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم : { وياقوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً . . . } [هود : 52]

إذن فالإرسال يعني التواصل ، أما الإنزال فهو لمرة واحدة ، وأراد الحق سبحانه من قصة بني إسرائيل أن يأتي لنا بلقطة فجاء بكلمة « أنزلنا » ، ولقطة أخرى جاء فيها ب « أرسلنا »؛ لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، فهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنبه أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه؛ فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عقاباً على قدر ذنبه .

ومن تمادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنوبه الكبيرة .
وهنا يقول الحق : { . . . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السمآء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ } [الأعراف : 162]
و « رجزاً » أي عذاباً ، وهناك رِجْز ، ورُجْز ، والرِّجز يُولد من الرُّجز؛ وينشأ مثل قوله الحق : { والرجز فاهجر } . أي اهجر الرُّجز . . أي المآثم والمعاصي والذنوب لتسلم من الرِّجز . . أي من العذاب . وهنا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك في الآية الأخرى قال : { بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ } .
والفسق يسبق الظلم؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا فسق أولاً ، ولذلك جاء الحق بالمسبَّب وجاء السبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة في القرآن جاءت لمعنى أساسي تؤديه ولا تكرار إلا لمجموع القصة في ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً في كل شيء لتعطي معاني ولقطات جديدة .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية . . . }

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163)

هنا سؤال عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التي دخلوها هي « بيت المقدس » ولم تكن على البحر ، والقرية التي كانت على البحر هي « أيلة » أو « مدين » أو « طبرية » ، المهم أنها كانت « حاضرة البحر » أي قريبة من البحر ومشرفة عليه؛ لأننا نقول فلان حضر ، أي كان بعيداً فاقترب . فمثل الإسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .
وقوله : « واسألهم » والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه السؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا في كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحي من الله إليه؛ لأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ في كتاب ، وإنما علّمه من أرسله ، إنّه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يَعْلَم منهم ، بل يريد أن يُعْلِمَهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مصدر له كعلم سائر البشر؛ لا جلس على معلم ولا قرأ في كتاب ولذلك تجد « ماكُنَّات »

القرآن أي قوله الحق : « ما كنت » و « ماكنت » و « ما كنت » و « ما كنت » مثل قوله :
{ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر . . . } [القصص : 44]
ومثل قوله تعالى : { وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . . } [القصص : 45]
ومثل قوله تعالى : { . . . وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران : 44]

إذن فأنت يا رسول الله لم تكن معهم لتقول ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم في كتبهم ، إذن فالذي علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى : { وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ المبطلون } [العنكبوت : 48]

وفي هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليتيقنوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به . { وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر . . . } [الأعراف : 163]

وكلمة « واسألهم » تحل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً مثله قط ، فرفعه الله إليّ أنظر إليه ، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلي أقرب الناس شبها به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل : يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأني بالسلام » .

وتأتي آية في القرآن تقول : { وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ . . . } [الزخرف : 45]
والأمر لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسل الله من قبله ، ومتى يسألهم؟ لابد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل . إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالخبر مصدق لأنه أدى أمر الله : { وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر } . والسؤال هنا سؤال للتقرير والتقريع والتوبيخ : وما قصة القرية التي كانت حاضرة البحر؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أي القريبة من البحر ، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أنّ للبحر فيه مدخلاً؛ لأن المسألة متعلقة بالحيتان والسمك والصيد؛ لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية . { . . . إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ

لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [الأعراف : 163]
وحيتان جمع حوت ، مثلما يجمعون « نُوناً » – وهو الحوت أيضاً – على « نينان »؛ وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل في يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم « السبت » ، ومازالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحداً منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ، ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالي . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . . . } [النساء : 160]
وفي هذه مُثُل وعِبَر لأي منحرف ، ولكل منحرف نقول : إياك أن تظن أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها ، لا؛ لأن ربنا قادر أن يبتيله بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتشي مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب فيضيع عليه كل شيء أخذه .
إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم .
وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة ، فحرم عليهم العمل في يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريباً من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم ، ويرون السمك في المياه وهو يرفع زعانفه كشراع المركب ، وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم في بيوتهم ، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويرون هذا السمك أمامهم في يوم السبت ، لكن في بقية الأيام التي يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة : { وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } .

وهنا قالوا : ما دام ربنا قد حرم علينا أن نصطاد يوم السبت فعلينا أن نحتال . وصنعوا كيساً من السلك المضفر والذي نسميه « الجوبية » وهم أول من صنعوا هذه الجوبية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتي السمك يوم السبت في الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد . وفي هذا اعتداء . أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفي هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ . . . }

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164)

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلابد أن هناك أناساً قيل لهم هذا القول . إذن ففيه « قوم واعظون » ، و « قوم موعوظون » ، و « قوم مستنكرون وعظ الواعظين » . وهكذا صاروا ثلاث فرق :

الذين قالوا وعظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله؟ هؤلاء هم المؤمنون حقًّا . وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصلحاء من أهل القرية الذين يئسوا من صلاح حال المخالفين للمنهج .

وحين ندقق في الآية : { وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ . . . } [الأعراف : 164]

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن وعظوا؛ لأنهم رأوا الوعظ مع الخارجين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تُحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك . وهنا قال بعض بني إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين في الكفر ، لماذا ترهقون أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون؟ : { قَالُواْ مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } .

وما هي المعذرة إلى الله؟ . يقال : « عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان في ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر في فعله ، كأن تقول : لقد جعلتني انتظرك طويلاً وتأخرت في ميعادك معي . انت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر في ميعادٍ ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت مني السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر . إذن فمعنى » العذر « هو إبداء سبب لأمر خالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أنذر ، والحق يقول : { وَجَآءَ المعذرون مِنَ الأعراب . . . } [التوبة : 90]

ونعلم أيضاً أن هناك مُعْذِراً . والمُعَذِّر هو من يأتي بعذر كاذب ، والمُعْذِر هو من يأتي بعذر صادق . وقال الواعظون : نحن نعظهم ، وأنتم حكمتم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكنا لم نيأس ، وعلى فرض أننا يئسنا من فعلهم ، فعلى الأقل قد قدمنا لربنا المعذرة في أننا عملنا على قدر طاقتنا .

وكلمة » وَعْظ « تقتضي أن نقول فيها : إن هناك فارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم؛ فالوعظ أن تكرر لموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله . كأن تقول لإنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها .

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت الوعَّاظ . وهم من يقولون للناس الأحكام التي يعرفونها ، ليعملوا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد .

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : { لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ } ليس مراداً به الفئة التي لم

تفعل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به الفئة الموعوظة ، كأن الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا؟ . ونقول : لا؛ لأن عجز الآية ينافي هذا . فالحق يقول : { مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } .

ومجيء » لعلهم « يؤكد أن هذا خبر عن الغير لا أنَّه من الموعوظين .

ويقول الحق بعد ذلك : { فَلَمَّاَ نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ . . . }

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165)

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاءً لخروجهم وفسوقهم عن المنهج وأنجى الله الفرقة الواعظة . وماذا عن الفرقة الثالثة التي لم تنضم إلى الواعظين أو الموعوظين؟ الذين قالوا : { لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ } إن قولهم هذا لون من الوعظ؛ فساعة يخوفونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : { فَلَمَّاَ نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ } يدل على أنه قد وعظهم غيرهم وذكروهم . ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا مَن وعظوهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد؛ فالمسألة ليست تعنتاً من الله؛ لأنهم السبب في هذا ، إما بفسق ، وإمّا بظلم للنفس .

ويقول الحق بعد ذلك : { فَلَمَّاَ عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ . . . }

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166)

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يزهق حياتهم ويميتهم؛ لأن العذاب هو إيلام من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهي الإحساس بالألم ، ولنتعرف على الفارق بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول سيدنا سليمان حين تنبه لغياب الهدهد عندما وجد مكانه خاليا : { مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَاْذْبَحَنَّهُ . . . } [النمل : 20-21]

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت . وهنا يقول الحق : { فَلَمَّاَ عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ } و « عتوا » تعني أبوا وعصوْا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذي أوضحه قول الحق : { كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ } .

لأن « العتو » كبرياء وإباء؛ فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات فصيرهم أشباه القرود ،

كل منهم مفضوح السوءة ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قردة؟ . نعم؛ لأنك حين تأمر إنساناً بفعل . . ألاَ تُقَدِّر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل؟ .
وحين يقول الله : { كُونُواْ قِرَدَةً } فهل في مكنتهم أن يصنعوا من أنفسهم قردة؟ . ونقول : إن هذا اسمه « أمر تسخيري » أي اصبحوا وصُيِّرِوا قردة . وقد رأوهم على هذه الهيئة من وعظوهم ، وهي هنا مقولة « خبر » نصدقه بتوثيق من قاله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمن شاهده .
ولذلك نجد المعجزات التي حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذي وصلنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبرونا بالخبر ، وكان ذلك آية تُثَبِّت يقينهم وإيمانهم . وتثبت لنا خبراً ، فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك؛ لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، وكل معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويذعن .
وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله : { كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ } بأنه أوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قردة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عمَّا نهوا عنه . والذين وعظوهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .
وهل الممسوخ يظل ممسوخاً؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالماً ، ثم بعد ذلك يموت وينتهي .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ . . . }

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167)

وتَأَذَّن نجد مادتها من الهمزة والذال والنون ، فمنه أُذُن ، ومنها أَذَان ، وكلها يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هي الأذن والسمع ، حتى الذي سنُعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » إلخ ، ثم تهجاها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل في المعلومات ، ونقول في القرآن : { إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } [الانشقاق : 1-2]
وأذنت لربها . . أي سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها : « انشقي » امتثلت وانشقت . { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأعراف : 167]

والكلام هنا بالنسبة لبني إسرائيل ، ويبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين في أن يفعلوا ، « فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال في نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ولماذا؟ .

لأنهم منسوبون لدين ، والله لا يسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله له رسولا . ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً؛ إذا فسد مع كون الناس ويعلمون عنه أنه تابع لنبي ، وأن له كتاباً ، حينئذ يكون أسوة سيئة في الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد لمن هو منسوب إلى الله . وعرفنا أن مادة أذن كلها مناط الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . . } [النحل : 78]

إنّ الحق – سبحانه – يسمي العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أي ليس عندهم شيء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لنا وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهي وسائل العلم التي تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها في أداء وظيفتها؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد –كما قلنا سابقاً – ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف؛ لأنه عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت في أذنه وصرخت انفعل .

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتي السمع ، ثم يأتي البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون للطفل مثلاً : إياك أن تقبل على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها ، فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أن لستعه النار مرة واحدة ، لم يعد في حاجة إلى أن يتكرر له القول : بأن النار محرقة .

فقد تكونت عنده معلومة عقلية . فأولاً يأتي السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتي الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } . تشكرون له سبحانه أن أمدكم بوسائل العلم ليخرجكم مِن أميتكم .

وهناك لفتة إعجازية أخرى؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار؛ لأن السمع هي الآلة التي تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففي طبيعة تكوينها حجاب لتغمض . وإذا أنت

أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمناط السمع واحد ، لكن في أي منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة في أن تراه ، فتفتح عينيك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مرائيها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك في أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختيار في أن ترى أو لا ترى ، وهذه الأمور رتبها لنا الحق في القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد في السمع ، وجمع في البصر مع أنهما في مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جاءت في القرآن : { . . . إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإِسراء : **36**]

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هي الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا في آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة : { رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . . } [السجدة : **12**]

هنا قدّم الحق مادة الإبصار على مادة السمع؛ لأن هول القيامة ساعة يأتي سنرى تغيراً في الكون قبل أن نسمع شيئاً . { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأعراف : **167**]

وتأذَّن أي أَعْلم الله إعلاماً مؤكداً بأنكم يا بني إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني النضير وبني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق : { وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً . . . } [الأنعام : **129**]

وكذلك مثلما حدث من بختنصر ، وهتلر . إذن { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ } أي أعلم ربك إعلاماً مؤكداً؛ لأن البشر قد يُعْلمون بشيء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكي يعملوا ما أعلموا به ، فإذا أعلمت أنت بشيء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أمّا الله – سبحانه – فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يُعْلم بالشيء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعده على أن ينفذ .

مثال ذلك : صحابة رسول الله الأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه؛ منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوي يحتمي به ، فينزل الله في هذه الظروف العصيبة آية قرآنية لرسول الله يقول فيها : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : **45**]

وتساءل البعض كيف يُهزمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أي جمع يُهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يثب في الدروع وهو يقول : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } ، فعرفت تأويلها يومئذ .
إن الله سبحانه وتعالى أَعْلَمَ بالنصر . وهو قادر على إنفاذ ما أعْلَم به على وفق ما أعَلم؛ لأنه لا يوجد إله آخر يصادمه . إذن { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ } يعني أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحيثية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه . { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة . . . } بالأعراف : 167]
أي يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلي بينه وبينهم ، فلا يمنعهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق : { أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً } [مريم : 83]
أي أنه – سبحانه – أرسلهم لهذه المهمة وخلّى بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة } .
وكلمة { إلى يَوْمِ القيامة } تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى في الكون كخميرة (عكننة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا؟!
هم يقومون بمهمة الشر في الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود في الوجود ، ويعضُّ الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهافت على الحق وعلى الخير . فالشر – إذن – جاء ليعضّ الناس بآلامه وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعتمل في صدور المسلمين وأقوى نزوع حركي إلى الإسلام حين يجدون مَن يضطهد قضية الإسلام .
إنَ مهمة الشر في الوجود أنه يجمع عناصر الخير في الوجود ومهمة الباطل في الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير . ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة . { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب .

. . } [الأعراف : 167]
(ويسوم) من مادتها سام ، ونسمعها في البهائم ونسميها السائمة وهي التي تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذي يجهز لها مقومات حياتها . أما البهائم التي تُرْبط وليست سائمة التي تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل « سام » أي طلب ، وبهيمة سائمة أي تطلب رزقها وأكلها بنفسها .
و « سام » أيضاً أي طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته في التعذيب . فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أي أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم

بتعذيبهم جهد طاقته ، فإذا فترت طاقته أو ضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره .
إذن فطلب العذاب معناه أنّه : عَذَّب هو ، ولم يكتف بأنه عذَّب بل طلب لهم عذاباً آخر ، و { يَسُومُهُمْ سواء العذاب } أي العذاب السيء الشديد . ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : { . . . إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأعراف : 167]
ومعنى سرعة الشيء أن تأخذه زمناً أقل مما يتوقع له؛ لن السرعة هي اختصار الزمن . { لَسَرِيعُ العقاب } هي للدنيا وللآخرة ، فساعة يقترفون ذنباً . يسلط عليهم من يعذبهم في الدنيا ، أما الآخرة ففيها سرعة عالية؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هي عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهي الدنيا بالنسبة له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » .
إن هناك سرعة لحساب الآخرة . وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهي الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أي إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا .
وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب { وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } قد نجد من يسأل كيف والحديث هنا عن العقاب؟ ونقول : إنه سبحانه الذي يتكلم . وهو القادر ، فإذا قال : أنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظّلَمَة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه – سبحانه – يأتي بالمقابل لكي يشجع كل إنسان على الدخول في رحمته .
ويقول سبحانه بعد ذلك : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض . . . }

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168)

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً : { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً . . . } [الأعراف : 160]
ولكن القول هنا يجيء لمعنى آخر : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك } .
وقد قطعهم الحق حتى لا يبقى لهم وطن ، ويعيشون في ذلة؛ لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم . وهنا يقول الحق : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً } .
ومعنى { وَقَطَّعْنَاهُمْ } أي أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتي في نفسها ، وأيضاً لا تشيع في المكان الذي تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون في المجتمعات أبداً ، – كما قلنا – فعندما

تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حيًّا خاصًّا ، كذلك فرنسا ، وألمانيا ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق بعد ذلك أن قال لهم : { ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . . . } [المائدة : **21**]

فبعد أن مَنَّ عليهم بأرض يقيمون فيها ، قالوا : { . . . إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } [المائدة : **24**]

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطنا واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم في الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط في دائرتهم التي يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن للدنيا كلها أن فسادهم فساد عام . ولذلك فهم إن اجتمعوا في مكان فلابد أن تتآلب عليهم القوى وتخرجهم مطرودين أو تعذبهم ، وأظن حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل في شرح قوله الحق : { وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . . } [الإسراء : **104**]

لقد قلنا : إن السكن في الأرض هو أن يتبعثروا فيها؛ لأنه – سبحانه – لم يحدد لهم مكانا يقيمون فيه ، فإذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضربة واحدة ، ويأتي الحق بهم لفيفاً تمهيداً للضربة القاصمة : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك } .

وهناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بنايةٍ للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالذي دخل منهم في الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم وما عليهم ، والحق قد قال : { وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف : **159**]

وقلنا إن هذه تسمى صيانة الاحتمال لمن يفكرون في الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك } . و « دون » أي غير ، فالمقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون في القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً . فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط .

ويتابع الحق سبحانه : { . . . وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الاعراف : **168**]

كلمة { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } هي التي جعلتنا نفهم أن قول الحق سبحانه وتعالى : أن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أي كافرون؛ لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق ب { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و « بلونا » أي اختبرنا؛ لأن لله في الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك

لأنه – سبحانه – عالِم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلي لا يُعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا : { وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات } . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أتغزنا الأسباب في الدنيا عن المُسبِّب الأعلى الذي وهبها : {كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7]

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها في مظان الخير لها . فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب في الاختبار . إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أي ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ } [الفجر : 15-16]

إننا نجد من يقول : { ربي أَكْرَمَنِ } . ومَن يقول : { ربي أَهَانَنِ } والحق يوضح : أنتما كاذبان . فليست النعمة دليل الإكرام ، ولا سلب النعمة دليل الإهانة . ولكن الإكرام ينشأ حين تستقبل النعمة بشكر ، وتستقبل النقمة بصبر . إذن مجيء النعمة في ذاتها ليس إلا اختبارا . وكذلك إن قَدَر الله عليك رزقك وضيقه عليك ، فهذا ليس للإهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

ويوضح الحق جل وعلا : {كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم * وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ المسكين * وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً * وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً } [الفجر : 17-20]

أنتم لا تطعمون في مالكم يتيماً ولا تحضون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة؟ إنه نقمة عليكم . وهنا يقول الحق : { وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } . ولله المثل الأعلى ، نقول : إن فلاناً أتعبني ، لقد قلبته على الجنبين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سخائي عليه نفع فيه ، ولا ضنى عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بني إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تأصل فيهم .

ويقول الحق بعد ذلك : { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ . . . }

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169)

والخَلَف أو الخَلْف أو الخليفة هو من يأتي بعد ذلك ، ويقال : فلان خليفة فلان ، ومن قبل قرأنا أن سيدنا موسى قال لسيدنا هارون : { اخلفني فِي قَوْمِي . . . } [الأعراف : 142]

أي كن خليفة لي ، إلا أنك حين تسمع « خَلْفٌ » بسكون اللام ، فاعلم أنه في الفساد ، وإن سمعتها « خَلَفٌ » بفتح اللام فاعلم أنه في الخير ، ولذلك حين تدعو لواحد تقول : اللهم اجعله

خير خَلَف لخير سلف . وهنا يقول الحق : { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ } . والحديث هنا عن أنهم هم الفاسدون والمفسدون ، والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب

الشاعر هنا يبكي موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان يعيش في رحاب كرمهم وسماحتهم؛ فقد ذهب الذين يُعاش في أكنافهم أي جوارهم؛ لأن هذا الجوار كان نعمة أيضاً . وحين يجاور رجل ضُيِّق وقُدِر عليه رزقه رجلاً طيباً عنده نعمة ، فتنضح عليه نعمة الرجل الطيب . والشاعر هنا قال : « وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب » أي أن جلده قريب ولاصق لكنه جلد أجرب .

وعرفنا قصة « أبودلف » وكان رجلاً كريماً في بغداد . يعيش في نعمته كل الناس ومن يحتاج يعطيه . وطرأ طارئ على جار فقير له ، وأراد أن يبيع داره ، فعرض الدار للبيع ، وسألوه عن الثمن الذي يرتضيه ، فقال : داري بمائة دينار . لكن جواري لأبي دلف بألف دينار ، فبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال : إن رجلاً قدر جوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لحقيق ألا يفرّط فيه . قالوا له : فليبق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال .

{ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب } . والكتاب هو التوراة ، والخَلْف أخذوه ميراثاً ، والشيء لا يكون ميراثاً إلا إذا حمله السابق بأمانة وأدّاه للاحق ، ولكن لأنهم أهل إفساد فلنر ماذا فعلوا في الكتاب؟ لقد ورثوه . وبُلِّغ إليهمُ وعرفوا ما فيه . { يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ . . . } [الأعراف : 169]

أي لا حجة لهم في ألاّ يكونوا أصحاب منهج خير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما في الكتاب – التوراة – من المواثيق ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا؛ لم يلتفتوا لكل هذا؛ لأنهم قالوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطي النعيم البعيد في الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ . وبذلك أخذوا عَرَضَ الحياة الأدنى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمنهج الله ، والدنيا فيها جواهر أو أعراض ، والجوهر هو الشيء الذاتي ، فالإنسان بشحمه ولحمه « جوهر » أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا عَرَض ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وغنيًّا أو فقيراً فهذا عرض .

إذن فالأعراض هي ما توجد وتزول ، والجواهر هي التي تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق : الجوهر ما قام بنفسه ، والعَرَض ما قام بغيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل في المال الحرام ، وأن يغشوا ويستحلوا الرشوة . ونعلم أن الإنسان – حتى المؤمن – قد تحدث منه معصية ولا يمنع ربنا هذا؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذْنٌ بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق : {

والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا . . . } [المائدة : 38]
إنَّ معنى هذا القول أن المؤمن قد تسول له نفسه أَنْ يسرق مثلاً ، ولم يترك الحق هذا الجرم بدون عقوبة . وإن رأينا مسلماً يسرق ، نقل له هذا فعل مُجَرَّم من الإسلام ، وله عقوبة ، والمُجْرَم لا يمكن أن يرتكب الجُرْم وهو ملتزم بالدِّين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنباً أو معصية ثم يندم ويتوب ويعزم على أنه لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو ألحَّت عليه معصيته فيعود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه في كل مرة لا يصر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب . وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سبغفر الله لنا ، بل إنهم لم يفكروا في التوبة ، ووجدنا منهم من يقول : { نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ . . . } [المائدة : 18]
ويأتي الرد : { قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ . . . } [المائدة : 18]
إذن هم يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويحكمون في أخذهم بهذا العرض أنه سبحانه سوف يَغْفِر لهم . وبذلك استحلوا الحرام وانتقلوا من منطقة المعصية إلى منطقة الكفر؛ لأن هناك فرقاً بين أن تفعل الشيء وتقول هو معصية . لكن أن يرتكب الإنسان المعصية ويقول : ليست بمعصية ، فهذا انتقال من العصيان إلى الكفر ، ومثال ذلك الربا حين نجد من يحلله ، نقول له : اقْبَلْ أن تكون عاصيًّا ولا تدخل نفسك في الكفر؛ لأنك إن حللت ما حرم الله يقع عليك الكفر وتوصف به والعياذ بالله ، أما إن قلت : هو حرام ولكن ظروفي صعبة ولا أقدر على نفسي فقد يغفر الله لك . لكن قوم موسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا :
ويقول الحق : { وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ } .
وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرض الحياة الأدنى ويتمادون في غيهم ويرتكبون المعاصي تلو المعاصي دون أن يدقوا باب التوبة . لذلك ينبههم الحق سبحانه : { أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الكتاب أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق . . . } [الأعراف : 169]
لقد ورثوا الكتاب ، وفي الكتاب قد أُخذ عليهم عهدٌ موثقٌ ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما في هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق : { وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ }
وكلمة « دَرَسَ » تدل على تكرار العمل ، فيقال : « فلان درس الفقه » أي تعلمه تعلما متواصلاً ليصير الفقه عنده ملكة .

وهو مختلف عمن قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصبح الفقه عنده ملكة . وحتى نفهم الفرق بين « العلم » و « الملكة » ، نقول : إن العلم هو تلقي المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آلية ، فهذا هو من امتلك ناصية العلم حتى صار العلم عنده ملكة .

إذا التقى صائم – مثلا – بفقيه وسأله عن فتوى في أمر الصيام يجيبه فوراً؛ لأنه علم كل صغيرة وكبيرة في الفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئاً في الأزهر فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليعثر على الإجابة؛ لأن الفقه لم يصبح لديه ملكه . والملكة في المعنويات هي مقابل الآلية في الماديات التي تحتاج إلى دُرْبة ، فمن يمسك النول لينسج النسيج ويتقن تمرير المكوك بين الفتلتين لا يفعل ذلك إلا عن دُرْبة . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

إذن فقوله : { وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ } اي تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا ما فيه من علم . ونحن أخذنا « درس العلم » من مسألة حسية هي « درس القمح » ، ويعلم من تربى في الريف كيف ندرس القمح ، حين يدور النورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى « درس القمح » .

إن ما فعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق في ألاّ يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما في الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتي بمقابل العرض الأدنى فيوضح لنا أنّ مصير من يريد الدار الآخرة هو الثواب الدائم ولذلك يقول الحق : { . . . والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الأعراف : 169]

وهذا يعني التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير ، وأن تتركوه إن كان يعطي الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تَزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح .

ويقول الحق بعد ذلك : { والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب . . . }

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

إنّ الكثير من بني إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرض الأدنى ، ولم يزنوا الأمور بعقولهم؛ لذلك لم يتمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هواهم؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل كذَا ولا تفعل كذَا ، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذي ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق؛ فالذي يجعل الانسان متصلاً بالشيء هو ماسكه ، وتقول : « مسَكَ » وتقول : « مَسَّكَ » ، و « أمسك » ، وتقول « استمسك » ، و « تماسك » ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : « يمسِّكون » مبالغة في المسك ، كُل قطع وقطَّع ، ولكن قطَّع أبلغ .

و (مسَّك) يعني أن الماسك تمكن مما يمسك ، و (استمسك) أي طلب ، و (تماسك) أي أنّ هناك تفاعلاًً بين الاثنين؛ بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك

الكتاب . بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملت إلى القرب مني والزلفإليّ ، فاترك الباقي عنك فالمعونة منّي أنا ، ولذلك يدلنا على أن من ينفذ منهج القرآن لا يلقى الهوان أبدا { فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى لاَ انفصام لَهَا } وهنا يستخدم الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسَك ، فمن وجه نيته في أن يفعل يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إليَّ بشبر ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة . »

فأنت بإيمانك بالله تعزز نفسك وتقويها بمعونه الله لك . فإن أردت أن يذكرك الله فاذكر الله؛ فإن ذكرته في نفسك يذكرك في نفسه ، وإن ذكرته في ملأ يذكرك في ملأ خير منه ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، فماذا تريد أكثر من ذلك ، خاصة أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن فالموقف في يدك ، فإذا أردت أن يكون الله معك فسر في طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به .

ولذلك قلنا من قبل : إن الانسان إذا أراد أن يلقى عظيماً من عظماء الدنيا وفي يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما ألاّ يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير مكتبه عن الموضوعات التي ستتكلم فيها ، وحين تقابله وينتهي الوقت ، فهو يقف من كرسيه لينهي المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم الأعظم الأعلى الذي تلتقي به في الإيمان؟ أنت تلقى الله في أي وقت ، وفي أي مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذي تنهي المقابلة ، ألا يكفي كل ذلك لتستمسك بالإيمان؟ .

{ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين } [الأعراف : 170]

والكتاب هنا هو الكتاب الموروث ، والمقصود به التوراة وهو الذي درسوا ما فيه ، وقد أخذ الله في هذا الكتاب الميثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا : { وَأَقَامُواْ الصلاة } فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإسلام – غير الصلاة – قد فرضت بالوحي .

لقد قلنا من قبل ولله المثل الأعلى ، إن رئيس أي مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً رُوتينياً ، فهو يوقع الورق الذي يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : « يعرض على فلان » ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ، فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية في

الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم للولاء لله خمس مرات في اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك تنفلا وتهجداً فعلت .

إنك بالصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالي الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم في شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة في العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية؛ لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإسلام -كما نعلم - خمسة؛ شهادة أن لا إله إلا اله وأن محمداً . رسول الله ، إنها الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تنفصل ، ويكفي أن ينطقها الإنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتي أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان مال يخرج عنه الزكاة؛ فلا يجب عليه إخراج شيء حينئذ ، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم .

إذن فبعض فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهي لا تسقط أبداً؛ لأن في الصلاة في ظاهر الأمر قطعا لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف ساعة ، فالإنسان يقتطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم في أداء الصلاة .

والوقت عزيز عند الإنسان . ففي الصلاة بذل لبعض الوقت الذي يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالاً ، وفيها أيضا الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات ، ففيها كل مقومات أركان الإسلام ، لذا فهي لا تسقط أبدا . { والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة . . . } [الأعراف : **170**]

إذن الاستمساك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمساك بمنهج الإيمان .

ولذلك نسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسي والإشراق الروحي ، وعشنا مع التجلّي والنور الذي يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، وساعة كنت تسمع الأذان كنت تجري وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كاحد المصلحين . لأنه القائل : { إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين } .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وقوله : { إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين } بعد قوله : { يُمَسِّكُونَ بالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة } دليل على أن أي إصلاح في المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استدمت أنت صلتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذ نَتَقْنَا الجبل . . . }

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)

والجبل معروف أنه من الأحجار المندمجة في بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : { والجبال أَرْسَاهَا } ولا يقال أرساها إلا إذا كان وجد شيء له ثقل ، فأنت لا تقول : « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول : « أرسيت لوح الزجاج عللمكتب ليحميه » ، وأنت بذلك ترسي شيئاً له وزن وثقل .

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها في الأرض أوتادا ، والوَتِد – كما نعلم – ممسوك من الموتود والمثبت فيه ، بدليل أنه لو تخلخل في مكانه نضع له ما نسميه « تخشينة » لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه ، وهنا يقول الحق : { وَإِذ نَتَقْنَا الجبل } « نتقنا » أي قلعنا ، وهناك قول آخر : { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادخلوا الباب سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السبت . . . } [النساء : 154]

وقال الحق أيضا : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور . . . } [البقرة : 63]

وهنا اختلاف بين « نتق » و « رفع »؛ لأن الجبل راسٍ في الأرض ، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض ، ثم يأتي من بعد ذلك الرفع ، و « نتقا » تعني نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه ، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم ، أي أن هناكَ ثلاث عمليات : نتق أي نزع وخلع ، ثم رفع ، ثم جعله سبحانه ظلة لهم ، وهذا يحتاج إلى اتجاه في المرفوع إلى جهة ما . والحق يقول : « وإذ » أي اذكر إذ نتقنا الجبل ، أي نزعناه وخلعناه من الأرض ، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أي نجعله ظلة ، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل ، وصار الجبل ظلة « عذاب »؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له : إن أحكام هذه التوراة شديدة . وللإنسان أن يتساءل : لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التي جاءت لمصلحة البشر؟ . وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم { كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ } .

لذلك نجد أن كل يهودي يسجد على حاجبه الأيسر ، على الرغم من أن السجود يقتضي تساوي وضع الجبهة على الأرض ، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأوا الجبل فوقهم وتملكهم الخوف من سقوط الجبل ، وكانوا يسجدون وفي الوقت نفسه يرقبون الجبل ، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم ، وصاروا لا يسجدون إلا على حاجبهم الأيسر ، بسبب حكاية الجبل الذي نتقه الله وقلعه فصار فوقهم . { وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ } .

والظن هو رجحان قضية ، وقد يأتي ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين ، مثل قوله الحق : { الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ }

وحين بقيت الحالة هذه ، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم ، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويتمردون على ما فيه؛ لذلك قال لهم الحق : { .

. . خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأعراف : **171**]

و « خذوا » فعل أمر ، والأمر يقتضي آمرا ، ولابد له من شيء يأمر به . وكلمة « القوة » هذه هي الطاقة الفاعلة ، والأصل في الكون كله أن نقبل على كل شيء بقوة؛ لأن الكون الذي تراه مسخراً ليس له رأي في أن يفعل أو لا يفعل ، بل هو فاعل دائما إذا أُمِر ، وكما قلنا من قبل : لم تغضب الشمس على الناس وقالت : لن أطلع هذا اليوم ، وكذلك لم يمتنع الهواء ، وأيضاً لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث ، أو أن ينظفه صاحبه ويأتي له ب « البردعة » ليجعله ركوبة متميزة ، الحمار إذن لا يعصي هنا ولا يعصي هناك ، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة . { لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : **40**]

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف ، والمحكوم بالغريزة الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلي ، ومع هذا الاختيار فالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يَدْرِي عنها شيئاً مع أن بها قوام حياته ، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : دق ، والرئة كذلك وحركة التنفس ، والحركة الدودية في الأمعاء ، والحالب ، ويرغب الإنسان في دخول دورة المياه عندما تمتلئ المثانة بالبول ، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبدا ، والأمور المحكومة بالغرائز ليس لنا فيها اختيار ، كأن يأكل الإنسان ويتكلم في أثناء تناول الطعام فتتنزل حبة أرز في القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال ، هذا اسمه « غريزة » أي أمر غير محكوم بالفعل الاختياري .

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاما فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه . أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع ، وحين يقول له مُضيفه – على سبيل المثال – : أنت لم تذق هذا اللون من اللحم ، فيأكل . ولهذا نجد أن الأمراض في الانسان أكثر من الأمراض في الحيوان؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضر به وتؤذيه .

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان ، نجد الإنسان يغلي النعناع ويشربه ، ويطبخ الملوخية ليأكلها ، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين ، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية ، رغم تشابه أوراقهما . لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار ، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار ، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب ، وهما يفعلان ذلك بالغريزة ، فالمحكوم بالغريزة له نظام ، ولو كان الحيوان مختارا لارْتَبَكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها .

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة ، وهذه القوانين موجودة في الكون لتخدمنا نحن بني البشر . فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن ننتفع بها ، لكن بعد ذلك انتفعنا بها ، وكذلك الجاذبية ، كانت موجودة في الكون منذ الأزل ، لكنا لم ننتبه لها ، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها ، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون ، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار في بعض الأمور ، وله جهة قهر في البعض الآخر ، فهو يشارك الكون في القهر ، ويتميز عن بقية المخلوقات – عدا الجن – بالاختيار في أمور أخرى . ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذي يعاني قلبه من ضعف ما ، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً ينهج ويتتابع نَفَسه من الإعياء وكثرة الحركة ، لأنّ غريزته المحكوم بها تُنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطي الأوكسجين الذي يساعد على الصعود .

ومثال آخر ، نجد الذكر في الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها ، فإن وجدها حاملاً لا يقربها ، والحيوان في هذا الأمر مختلف عن الإنسان؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التي تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع ، ومادامت الأنثى قد حملت ، فالذكر لا يقربها ، فاختلف الإنسان عن الحيوان في هذا الأمر؛ فلذة الإنسان في الجنس أعلى من لذة الحيوان؛ لأنها في الحيوان ترضخ للغريزة فحسب ، أما في الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضا للاختيار الذي منحه الله للإنسان .

ومن رحمة الله – إذن – أن يكون الإنسان مقهوراً في بعض الأشياء ومختاراً في أشياء أخرى ، ب « افعل » و « لا تفعل » حتى يختار بين البديلات .

وهنا يقول الحق : { خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّة }

أي خذوا ما آتاكم في الكتاب بجد واجتهاد . وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم في شرح معنى القوة . وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقعه المادي ، فصرنا نرى الطاقة التي تعطي القوة . وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية ، القانون الأول والثاني والثالث ، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه ، فإن كان ساكناً يبق على سكونه إلى أن يأتي محرك يحركه . وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسكه ماسك . وسمّى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتي . أو التعطل ، أي أن الساكن يُعَطّلُ عن الحركة إلا أن يحركه محرك ، والمتحرك يُعَطّلُ عن السكون إلا أن يوقفه موقف ، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير ، فإنك تظل ساكناً ، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشيء .

وفي الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتي بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس ، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً ، ثم يحرك المفرش بخفة لينزعه بهدوء من تحت

الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش .

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة ، وقلنا : إنّ العطالة تعني أن الساكن يتعطل عن الحركة ، والمتحرك يتعطل عن السكون ، وهذه هي القضية المادية في الكون التي خدمت العلم الفضائي الخاص بسفن الفضاء والصواريخ . ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور في الفضاء بالوقود ، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذي يسيرها لسنوات ، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة إنّها بدون وقود ، وهي تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكوني ، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف . ونرى ذلك في التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدها ، وهي تقع بعد مسافة معينة؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف ، أما في الفضاء الخارجي فليس هناك هواء؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء ، لأنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة .

وهذه السفن الفضائية تعتمد في صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجي . والصواريخ تسير بالغاز المتفلت الذي أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن ، وهو القانون القائل : إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاد له في الاتجاه ، وحين يسخن هذا الغاز المتفلت يخرج من خلف الصاروخ بقوة فيندفع الصاروخ للأمام .

وهكذا نرى قول الحق : { خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ } في الواقع المادي والواقع القيمي . وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين في بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها ، فالواحد منهم لا يصلي ، ولا يزكي ، ولا يقول كلمة معروف ، وهو في ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله . ونجد أيضا من غير المتدينين من يشرب خمرة . أو يزني أو يسرق أو يرتشي . وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده عن مثل هذه الحركة . ولذلك نقول : إن الإنسان في أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير ، وإن كان متحركا إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه ، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيماني في « افعل » ، و « لا تفعل » . فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صلّ . ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه ، إذن فالقوة الشرعية تكون في المنهج ب « افعل » ليحرك الساكن ، و « لا تفعل » ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة في ضوء المنهج .

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستغلق علينا في قوانين الكون ، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمناها نحن في إطار الماديات والمعنويات ، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين في الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم ، بل علينا أن نشحذ الهمم لنتقدم

في العلم الذي يُسير أمور الحياة ، ولنعلم أنه لا شيء ينشيء فينا فطرة جديدة؛ لأن البشر من قديم مفطورون على الفطرة السليمة التي تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً ، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد . بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وارء المادة تأكد لهم ذلك ، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين ، وهم ببحثهم وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شيء لا يظن وجوده . ولأنهم جميعا يعلمون أن الإنسان طرأ على كون ، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة ، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعا أن تأتي بمثلها ، إذن لابد لهذا الكون من الخالق .

لقد بيّنا أن القوانين التي تظهر لنا في المادة تتماثل مع قوانين القيم ، إلا أن الناس يتهافتون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شرا ، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم ، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التي تحقق له السعادة العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة ، أما قوانين المادة في الأرض فتركها الله لنشاط العقل ، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها ، ويتهربون من قوانين القيم لأنها تحد من شهوات النفس ، وتتعب بمشقة التكليف ، فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يقول فيها : { . . . خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأعراف : **171**]

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطي من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم في الفعل ورد الفعل ، لنفهم أن كل حركة للشر قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها ، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له في الحركة ومضاداً له في الاتجاه ، فإن كنت ترتاح في هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذي يأتيك بالعقاب عليه ، وكذلك مشقات التكليف ، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : {كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأيام الخالية } [الحاقة : **24**]

وفي هذا القول فعل ورد فعل ، الفعل هو العمل الصالح في الأيام التي مضت ، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنيء في الآخرة . ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً . . . } [التوبة : **82**]

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل .

ويأتي الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : **49**]

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فلسوف تتلقى العقاب . ولذلك يقول لنا

الحق عن المنهج : { واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } . وإياكم أن تطرأ عليكم الغفلة من هذه الناحية ، فالذي يتعب الناس في مناهج الله أنهم يغفلون عنها؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء ، والمعاصي تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل في هذه القيم .

ونعلم أن الذِّكْر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأنا أعظ من عَلِمَ الحكم؛ لأني أريد أن يفعله ، فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الوَاعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاءنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل في تطبيق هذا العلم . ونظل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . . } [آل عمران : **110**]

ولماذا هذا التذكير؟ . يجيب الحق : { تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . } [آل عمران : **110**]

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهي عن المنكر عظة قولية ، ويعددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول في الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » .

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهي وهو قول أيضاً إلى أن نباشرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين المعلومة التي تدخل الذهن ، وحمل النفس على مطلوب المعلومة . ولذلك نحن ندرس الدين في مدارسنا ، وندرس فيها أيضا الجبر والهندسة ، والكيمياء والطبيعة ، والمتعب ليس تدريس الدين ، بل الذي يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين . لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء ، فهذه علوم تعطي الإنسان خير الدنيا فيذهب لها ، لكن مسألة الدين مسألة قيم؛ لذلك لا يكفي أن نعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم ، وتنفيذ هذه المسألة يكون بالتطبيق في سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة .

وهب أن الذي يُعلم الدين يدرسه معلومة ويدخلها في نفوس التلاميذ ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نضحاً على سلوك مَن علّمها ، ماذا يكون الموقف؟ . هنا تضعف ثقة التلميذ في أستاذة ، وتضعف ثقته في الدين؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال ، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه ، وفي هذا فشل في تعليم منهج الدين ، والخطأ إذن أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية ، لا .

إن تعليم الدين يقتضي تنفيذ ما فيه من معلومات ، عكس العلوم الأخرى التي تعطي المعلومة فقط . وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها في حياته انتفع ، وإن لم يرد فهو حر في ذلك .

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر ، ومرة يكون بالفعل ، « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه » وماذا يعني التغيير باللسان؟ . يعني أن الإنسان إن كان عنده حسن تأد واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح فله أن يقبل على تناول العظة . وليس كل إنسان صالحا لأن ينصح؛ لأن المنصوح يخالف المنهج ، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج ، إنه يخرجه عما ألف وأحب ، لذلك يجب أن يتلطف الناصح في النصح . ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء ، والدواء قديماً كان كله مرًّا . وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة ، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء . وحين ارتقت صناعة الدواء ، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب المرارة . ليتلطفوا مع مريض الجسم ، فما بالنا بمريض القيم؟ . إنه يحتاج إلى المسألة نفسها . لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً ، ولا نجمع على المنصوح بين أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب ، ولذلك قلنا : إن النصح ثقيل ، لأنك حين تنصح إنسانا فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه ، وهو أقل منك في ذلك ، وهذا هو أول مطب ، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه . ولهذا قالوا في الأثر : النصح ثقيل فلا ترسله جبلا ، ولا تجعله جدلاً . وقيل أيضا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان . هكذا يكون التذكير ، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر ، وهذا لا يأتي إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغيَّر يثبت فيها المغيِّر أنه يحب مصلحة المغيَّر . وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول . كأن تكون أباه أو أمه ، والأب والأم يقومان برعاية الابن ، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً . وكل منهما هو المتولي لمصالح الابن . وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح ، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب . فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه ، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئاً من المعروف فيتحمل منك النصح .

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة ، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن . ثم تأتي له بالساعة وتقول له : يا ولد أنت أردت مني ساعة وأحضرتها لك ، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لي إنك غير مهتم بدروسك ، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة .

وقد توجه له توبيخاً فيضحك لأنك قد حننت قلبه ، وبينت له أنك تحبه فيقبل النصح ، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته . إذن للتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول ،

وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب .

{ واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } والأصل في التقوى أن تتقي شيئاً بشيء؛ تتقي مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه ، وهي تأتي كما علمنا في المتقابلات؛ فالحق سبحانه يقول : { واتقوا النار التي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } [آل عمران : 131]

وهو سبحانه وتعالى يقول : { . . . واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [البقرة : 189] [آل عمران : 130]

ونجد من يتساءل : كيف يقول : « اتقوا الله » ، « واتقوا النار »؟

نقول : نعم؛ لأن اتقوا الله تعني اتقوا غضب الله عليكم ، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية ، ولابد أن تجعل بينك وبين النار وقاية؛ لأن الحق سبحانه وتعالىَ كما علمنا لَه صفات جلال وصفات جمال ، وصفات الجمال هي التي تسعد الإنسان ككونه – سبحانه – « غفوراً » ، و « رحيماً » ، « باسطاً » ، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه – سبحانه – فله صفات جلال تعطيك الرهبة ، فهو – جل شأنه – جبار منتقم . فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التي منها جبار منتقم .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن . . . }

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172)

وإذ تنصرف إلى الزمن ، أي اذكر وقت أن أخذ الله من بني آدم ، والآخذ هو الله ، والمأخوذ منه بنو آدم ، والشيء المأخوذ هو ذريتهم ، هذه هي العناصر . ولنتأمل ذلك بدقة ، إن الرب هنا هو الآخذ ، وبنو آدم مأخوذ منهم ، والمأخوذ هو الذرية . وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة ، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه ، ولابد أن نرى تصريفاً في هذا النص؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً ، والمأخوذ بعضه .

والمثال : إن أنا أخذتُ منك شيئاً ، فالمأخوذ منه هو الكل ، والمأخوذ بنفسه هوالبعض . لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه ، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه :

« لما خلق الله أدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم ، فقال : أيْ رَبَّ . من هؤلاء؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأى رجلاً منهم . فأعجبه وميض ما بين عينيه . فقال : أي رب . من هذا؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك ، يقال له داود ، فقال : رب كم جعلت عمره؟ قال : ستين سنة . قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة ، فلما قُضي عُمُر آدم جاءه ملك

الموت . فقال : أو لم يَبْقَ من عُمُري أربعون سنة؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود؟ قال : فجحد آدمُ فجحدتْ ذُريته ، ونسي فنسيت ذريته . وخطئ آدم فخطئت ذريته »
إذن ذرية آدم أُخذت من ظهر آدم . وعرفنا من قبل أنّ كُلاً منا قبلَ أن تحملَ به أمّه كان ذَرَّةً في ظهر أبيه ، وأبوه كان ذرّة في ظهر أبيه حتى آدم . وهكذا نجد أنَّ كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية ، هناك أناس يؤخذون –كذرية – ولا يؤخذ منهم ، مثّل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً ، وكذلك آخرُ جيل تقومُ عليه الساعة ، ولن ينجبوا . وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق ، وهو غير مأخوذ من أحد . وما بين الأب آدم وآخر ولد؛ مأخوذ ومأخوذ منه . وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه ، وهكذا يستقيم المعنى .
والمأخوذ منه آدم ثم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجيل الأخير الذي سينقطع عن النسل .
وأوضح النبي صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهر آدم وأخرج منه الذرية ، وقال لهم : ألست بربكم؟ قالوا : بلى . وبهذا عَلمْنا أنَّ كل ذرّة من الذرات قد أُخذت مما قبلها ، وأُخذ منها ما بعدها؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه ، اللهم إلا القوسين؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شيء ، والقوس الثاني : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه؛ لأن الإنسان منا وُجد من حيوان أبيه المنويّ .

ولو أن الحيوانَ المَنَويَّ أصابه موت لما أنجب الأب . ومن وُلد من حيوان مَنوِيَّ لأب ، هذا الأب مأخَوذ من حيوان مَنَوِيَّ حيّ من الجد أيضاً ، وسلسلها إلى آدم؛ ستجد أن كل واحد منا فيه جزيء حَيّ من لدن آدم لن يدركه موت أبداً .
لذلك يقول ربنا : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ . . . } [الأعراف : 172]
ولا تقل إن الكل سيكون في ظهره؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود في ظهره ، ومادام كل شيء يتكاثر فهو قد وجد من أقل شيءٍ ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً . وقد أخذ ربنا من ظهور بني آدم الذرية وخاطب الذرية بقوله تعالى : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } ؟ .
وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على النطق؛ إنما ذرية تنتظر التكوين الآخر؛ لتتحد مثلاً ب « البويضة » في رحم الأم؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمرُ صعب؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يتعلّم عَشْرَ لغاتٍ ، ويتزوجَ من أربع سيدات ، وكل سيدة ينجب منها ذرية ، ويقعد يوماً عند سيدة وذريتها ويعلمهَا اللغة الإنجليزية مثلا ، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية ، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية وهكذا ، بل يستطيع أن يتفاهم حتى بالإشارة معَ من لا يعرف لغته ، وإذا كان الإنسانُ يستطيع أن يعدد وسائل الأداء ، ألاَ يقدر أن يعدد وسائل الأداء لمخلوقاته؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب ، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال : { ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ . . . } [سبأ : 10]

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أياًّ من مخلوقاته؟ . إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر . وهو القائل سبحانه : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ . . . } [الأنبياء : **79**]

ونعلم أن القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود ، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . } [الإسراء : **44**]

وحتى ذرات يد الكافر تسبح ، وإن كان تسبيحها لا يوافق إرادته .

وقول الحق سبحانه : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ }

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسبيح داوود وتلاوته للزبور ، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق ، فنحن – على سبيل المثال – نقرأ في القرآن الكريم أن ربنا اوحى إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً من الشجر ومما يعرشون . إذن فلله مع خلقه أدوات خطاب؛ لأنه هو الذي خلق الكون والمخلوقات ، وله سبحانه خطاب بألفاظ ، وخطاب إشارات ، وخطاب بإلهام ، وخطاب بوحي ، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لذرية آدم : ألست بربكم؟ فهذا يعني أنه قالها لهم باللغة التي يفهمونها ، لأنه هو سبحانه الذي قال للسماء والأرض :

{ . . . ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ } [فصلت : **11**]

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها ، ولو لَمْ يُعْلِم اللهُ سليمانَ كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت : { قَالَتْ نَمْلَةٌ يأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ . . . } [النمل : **18**]

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها ، ولكن سليمان نبي من أنبياء الله ، ولن يعتدي على خلق الله ، والنملة التي تكلمت كانت تحرس بقية النمل .

وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها .

إذن فالله عز وجل يخاطب جميعَ خلقه ، ويجيبُه جميعُ خلقه ، فلا تقل : كيف خاطب المولى سبحانه الذر ، والذَر لم يكن مكلفاً بعد؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا في هذه المسألة؛ لأنها في ظاهرها بعيدة عن العقل ، ويكفي أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلا : ألست بربكم؟ . قالوا : بلىَ . ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للفطرة المودعة في النفس البشرية . وكأنه سبحانه قد أودع في النفس البشرية والذات الإنسانية فطرةً تؤكد له أنَّ وراءَ هذا الكونِ إلهاً خالقاً قادرا مدبرا .

وقديماً قلنا : هب أنَّ طائرةً وقعت في صحراء ، وحين أفقت من إغماءة الخوف؛ فكرّت في حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً ، وأصابك غمٌّ من هذه الحالة فنمت ، ثم

استيقظت فوجدت مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، ألا تتلفت لتسأل من الذي أقام لك هذه المأدبة قبل أن تمد يدك إلى أطايب الطعام؟ . كذلك الإنسان الذي طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع؛ البديع التكوين؛ ألا يجدرُ بهِ أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون؟ .

إننا نعلم أن المصباح الكهربي احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة ، وحين نرى الشمس تنير الكون كله ، ولا يصيبها كللٌ أو تعبٌ ولا تحتاج منا إلى صيانة ، ألا نسأل من صنعها؟ وخصوصاً أنَّ أحداً لم يدَّع أنه قد صنعها ، وقد أبلغنا المولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذي خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر ، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً؛ فنعبده ، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عمن صنع وخلق الكون لنعبده .

وبما أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه صناعة هذه الكائنات ، فهي تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله . إذن فالفطرة تهدينا أن وراء هذا الكون العظيم قدرةً تناسب هذه العظمة؛ قدرة تناسب الدقة؛ هذه الدقة التي أخذنا منها موازين لوقتنا؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن؛ ولولا حركة الأفلاك التي تنظم الليل والنهار؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات ، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية؛ لما استطعنا أن نَعُدَّها مقياساً للزمن .

وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5] نجد أن كلمة « بحسبان » وردت مرتين ، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى : أنه جعل الشمس والقمر بحسبان ، أو حسبانا ، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثا بل لحكمة عظيمة . { لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب . . . } [يونس : 5] فقد أخذنا من دورة الشمس والقمر مقياساً ، ولم نكن لنفعل ذلك إلا أن كانت مخلوقة بحساب؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة والإحكام لهذا يجب أن نلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته . لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أنَّ هناك قوةً ولا يعرف العقل اسم هذه القوة ، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة ، وكان لابد أن يأتي لنا رسولٌ من طرف تلك القوة ليقول لنا مرادَها ، وجاء الموكب الرسالي فجاءت الرسل ليبلغ كلُّ رسولٍ مرادَ الحق من الخلق ، فقال كلُّ رسول : إن اسم القوة التي خلقتكم هو الله ، وله مطلق التصرف في هذا الكون ، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون في ضوء منهج عبادة الحق الذي خلق الإنسان والكون . وكل هذه الأمور ما كانت لتدرك بالعقل .

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمانٌ بقوةٍ خالقه وراءَ هذا الكون ، وتستوي العقول الفطرية في هذه المسألة . أما اسم القوة والمنهج المطلوب لهذا الاله فلابد له من رسول .

وأرهق الفلاسفة أنفسهم في البحث عن هذه القوة ومرادها . وسموها مجال البحث « الميتافيزيقا » أي « ماوراء الطبيعة » وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان : ومن الذين قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟ .

وغالباً ما يقول الفيلسوف منهم : إنها الفطرة التي هدتني إلى ذلك . وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة . وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة ، وهذا هو الخلل؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة ، ولا يمكن له أن يتصورها . وغرق الكثيرون من الفلاسفة في القلق النفسي المدمَّر . وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان . وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلّوا لنا هذا اللغز ، بدلاً من إرهاق النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة ، وبين تصور هذه القوة .

وإنني في هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو آلا تنسوه أبداً : إننا إذا كنا قاعدين في حجرة ، والحجرة مغلقة الأبواب . ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالباب؛ وهذا الشيء المجمع عليه من الكل يَعدُّ تعقلاً ، لكن أنستطيع أن نتصور من الطارق؟ رجل؟ امرأة؟ شاب؟ شيخ؟ .

المؤكد أننا سنختلف في التصور وإن اتحدنا في التعقل .

ونقول للفلاسفة : أنتم أولى الناس بأن ترهفوا آذانكم لمجيء رسول يحل لكم لغز هذا الكون ، واسم القوة التي وراء هذا الكون ، ومطلوب هذه القوة منا .

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل ، ويقول هنا : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ . . . } [الأعراف : 172]

وهذه شهادة الفطرة ، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة في الطفل المولود الذي يبحث بفمه عن ثدي أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدي ليرضع بالفطرة وبالغريزة ، وهذه الفطرة هي التي تصون الإنسان منا في حاجات كثيرة ، وفي رد فعل الانعكاسي؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل ، فيغمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك .

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن في عالم الذر : { وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ }

ويقال « أشهدته » أي جعلته شاهداً ، والشهادة على النفس لَوْنٌ من الإقرار ، والإقرار سيد الأدلة؛ لأنك حين تُشهد إنساناً على غيره؛ فقد يغيّر الشاهد شهادته ، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة : { إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ }

فحين يأتي يوم الحساب ، لا داعي أو يقولَن أحد إنني كنت غافلاً .
ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله : { أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا . . . }

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173)

كأن الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فينبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة في كل إنسان؛ حيث شهد كل كائن بأنه إلهٌ واحدٌ أحَدٌ ، ويذكرنا سبحانه بهذا العهد الفطري قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا .
{ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى } وهل كان أحد من الذر وهو في علم الله وإرادته وقدرته يجرؤ على أن يقول : لا لست ربي؟ . طبعاً هذا مستحيل ، وأجاب كل الذر بالفطرة « بلى » . وهي تحمل نفي النفي ، ونفي النفي إثبات مثل قوله الحق : { أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين } [التين : 8] و « أليس » للاستفهام عن النفي؛ ولذلك يقال لنا : حين تسمع « أليس » عليك أن تقول « بلى » وبذلك تنفي النفي أي أثبتّ أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غيره سبحانه ، وهنا يقول الحق : « ألست بربكم »؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا . ولماذا كل ذلك؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب ، والذي جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرُّك شهواتهم في نطاق الاختيار ، ومع وجود الشهوات في نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم؟ يقولون : الله ، ومادام هو الذي خلقهم فهو ربهم . { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله . . . } [العنكبوت : 61]
وجاء الحق بقصة هذه الشهادة حتى لا يقولَنَّ أحدُ : { إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ }
وبذلك نعلم أن أعذار العاصين وأعذار الكافرين التي يتعللون ويعتذرون بها تنحصر في أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر ، وتقليد الآباء .
وما الغفلة؟ وما التقليد؟ . الغفلة قد لا يسبقها كفر أو معصية ، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك . والمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوي المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللائق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك . ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة ، ثم جاء إشراك الآباء في المرحلة الثانية؛ لأن كل واحد لو قلد أباه في الإشراك؛ لانتهى الشرك إلى آدم ، وآدم لم يكن مشركاً ، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بني آدم ، وكانت هذه الغفلة نتيجة توهم أن هناك تكاليف شاقةً يتطلبها المنهج ، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد في بؤرة شعورهم؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود في بؤرة شعوره . أما الشيء الذي سيكلفه مَشقَّة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه ، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهي الغفلة في آبائهم . وهنا يضاف عاملان اثنان : عامل الغفلة ، وعامل الأسوة في أهله وآبائه . ولم تكن القضايا الإيمانية

في بؤرة الشعور ، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره في بؤرة الشعور ، ويُخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور .

ولأن البعض قد يتصور أن في التكليف الإيماني مشقة ، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه وينساه ، وكذلك يحاول هذا البعض أن ينأى بنفسه عن هذه التكاليف .
ونأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مَدِيناً لمحل بقالة أو لنجاَّرٍ وليس عنده مال يعطيه له ، لذلك يحاول أن يبتعد عن محل هذا البقال ، أو أن يسير بعيدا عن أعين النجار . وهكذا يكون افتعال الغفلة في ظاهره هو أمراً مَنْجياً من مشقات التكاليف ، لكن البشر في ميثاق الذر قالوا : { بلى شَهِدْنَآ }
وقد أُخِذَ ذلك العهدُ عليهم ، وأُقِرُّوا به واستشهد الحقُّ بهم ، على أنفسهم حتى لا يقولوا يوم القيامه { إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ } لأنه لا يصح أن نغفل عن هذا العهد أبداً ، ولكنَّ الحقَّ تبارك وتعالى عرَفَ أنَّنا بشرٌ ، وقال في أبينا آدم : { وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ . . . } [طه : 115]
ومادام آدم قد نسي ، فنسيانه يقع عليه حيث بيَّن وأوضح لنا الإسلام أن الأمم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر واضح : فقال عليه الصلاة والسلام :
« رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »
والخطأ معلوم ، كأن يقصدَ الإنسانُ شيئاً ويحدث غيرهُ ، والنسيانُ ألاَّ يجيءَ الحكمُ على بال الإنسان . والمُكْرَهُ هو من يقهره من هُو أقْوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حريته وتقييدها ما لم يفعل ما يؤمر به ، وفي الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم . وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينساه المسلم . وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤاخذون به . وإذا سلسلنا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذي خُلق بيد الله المباشرة ، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد علاقة زوجية فيأتي النسل .
وقد كلف الله آدم في الجنة التي أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهي؛ فقال له سبحانه وتعالى : { وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة . . . } [البقرة : 35]

إذن فقصارى كل تكليف هو أمر في « افعل » ، ونهي في « لا تفعل؛ ، وقد نسي آدم التكليف في الأمر الواحد البسيط وهو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة ، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذي يتذكره؟ وما كان يصح أن

ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ومكلف من الله مباشرة ، والتكليف وإن كان بأمرين؛ لكن ظاهر العبء فيه على أمر واحد؛ الأكل من حيث شاءا هو أمر لمصلحة آدم ، و « لا تقرب » هو تكليف واحد .

– ولذلك قال الحق في آية أخرى : { . . . وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى } [طه : **121**]
وهو عصيان لأنه نسيان لأمر واحد ، ما كان يصح أن ينساه . لعدم تعدده ويقول الحق تبارك وتعالى : { أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون } [الأعراف : **173**]
جاء هذا القول لينبهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكاليف شاقة ، والإنسان قد يسهو عنها فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : { أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون } .
وهذا يعني أن إيمانهم هو إيمان المقلد ، رغم أن الحق قد أرسل لهم البلاغ ، وإذا كان الآباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن يغفلوا عن صحيح الإيمان .
ويقول الحق بعد ذلك : { وكذلك نُفَصِّلُ . . . }

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (**174**)

والآيات التي فصلها الحق هنا هي العهود الخاصة ، ورفع الجبل ليأخذوا التوارة بقوة ، وكذلك العهد العام الذي اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وجاء سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدةً يجب أن تكون في بؤرة الشعور ، فمن غفل فليتذكر ، ومن قلد آباه في شيء مخالف للمنهج القويم ، فليرجع عن هذا التقليد؛ لأن التكاليف الإيمانية تكاليف ذاتية ، وسبحانه لا يكلفك وأنت في حاجة إلى أبيك ، أو إلى أمك . لكنه يكلفك من بعد البلوغ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالا كاملا مثل والدك ، ومادمت مكتمل الرجولة كوالدك وصالحا للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً ، فلا تقل إنني أقلد أبي ولو كان على غير المنهج السليم؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو في دور الطفولة ، حيث الأب يسعى لإطعام أبنائه ورعايتهم ، لكن التكليف لا يأتي للإنسان إلا بعد البلوغ ، ومعنى بعد البلوغ : أنك صالح لإنجاب مثلك ورعاية نفسك .
ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يدربوا أبناءهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجيء أوان تكليف الله ، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام :
« مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع . . إلخ »

الأب إذن يأمرُ ويُعاقب قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير دربة سهلة لا يتعب منها الإنسَان بعد البلوغ . { وكذلك نُفَصِّلُ الآيات وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } .

أي أن على الغافل أن يرجع عن غفلته فيتذكر ، وأن يرجع المقلد لآبائه عن التقليد ، ويقتنع اقتناعاً ، مصداقاً لقوله الحق : { لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً . . . } [لقمان : 33]

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ . . . }

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)

ولأنهم قالوا : { إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ } ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول : { واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فانسلخ مِنْهَا } .

والنبأ هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر . ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر : { عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم } [النبأ : 1-2]

كما يقول { واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا } ، كأن هذا النبأ كان مشهوراً جداً ، ويقال : إنه قد قيل في « ابن بعوراء » أو أمية بن أبي الصلت ، أو عامر الراهب ، أو هو واحد من هؤلاء ، والمهم ليس اسمه ، المهم أنّ إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلخ من الآيات ، فبدلاً من أن ينتفع بها صيانة لنفسه ، وتقرباً إلى ربه { فانسلخ مِنْهَا } واتبع هواه ومال إلى الشيطان .

وكلمة « انسلخ » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها؛ لأن الأصل في السلخ إزاحة جلد الشاة عنها ، فكأن ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسلخ منها ، وهذا يعني أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه شرايين ، وأوردة ، ولحم ، وشحم ، وعظام . وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان ، ولذلك سمي الخارج عن منهج الله « فاسقاً » مثله مثل الرطبة من البلح ، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء ، فتنكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها وتظهر الرطبة من القشرة ، ولذلك سمي الخارج عن المنهج « فاسقاً » من فسوق الرطبة عن قشرتها ، والله عز وجل يقول هنا : { ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا } . وكان يجب ألا يغفل عنها ، لأن الإتيان نعمة جاءت ليحافظ الإنسان عليها ، لكن الإنسان انسلخ من الآيات .

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً ، ويغير الثعبان جلده كل فترة ، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذي تحته قد نضج ، وصلح لتحمل الطقس والجو ، وكذلك حين يندلق سائل ساخن على جلد الإنسان ، تلحظ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها ، وله أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب ، أما إذا تركها فهي

تحمي المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتنفصل عن الجسم ، وكذلك نعلم أن الشاة – مثلاً – لا تسلخ نفسها . بل نحن نسلخها ، والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَآيَةٌ لَّهُمُ اليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار . . . } [يس : 37]
فكأن الليل كان مجلداً ومغلفاً بالنهار ، والليل أسود ، والنهار فيه الضوء ، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف ، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف : الأحمر ، البرتقالي ، الأصفر ، الأخضر ، الأزرق ، النيلي ، البنفسجي ، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية ، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك ، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التي تأتي عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً .

والأبيض هو مزيج من ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض ، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً ، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك ، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك . وقوله الحق : { نَسْلَخُ مِنْهُ النهار } كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار .
وإذا انسلخ من آتاه خبر الإيمان عن المنهج يقول الشيطان : إنه يصلح لأن يتبعني ، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل ، فهو يجري وراءه مخافة أن يرجع إلى ما أتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج ، ويزكي الشيطان في نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا .
وقلنا من قبل : إن المعاصي تأتي مرة من شهوة النفس ، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق ، وقلنا : إن الشيطان لا يجرؤ عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك ، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان في الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها ، والشيطان لا يذهب – مثلا – إلى الخمارة ، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التي تتجه إلى الخير ، أما الاخرون فنفوسهم جاهزة له . إذن فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ في الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه مخافة أن تستهويه الآيات ثانية ، ولذلك لابد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزغ الشيطان ، فإن جاءت المعصية وحدثتك نفسك بأن تفعلها ثم عزت عليك تلك المعصية لأي ظرف طارئ ثم ألحت عليها ذاتها مرة ثانية ، فاعلم أنها شهوة نفسك . لكن إن عزت عليك ثم فكرت في معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة ، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط ، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها ، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك ، فاعلم أنها من نفسك ، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها ، ثم فكرت في معصية ثانية . فهذا نزغ من الشيطان – ويقول الحق : { . . . فَأَتْبَعَهُ الشيطان فَكَانَ مِنَ الغاوين } [الأعراف : 175]
الغاوي والغَوِيّ هو من يضل عن الطريق وهو الممعن في الضلال ، ونعلم أن الهدى هو الطريق

الموصل للغاية ، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه في الصحراء . وهو الذي يُسمى « الغاوي » ، ومادام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد في نفسه ويفْسد غيره .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ولكنه . . . }

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ **(176)**

وهنا أمران اثنان ، الرفعة : وهو العلو والتسامي ، ويأتي بعدها الأمر الثاني وهو الإخلاد إلى الأرض أي إلى التسفل ، والفعلان منسوبان لفاعلين مختلفين .
{ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ } ، والفعل رفع هنا مسند لله . ولكنه اختار أن يخلد في الأرض . وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله . لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله ، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون . وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج ، وحين يقول الحق تبارك وتعالى { وَلَوْ شِئْنَا } أي أنها مشيئتنا . فلو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صالحة ، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار ، والحق يريد أن يُبقي للإنسان الاختيار ، فإن اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة ، وإن أراد الضلال فلسوف يَلْقى العذاب الحق ، ولمزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معي قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام : { فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً } [الكهف : 65–66]
ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأبّ على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له : { هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً } .
وفي هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .
وماذا قال العبد الصالح؟ لقد عذر موسى وقال : { قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } [الكهف : 67–68]
أي أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك ، بل لأنك سترى أمورا لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا : { ستجدني إِن شَآءَ الله صَابِراً } وأصرّ موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصي له أمرا ، واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شيء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظري ، فيه أخذ ورد ، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماما . بعد أن ركبوا في السفينة وخرقها العبد الصالح ، لم يصبر سيدنا موسى بل قال : { . . . لَقَدْ

جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً } [الكهف : 71]
وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح ، وحين ذكره العبد الصالح بما وعد به من ألا يسأل ، تراجع موسى ، وتكرر السؤال ، وتكرر التذكير . إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق : { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا } لماذا؟ . لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة ، يفعل ما يريده ، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاءً ، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف ، لأنها سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يثيبه الله عليه . ومن عمل سوءاً يعاقبه ، ومشيئته سبحانه مطلقة ، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه .
وبمقضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويثيب الطائع بفضله ، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز ، وحكيم في كل فعل . { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الأرض واتبع هَوَاهُ . . . } [الأعراف : 176]
و { أَخْلَدَ إِلَى الأرض } ، أي أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية ، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو ، والحق يقول : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . . } [الأنعام : 151]
ونخطئ حين نفهم أن « تعالوا » بمعنى « أقبلوا » فقط وهذا فهم ناقص ، إنها دعوة للقبول وإلى العلو ، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى . بل نرتقي ونأخذ منهج الله الذي يضمن لنا العلو . وكأنه سبحانه يقول : تعالوا وتساموا في أخذ منهجكم من الله العلي الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء في شرع الله ، لأن في هذا تسفلا ونزولا إلى الحضيض . { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الأرض واتبع هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ . . . } [الأعراف : 176]
ويقال : « حملت على الكلب » ، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره ، فهذا تفسير لقوله : « تحمل عليه » ، أي أنك تحمل عليه طرداً أو زجراً؛ لذلك يلهث ، وأن تركت الكلب بدوح حمل عليه طرداً أو زجراً فهو يلهث ، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً ، وهذه الخاصية في الكلب وحده ، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه .
ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا أن فزعت فتجري ، لتفوت من الألم أو من العذاب الذي يترصدها من كائن آخر ، وحين يجري الحيوان فهو يحتاج لطاقة ، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم ، ولابد للقلب أن يتعاون مع الرئة التي تمد الدم بالهواء . ونلحظ أن الكائن الحي حين يجلس برتابة فهو لا يلحظ تنفسه ، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنبسط لتسحب « الأوكسجين » من الهواء لتصل به للدم بكمية

تناسب الحركة الجديدة ، فيحاول أن يتنفس أكثر . ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجمة ، لكن الكلب وحده هو الذي يفعلها ، جائعا أو شبعان ، عطشان أو غير عطشان ، مزجوراً أو غير مزجور ، إنه يلهث دائماً . ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث؟؛ لأن الذي يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه متبع لهواه ، وتتحكم فيه شهواته . وحين تتحقق له شهوة الآن ، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً؟ وتتملك الشهوة كل وقته ، لذلك يعيش في كرب مستمر ، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم ، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن ، جائعاً أو غير جائع ، عطشان أو غير عطشان .

{ . . . فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فاقصص القصص لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف : 176]
هكذا يكون مصير من كذّب بالآيات .
وقول الحق : { فاقصص القصص } يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً ، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتي سبحانه بلقطة جديدة ، لتعدد ما في القصة الواحدة من العبر ، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة . ونجد في القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل ، ومن قصص المبطلين مع المحقين ، ومن قصص المعاندين مع الرسل؛ لأن القصة أمر واقعي ، والتقنين للمناهج أمر لفظي ، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع؛ لأن واقع الحياة يعطي القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظري معزول عن الواقع .
وهكذا بَيّن الحقّ سبحانه وتعالى في هذه الآية ، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه ، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً ، وتوظيف ما علم ثانياً ، وبذلك يرتفع من منطق الأرض إلى منطق السماء . ومن يعطيه الله ذلك المنهج ، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء ، ليهبط إلى مستوى الأرض . وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم ، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم ، وعلى وفق نظمهم ، ويتركون منهج الله الذي خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صيانتهم .
وهذا كلام نظري له واقع في ابن « باعوراء » ، هذا الذي آتاه الله العلم ، ولكنه أخلد في الأرض ولم يتبع ما علم ، فانسلخ من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق : { فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ . . . } [الأعراف : 176]
ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحي بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب ، مع الفارق بين الاثنين؛ لأن الكلب يلهث غريزة . فهو غير مذموم حين

يلهث وهو مطرود ، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه ، ولا يذم على هذه ولا على تلك ، لكن الإنسان الذي فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقلي يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغي أن تقولوا : وما ذنب الكلب في أنه يلهث ، ويضرب به المثل في الكفر؟ لأن الكلب يفعلها غريزة ، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء ، أما الإنسان الذي ارتفع بكفره وميزه الله بأن يختار بين البديلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى ، ومثل هذا السلوك في الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا ، وإياك أن تقول : لماذا ربنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هي؟

والحق – سبحانه – هو القائل عن اليهود :

{ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً . . . } [الجمعة : 5]

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما في الأسفار؟ الجواب لا؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما في الأسفار ، بل مهمته أن يحمل ما عليه فقط ، وكأن الحق يقول : لا تكونوا مثل الحمار الذي يكتفي من الخير بأن يحمله ، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تنتفعوا بما يحويه من التشريع . إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب ، ولا هي ذما للحمار . إنما ذم لمن يتشبه بهما؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يرده الله لها ، وأراد الله المثل فيها بشيء لا تذم منه ، ولكنه مذموم من الإنسان .

والإنسان الذي لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة في الحياة ، حتى وإن كان في نعمة ، لأنه معزول عن الله ، ومادام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل : أيدوم لي هذا النعيم أو لا يدوم؟ ويعيش دائما في قلق ورعب مخافه أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم ، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبه . { ذَّلِكَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فاقصص القصص لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } .

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية في هذا الرجل المسمى « ابن باعوراء » ، فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل .

أي أن الذي يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسلخ من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، ولستم بدعاً في هذا ، فالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلدون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة « مثل » إذا سمعتها هي من مادة ال « م » وال « ث » وال « لام » ، وتنطق كما يأتي : إما أن تنطقها مِثْل « بكسر الميم وسكون الثاء » ، وإما أن تنطقها مَثَل « بفتح الميم والثاء » ، والمَثَلَ هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مِثْل فلان في الكرم ، في العلمَ ، في الَطول ، في العرض ، وبذلك أعطيت تشَبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له .

والحق سبحانه يقول : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11]
أي لا أحد يشبهه في شيء؛ لأنه مَنَزّه في الذات والصفات والأفعال .
وأيضاً نقول : هذا مَثَل هذا؛ أي أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك . وإن كان المشبه به ذائع الصيت؛ بحيث يجري اسمه على كل لسان؛ فنحن نقول : إنَّه مَثَلٌ؛ كقولنا عن الكريم : « هو حاتم » لأن شهرة حاتم في الكرم جعلته مَثَلاً .

والفرق أنك إذا قلت في فلان إنه يشبه حاتماً في الكرم ، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتي بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان؛ فهذا مَثَل ، كأن تقول : مَثَل حاتم في الكرم ، أو مَثل عنترةَ في الشجاعة . والمَثَل في الذكاء إياس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر الخليفة قال فيه : إقدام عمرو (في شجاعته) في سماحة حاتم (أي الطائي) في حلم أحنف (الأحنف بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب) وفي ذكاء إياس . وقال رجل من القوم : كيف تُشَبَّهُ الأميرَ بصعاليك العرب؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً .
ما عمرو بالنسبة للأمير؟!
وما حاتم بالنسبة للأمير؟!
فقال الشاعر :
وشبهه المدّاح في الباس والندى ... بمن لو رآه كان أصغر خادم
ففي جيشه خمسون ألفاً كعنتر ... وفي خُزنه أُلف ألف كحاتم
أي أن عنده أمثالَ حاتمٍ وأمثال عنترة . فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته وبديهيته؛ فقال :
لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس
وكأن الشاعر يقول : أنا ضربت بهم المَثَل لأنهم أصبحوا المثل المشهور والأمثال لا تتغير .
وأنت تقدر في المثل ، فقد تقول : فلان حاتم ، وحاتم انقضى عمره ، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً في التاريخ ، أو تقول : « فلان عنتر » ، أو « فلان إياس » ، وفي ذلك يرتقي التشبيه ، بأن صار المشبَّه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به .
ويُعَرفون المَثَل بأنه : قول شبِّه مورده بمضربه ، أي أنك تشبه الحالة التي قيل فيها المثل أولاً ، ومثال ذلك : حينما أرسلَ عظيمٌ من عظماء العرب خاطبةً اسمها « عصام » لتخطب له أمَّ إياس؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فذهبت الخاطبة وخلَّت أم الفتاة بينها وبينها ، وقالت لها : يا هذه ، هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض أمرك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك به . ثم أرسلت إلى خباء ، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً . فلما عادت إلى من أرسلها ، وكان

ينتظرها في شوق وكأنه على أحر من الجمر ، قال لها : « ما وراءكِ يا عصامُ؟ » قالت : « أبدي المخض عن الزُّبد » أي أن الرحلة جاءت بفائدة .

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولاً ذكرا أو أنثى أو مثنى أو جمعاً؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : « ما وراءَك يا عصام؟ » ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدي الجهد فيه يقال عنه : « أبدي المخض عن الزبد » .

فحين ينجح الولد ويأتي بالمجموع المناسب يقال : « أبدي المخض عن الزبد » .

والحق تبارك وتعالى يقول : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26]

وكانوا قد قالوا : كيف يضرب الله المثل ببعوضة؛ وقال سبحانه : { لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . . } [الحج : 73]

لقد فهموا قوله : « فما فوقها » أنها أكبر منها ، والمراد غير ذلك؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل؛ لذلك قال : « فما فوقها » من باب فما فوقها في الاحتقار منكم والقلة في الحجم مما تنكرونه ، وهو الضآلة . وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويراد السامع وفلان فوقه في المرض . ونجد « فوقه » هنا لا تعني المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة : { . . . ذَّلِكَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فاقصص القصص لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف : 176]

والكلام موجه لليهود : أي أنتم يا بني إسرائيل مَثَلكم مثل الرجل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم في التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذي جاء ذكره في التوراة ، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله ، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به . وصار مثلكم كمثل الرجل الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها . { ذَّلِكَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا }

وهم بعنادهم وبغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التي يراها البصر؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التي يثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله ، وكذلك آيات القرآن التي تحمل منهج الله .

{ فاقصص القصص لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان ، وأنت لن تحكي الأمر التافه ، بل ستحكي ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة؛ تنتفع بها حركة المجتمع .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : { لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكر والتذكر والتدبر .

والتفكر –كما نعرف – هو عمل العقل في المقارنات بين البديلات المتنوعة لِيُرَجّح بدلاً على بديل فتُعقلَ به القضايا .

والتذكر يعني إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيح عنك الغفلة عن القضية المعلومة .

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي . فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة ، لتجد المعنى الخفي فيما يقال . والمثال في قول الحق : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26]

وحين تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى « فما فوقها » لا يعني الأعلى منها في القوة ، بل الأعلى منها في الضعف الذي أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خلف اللفظ ، ومعطياته .

{ فاقصص القصص لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } أي يتفكرون في أسلوب توجيه المنهج؛ لعلهم يؤمنون وهذه فائدة القصص .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { سَآءَ مَثَلاً القوم الذين . . . }

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177)

والحق قال فيهم من قبل : إنهم كذبوا بآياتنا ، وضرب لهم المثل بابن باعوراء وكان مشهوراً في أيامهم ، لكنهم فاقوا ابن باعوراء لأنه كان فرداً وهم جماعة؛ لذلك لا تقل إن في المسألة تكراراً؛ لأن المثل من قبل ما كان على فرد واحد ، أوتي آيات الله فانسلخ منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلاخهم عن المنهج يجعل موقفهم أشد سوءاً . { سَآءَ مَثَلاً القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } و « ساء » أي قَبُح ، وحين نقول : ساء فلان؛ أي قبح أمره ، ولكن أي أمر من أموره هو القبيح؟ فنقول : ساء صحةً أي صار مريضاً أو ساء حالاً أي صار فقيراً ، أو ساء خلقاً أي صار شرساً ، وأنت حين تقول : ساء ، فهذا السوء عام له جوانب متعددة ، ويقتضي الأمر التمييز . و « ساء مثلاً » أي ساء من جهة المثل ، والمثل في ذاته لا يسوء؛ لأن الله تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يجيء ليبين ويشرح ويوضح ، والمعنى هنا : ساء مثلاً حال القوم . أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا . لأنهم حين كذبوا بالآيات ظلموا أنفسهم ، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله في الأرض ، ولم يعرقلوا بالتكذيب شيئاً في كون الله تعالى ، فالكون بنظامه ونسقه يسير بإرادته سبحانه وآيات الكون سائرة . إذن كان تكذيبهم بآيات لن يضير أبداً في أي شيء . والخيبة إنما تقع عليهم . وإن كان التكذيب في الآيات المعجزات فقد بقي ذكر المعجزات إلى الآن . وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أي شيء . وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم في ذلك مثل المريض الذي لم

يسمع كلام الطبيب فإنه يسيء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شيء ، والله سبحانه قد أعطانا المنهج لتستقيم به حركة الحياة ، فمن يأخذه ينفع نفسه ، ومن لا يأخذه لن يضر الله شيئاً .

هم إذن ظلموا أنفسهم ، ومن يظلم نفسه كان هو أول عدو لها ولن يضر الله شيئاً ، ولا الرسول ، ولا المجتمع . { . . . وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ } [الأعراف : 177]

وحين تجد معمولاً تقدم على عامله – قاعدة نحوية – فعلم أن هناك ما يسمى بالقصر في علم البلاغة ، وقد نقول : « يظلمون أنفسهم » ويصح أن تعطف قائلاً : ويظلمون الناس . ولكن حين نقول : أنفسهم يظلمون ، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم ، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص ، مثلما نقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » ، أي أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً .

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك : { مَن يَهْدِ الله فَهُوَ . . . }

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)

وهذه الآية هي الوحيدة التي جاء فيها سبحانه وتعالى : { المهتدي } – بالياء – بينما جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة « المهتد » – من غير ياء– في آيات متعددة عدا هذه الاية :

واقرأ قوله تعالى : { وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد . . . } [الإسراء : 97]

ويقول الحق : { . . . فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد : 26]

وكذلك تأتي الكلمة بدون « ياء » في قوله سبحانه : { . . . مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً } [الكهف : 17]

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر في الأذهان ، لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادي والمضل ، فلماذا يعذبني إن ضللت؟ . وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة .

ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت؟ . إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر . ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

وضرَبْنا من قَبْلُ أمثلةً كثيرة . لنفرق في هذه المسائل بين المختلفين؛ لأن الجهة عندهم منفكة وهم قد ناقشوا مسألة « خلق أفعال العباد » وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله؟ .

ونسأل : ما هو الفعل؟ . إنه توجيه طاقة لإحداث حدث؛ فطاقة اليد أنها تعمل أيَّ عمل تريده

منها؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض ، أو تربت بها على اليتيم .
إذن ففي اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً؛ فأي عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب؟ . إنك بمجرد رغبتك في أن تضرب؛ تضرب؛ عكس الإنسان الآلي حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل . وكلها آلات .
وأنت حين تربت على كتف يتيم ، ما هي الأعضاء والأجهزة التي تحركها لتعمل هذا العمل؟ .
إذن فالله هو الذي خلق فيك الانفعال للفعل . فإن نظرت إلى ذلك ، فكل فعل من الله ، ولكن توجيه الجارحة إلى الفعل هو محل التكليف .
إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت ، لا لأنك خلقت؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى ، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة مخلوقة لبيان ما في النفس؛ إن أردت أن تقول بها « لا إله إلا الله » صلحت ، وصلحت كذلك عند الملحد أن يقول – والعياذ بالله – لا يوجد إله . واللسان لم يعص في هذه ولا في تلك .

إذن فالذي خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله . وأنت توجه الجارحة ، إذن فكل الافعال مخلوقة لله ، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما يكون من العبد . والحق سبحانه وتعالى يهدي الجميع بالمنهج ، ومن يقبل عليه بنيَّة الإيمان ، يعينه على ذلك ، ولذلك لا يصح أن نختلف في مسألة مثل هذه ، وأن نسأل من خلق الأفعال ، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد ، وما دور الإنسان فيها؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث ، مثل من يريد أن يؤذي إنساناً بيده لكنه يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو الذي يخلق لرفع يده وآذى بها من أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل .
وعلى ذلك تكون الهدايةُ نوعين : هداية دلالة ، وهي للجميع؛ للمؤمن والكافر؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يُقْبل على الإيمان به؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة . فيأخذ بيده ، ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطي له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره وييسر له آمره : وسبحانه القائل : { واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله . . . } [البقرة : 282]
ويقول سبحانه وتعالى : { . . . وَمَن يُضْلِلْ فأولئك هُمُ الخاسرون } [الأعراف : 178]
فإذا كان الله قد عمّم حكماً ثم خصّصه ، فالتخصيص هو الذي يحكم التعميم .
ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدي وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدي وكذلك الظالم ، والفاسق؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة . ونقرأ في القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة ، فهو سبحانه

يقول : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى . . . } [فصلت : 17]
والهداية التي كانت لقوم ثمود إنما هي هداية الدلالة ، وليست هداية المعونة .
ويقول سبحانه : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17]
أي أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية ، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية ، والحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . } [القصص : 56]
أي أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك .
ويقول سبحانه لرسوله : { . . . وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [الشورى : 52]
أي أنك يا محمد تهدي هدايةَ الدّلالة بالمنهج الذي أنزله الله إليك .
إذن إذا رأيت فعلاً أو حدثاً مُثبتاً لواحد ومنفياّ عنه . . فاعلم أن الجهة منفكة ، والكلام هنا لحكيم عليم . ولماذا يقول الحق سبحانه : { مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي وَمَن يُضْلِلْ فأولئك هُمُ الخاسرون } [الأعراف : 178]
لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده ، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه . ويعيش وحالته كرب ، سواء كان في يسر مادي أو في عسر . هذا إن اعتبر أن الدنيا هي كل شيء ، فإذا أضيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة ، فالخسارة تكون كبيرة حقاً .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً . . . }

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)

وذرأ ، بمعنى بث ونشر ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء : { وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً }
كما يقول الحق أيضاً : { يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ }
وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس . . . } [الأعراف : 179]
ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنس والجن؛ لأن كلا منهما في سلك الاختيار ، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن : { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان }
وذرأنا معناها بثثنا ونشرنا وكثّرنا ، وكلمة كثير لا تعني أن المقابل قليل ، فقد يكون الشيء كثيراً ومقابله أيضاً كثير ، والحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب . . . } [الحج : 18]

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه ، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط ، حيث يقول الحق في ذات الآية : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . . } [الحج : 18]

أي هناك كثير يسجدون ويخضعون لله . ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب . وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس } فقد يثور في الأذهان سؤال هو :

هل أنت خالقهم يا رب لجهنم ، ماذا تستطيعون إذن؟ ولا شيء في قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك؟

ونقول : لا . ولنلفت الأنظار إلى أن في اللغة ما يسمى « لام العاقبة » ، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عنا كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد في الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56]

ومعنى العبادة طاعة الأمر ، والكف عن المنهي عنه ، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل ، فالعبادة – إذن – تستدعي وجود طائع ووجود عاصٍ ، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى : يأتي لك من يروي لمحة من سيرة إنسان ويقول لك : لماذا يقف منك هذا الموقف العدائي ، أليس هو الذي أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه : « زرعته ليقلعني » . هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك؟ لا . ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا .

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار ، لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه ، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة ، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه « لام العاقبة » ، أي ما صار إليه غير مرادك منه ، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى : { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين * فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً . . . }

[القصص : 7–8]

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً؟ لا ، لأن زوجة فرعون قالت : { قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا . . . } [القصص : 9]

فقد كانت علة الالتقاط – إذن – هي أن يكون قرة عين ، لكنه صار عدواً في النهاية ، وهذا اسمه – كما قلت – لام العاقبة .

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار ، في قوله الحق : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس }

لأن علة الخلق في الأصل هي العبادة ، والعبادة تقتضي طائعاً وعاصياً ، فالذي يطيع يدخل الجنة

، والذي يعصي يدخل النار ، ولله المثل الأعلى ، أذكركم بالمثل الذي ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحددهم . لم يقل العميد أو المدير لأنه يتحكم في إجابات الطلبة ، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه ، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس }

يعني أننا نشرنا وبثثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، وهم من يعرضون عن منهجنا ، ثم يأتي بالحيثيات لذلك وهي أولا : { لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا . . . } [الأعراف : **179**]

وثانياً : { وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا . . . } [الأعراف : **179**]

وثالثاً : { وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ } [الأعراف : **179**]

ولقائل أن يقول : إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم؟ . ومادامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم؟ وكذلك مادامت الآذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون؟ . ونقول : لا ، لم يخلقهم الله للعذاب ، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم ، وصارت عقولهم لا تفكر في شيء غيره وتخطط للحصول على الشهوة ، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها ، وكذلك الآذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية ، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذان . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التي تنتهي إليها الإدراكات . ونعلم أن الإدراكات تأتي بواسطة الحواس الخمس ، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس ، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم ، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق . إذن لكل وسيلة إدراك ، وهي من المحسَات ، وبعد أن تتكون المحسَات يمتلك الإنسان خميرة علمية في قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلماً بها .

وكلنا يعرف أن النار محرقة؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه ، فيعرف أن النار محرقة ، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى . إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتها الحواس الظاهرة ، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل . وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل؛ لأنك حين تحمل شيئاً قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً .

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد ، فهذه اسمها حاسة البعد ، وكذلك حاسة البين وهي التي تميز بها سُمك القماش مثلاً .

كل الحواس – إذن – تربي المعاني عند الإنسان وحين تربي المعاني في النفس الإنسانية تتكون القضايا التي تستقر في القلب .

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78]

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى : { لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا }

والفقه هو الفهم ويصير الفهم قضية مرجحة انتهى إليها الاقتناع من المرائي والمحسّات ، لكنّ هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلى هواهم ، وكذلك لا تسمع آذانهم إلا ما يروق لهم ، فلا يستمعون إلى الهدى ، ولا يلتفتون إلى الآيات التي يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه ، فهم إذن لهم قلوب وأعين وآذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التي تروق لانحرافهم .

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول : { أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون }

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو : ما ذنب الأنعام التي تُشبه بها الكفار؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأي منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله . هي فقط ترى المْرعَى فتذهب إليه ، وترى الذئب فتفر منه ، وتتعود على أصوات تتحرك بها ، وكافة الحيوانات تحيا بآلية الغريزة ، ويهتدي الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التي أودعها الله فيه ، لا بعقله .

والإنسان منا لا يبتعد عن الضرر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً . لكن الحيوان يبتعد عن الضر من غير تجربة بل بالغريزة ، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البديلات ، وفطره الله على غريزة تُسَيّرهُ إلى مقومات صالحة ، ومثال ذلك : أنه قد يوجد الحيوان في بيئة ما ، ويعطي الله له لوناً يماثل لون هذه البيئة ليحمي نفسه من حيوانات أقوى منه .

ومثال آخر : نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان ، ولابد أن يتناسل ليؤدي ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هي في الإنسان ، حيث تصير في بعض الأحيان غاية في ذاتها ، بجانب أنها وسيلة للنسل . ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى : { فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ . . . } [المائدة : 31]

إذن فالغراب مَهْدِيّ بغريزته إلى كل متطلباته ، ولذلك نجد من يقول : كيف نشبه الضال بالأنعام؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام في أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام ، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حين لم يستخدم العقل كي يختار به بين البدائل .

وبذلك صار أضل من الأنعام ، وكلمة « أضل » تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة ، لأنها محكومة بالغريزة لا اختيار لها في شيء . لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجهنم من الجن والإنس ، لا

يعرفون ربهم ، بينما الأنعام ، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . } [الإسراء : 44]

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده . وفي آية أخرى يقول المولى تبارك وتعالى : {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . } [النور : 41]

وعلى ذلك فكل الجماد – إذن – بعلم صلاته وتسبيحه .

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم البعض كوسيلة تنشيط إلى غايات وأهداف سامية . والعارف بالله من هؤلاء الصالحين يستقبل الأحسن منه في العبادة بالضحك ، أما الأحسن منه في أمور الدنيا فيستقبله « بالتكشير » ، وقال واحد منهم لآخر : أتشتاق إلى ربك؟ فرد عليه : لا .

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك؟ .

قال له : نعم . إنما يُشْتَاقُ إلى غائب . { . . . أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون } [الأعراف : 179]

ولا تظنن أن الضلال لعدم وجود منهج ، أو لعدم مُذَكِّر ، أو لعدم وجود مُنْذِرٍ أو مُبَشِّر . بل هي غفلة منهم ، فالأمور واضحة أمامهم ، لكنهم يهملونها ويَغْفُلون عنها .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَللَّهِ الأسمآء الحسنى . . . }

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180)

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى { وَللَّهِ الأسمآء الحسنى } نقول : أنه لا يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنى ، إن قلت عن إنسان إنه « كريم » ، فهذا وصف ، وكذلك إن قلت إنه « حليم » ، وكلها صفات عارضة في حادث ، ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها . فأنت– مثلا– لك قدرة تفعل أفعالاً متعددة ، ولله قدرة ، لكن قدرتك حادثة من الأغيار ، بدليل أنها تسلب منك لتصير عاجزاً ، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحدها شيء . فهي قدرة مطلقة . وأنت قد تكون غنياً ، لك غنى ، ولله غنى ، لَكنّ ثراءك محدود ، وأمَّا غنى الله فإنه غير محدود .

إذن الأسماء الحسنى على إطلاقها هي لله ، وإن وجدت في غيره صارت صفات محدودةً مهما اتسعت . { وَللَّهِ الأسمآء الحسنى فادعوه بِهَا }

والحسنى . . تأنيث لكلمة « الأحسن » اسم تفضيل ، وهي الأسماء الحسنى في صلاحية الألوهية لها ، وصلاحيتها للألوهية . وحين تقول عنه سبحانه : إنه « رحيم » ، فهذا أمر أحسن عندي وعندك لأنني أنظر إلى رحمته لي ، وأنت تنظر إلى رحمته لك . وحين تقول : « غفار » فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه .

وحين تقول : « قهّار » وأنت مذنب ستخاف ، وهي صفة حسنى بالنسبة للإله؛ لأن الإله لابد أن تكون له صفات جمال وصفاتُ جلال ، فصفات الجمال لمن أطاع ، وصفات الجلال لمن عصى . ولذلك لا تأخذ النعم بمدلولها عندك ، بل خذ النعم بمرادات الله تعالى فيها .

وساعة يتكلم الحق سبحانه وتعالى قائلا : { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان*فبأي آلاء رَبِّكُمَا تكذبان*يامعشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ*فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ*يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ*فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 31-36]

فهل إرسال الشواظ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } ؟

نقول : نعم ، هي نعمة كبيرة ، لأنه سبحانه وتعالى ينبهنا قبل أن توجد النار ، أن النار قوية ، ويعطي لك نعمة العظة والاعتبار . وعظته وتنبيهه – إذن – قبل أن توجد النار نعمة كبرى ، وأيضاً هي نعمة بالنسبة للمقابل ، فحين يطيعه المؤمنون في الدنيا ويلزمون أنفسهم بمنهج الله ، فلهم ثواب حق الالتزام ، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية ، يتوعدهم سبحانه بالعقاب ، وهذه نعمة كبرى . { وَللَّهِ الأسمآء الحسنى فادعوه بِهَا }

والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه ، لأننا قد نعرف مسماه من القوى القادرة وهي التي تعرف بالعقل ، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم . وسبق أن قلت : لنفترض أن أناساً يجلسون في حجرة ثم طرق الباب . هنا يجمع الكل على أن طارقاً بالباب ، لكن حين دخلوا في التصور اختلفوا ، فواحد يقول : إن الطارق رجل ، فيرد الآخر : لا إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة ، ويقول ثالث : هذه النقرة على الباب تأتي من أعلاه وهي دليل على أن الطارق ضخم ، وهو نذير لأنه يطرق بشدة ، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق ، ولا أحد يعرف اسمه .

إذن حين تريد أن تعرف من الطارق ، فأنت تسأله من أنت؟ فيقول لك « اسمه » .

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل . ومن خلق الخلق كله قوي ، قادر ، حكيم ، عليم ، لأن عملية الخلق تقتضي كل هذا . أما اسم الله . فهذه مسألة لا يعرفها العقل وتحتاج إلى توقيف . إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية ، فحين يقول لنا : هذه أسمائي فإننا ندعوه بها ، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به ، ولذلك يقول تعالى : { فادعوه بِهَا }

فإذا أنت نقلت هذا إلى غيره . فأنت تدعو بالأسماء الحسنى سواه ، مثلاً كذاب اليمامة مسيلمة سمى نفسه الرحمن ، وبذلك ألحد في اسم الله حيث نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته ، ومثله فعل غيره ، ألم يسموا « اللات » من الله؟ . ألم يسموا « العزى » من العزيز؟ . ألم يسموا « مناة » من المنان؟ . كل هؤلاء ألحدوا في أسماء الله التي لا ندعو غيره بها ، ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله في دعآئه : « اللهم أني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك

، عدل فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وذهاب حزني وغمي »

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا لنفسه ، لأنها لا تعرف بالعقل . أما إذا نظرت إلى الأوصاف المبدعة للخلق فأنت تتعرف على هذه الأوصاف؛ لأنه تعالى خلق الكون بحكمة وتدبير وقدرة .

وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع المصابيح ، فنصنع زجاجاً ونفرغه من الهواء ، ونضع داخله أسلاكاً تتحمل ذبذبة الكهرباء ، وبعد استخدام هذه المصابيح لفترة تفسد ، بينما الشمس تضيء الكون كل هذا العمر ، من بدء الخلق ، ولا تحتاج منا إلى قطعة غيار .

وحين نقول هو : « حكيم » ، نقولها ونرى أثر ذلك في حركة الكواكب التي تسير منسجمة ، وكل كوكب يدور في فلكه ولا يصطدم بآخر ، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة .

وينبهنا الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله : { وَللَّهِ الأسمآء الحسنى فادعوه بِهَا } لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكروه؛ لأنه هو الرب الذي خلق من عَدَم ، وأمد من عُدْم .

وصان الخلق بقيوميته ، وحين تأتي لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادي الله بها ، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذي وضعه لنفسه وهو « الله » ، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود ، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء ، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات .

ولله المثل الأعلى : أنت تقول : « زيد » فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد ، ثم له صفات أخرى ، كأن يكون تاجراً ، أو عالماً متفقها في العلم ، أو مهندساً . لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذي لا يشترك معه أحد من معارفك فيه وهو زيد ، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره .

والأسماء لله نوعان ، اسم يدل على ذات الله ، الذات المجردة عن أي شيء وهو الله ، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن ، وهذه صفات ارتقت في السمو والعلو لأنه لا أعلى منها ، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاق الكمال الأعلى لا تنصرف إلا لله . فصارت أسماء .

قد نقول فلان غني ، وفلان كريم ، وفلان حكيم ، لكن الغنى على إطلاقه هو لله تعالى .

والأسماء الحسنى ناشئة من صفات مبالغة في العلو فيها ، لأنه سبحانه الأكمل فيها وهي في الأصل صفات لها متعلقات فعلية ، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق على الله منها اسم ومقابله ، ونوع يطلق عليه الاسم ولا يطلق عليه المقابل ، ونأتي بصفة شبيهة بالاشتقاق ، فنقول : « غني

» ، ونقول : « مغني » فهو غني في صفة ذاته قبل أن يوجد من يُغنيه ، ومغني وجدت بعد وجود من يُغنيه من عباده ، وسبحانه حي في ذاته ، ومحيي لغيره ، والإحياء صفة فعل في الغير . ولابد لها من مقابل ، فنقول : محيي ومميت . ولم نقل حي ومقابله ، الغير . إذن فالاسم الذي ترى له مقابلاً هو صفات الفعل ، أما صفات الذات فهي التي لا يوجد لها المقابل . ويلحدون في أسماء الله أي يُميلونها إلى غير الله وينقلها الواحد منهم لغير الله أو يأتي باسِم للغير ويطلقه على الله ، أو يطلق اسماً ليس له معنى أو لا يُفهَم منه أي معنى على الله . إذن « الإلحاد » يأتي في ثلاثة أشياء : إما أن ينقل أحد أسماء الله إلى غير الله ، أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله ، أو يطلق اسماً لله من غير أن يكون قد أنزله الله توقيفياً . { وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ في أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }

ونعلم أن « العمل » هو اسم للحدث من أي جارحة؛ فنطق اللسان عمل ، وشم الأنف عمل ، ونعلم أن هناك ما يسمى ب [قول وفعل] ، والفعل عمل الجوارح ما عدا اللسان؛ والقول عمل اللسان ، والاثنان يطلق عليهما عمل ، ولذلك يقول الحق : تبارك وتعالى في سورة الصف :

{ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الآية : 2] .

إذن فالقول مقابله الفعل ، والجزاء هنا على الفعل والقول لأن كليهما عمل .

وإذا كان لله أسماءُ كثيرةٌ ، فهل يجوز هنا لنا أن نأخذ من فعل الله في شيء اسماً له؟ وخصوصاً انه القائل : { وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأسمآء كُلَّهَا . . . } [البقرة : 31]

وهو القائل أيضاً : { وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ . . . } [النساء : 113]

هل يمكن أن نقول : إن الله معلم؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله : { وَأَكِيدُ كَيْداً } [الطارق : 16]

اسماً هو كائد؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ . . . }

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181)

وبعد أن قال سبحانه : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس } أراد أن يطمئن أهل منهج الله ، فلم يقل : « كل الناس » ، بل كثير من الجن والإنس « ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى في سورة الحج : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب } أي كثير من

الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعني قول الحق تبارك وتعالى : { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ باالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف : 181]

أن كون الله لا يخلو من هداة مهديين ، لتستمر الأسوة السلوكية في المجتمع . والأسوة السلوكية في المجتمع هي التي تربي عقائد المواجيد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلي ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب والصدق ولكنَّه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يَؤَذِّنُ للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان في سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعي للخوض في سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض في سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنضح عليه ، بدليل أن الصغير الذي لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليُحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته .

ونفهم من قوله تعالى : { وَبِهِ يَعْدِلُونَ }

إنهم في حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو نفي الشرك ، وقد يكون العدل في مسألة الكبائر ، أو يقيمون العدل في مسألة الحقوق بين الناس . { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ }

وقوله في الآية الكريمة : » أمة « يعني أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز بالصدق ، وآخر في الشجاعة ، وثالث في الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة في مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم – على نبينا وعليه السلام – فقال : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين } [النحل : 120]

أي أنه جامع لخصال الخير التي لا توجد إلا في مجتمع واسع ، { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ باالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ }

وأي أمة من أمم الأرض – إذن – هي التي تهدي بالحق؟ لقد سبحانه في قوم موسى! { وَمِن قَوْمِ موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ باالحق . . . } [الأعراف : 159]

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده ، لذلك تظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة .

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً ، وكلما زاد الناس في الإلحاد ، زاد الله في المدد ، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة في الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين التابعين لمنهج الله .

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر ، ولسائل أن يسأل : ما لزوم هذا الشر في كون خلقه الله على هيئة محكمة؟ نقول! لولا أن الناس يضارون بالشر؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير ، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء؛ ما تحمس للحق أحدٌ ، ولا عرف الناسُ ضرورة أن يتأصل الحق في الوجود ، فللشر – إذن – رسالته في الوجود . وهو أن يهيج إلى الخير ، فكما ذرأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ أوضح سبحانه وتعالى في قوله : { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ } في الحكم ، عدلاً في القمة؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً ، لأن أول مخالفة لقضية العدل هي مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم ، فالشرك والعياذ بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه ، وكذلك تحريم ما أحل الله ، أو حل ما حرم الله ، وكل ذلك ظلم ، وكذلك عدم حفظ التوازن في الحقوق بين الناس ، فإن لم يحصن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولي ومسلط؛ سنجد كل إنسان وهو يضن بجهده في الحياة يكتفي بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً ، فلا يتحرك في الحياة إلا حركة محدودة ، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط ، فإذا ما حدث ذلك؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أي فائض ليعيشوا به .

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عَرَق وتعب كل واحد . فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك . لَكِنْ لله حق فيه ، وأنت لك الباقي ، حتى يجد الضعيف الذي لا يقدر على حركة الحياة من يقيته ، ولذلك يحذرك المنهج الإيماني بقوله : إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف ، لأن قُوَّتَك التي استعملتها في تحصيل هذا المال إنما هي عرض لا يدوم لك ، فإن أخذنا منك وأنت قويٌّ قادر على الحركة ، سنأخذ لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة ، وذلك هو التأمين والعدالة .

وبالنسبة للأمة في تلك الآية { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ }

فقد جاء في الآثار أن المراد بالأمة في هذه الآية الأمة المحمدية ، قال قتادة : بلغني « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا قرأ هذه الآية : هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها » ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون «

ويخاطب النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله : هذه لكم ، أي في أمتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . } [آل عمران : **110**]

وكلمة » للناس « هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهي أمة الإجابة للمؤمنين فقط ، بل جعل خيريتها للناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم . { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ } وذكر » أمة « لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع في إنسان واحد ، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير ، هذا فيه ذكاء ، وذاك فيه شجاعة ، وذاك عنده مال ، وذلك له خلق . فكأن الأمة

المحمدية قد وجد في أفرادها ما يجمع المواهب الصالحة للخلافة في الأرض .
ويأتي الحق بعد ذلك بمقابلهم ، لأن مجيء الشيء بمقابله أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه : { والذين كَذَّبُواْ . . . }

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182)

وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، والآيات جمع آية ، وقلنا : إن الآيات التي في الكون ثلاث؛ آيات تنظرها تهتدي بها إلى من صنع ذلك الكون المترامي الأطراف بتلك الدقة العظيمة ، وذلك الإحْكام المتقن ، آيات تلفتك مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وكذلك آيات تخرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل منهج الله . والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها ، ولم يستنبطوا منها وجود إله قوي قادر حكيم ، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة ، وكذلك كذبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها ، ولم يتمسكوا بها؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن يدخلهم الحق النار فقط ، بل لهم عذاب أقرب من ذلك في الدنيا ، لأن المسألة لو أجلت كلها للآخرة لاستشرى بغي الظالم الذي لا يؤمن بالحياة الآخرة ، لكن من يؤمن بالآخرة هو من سيحيا بأدب الإيمان في الكون ، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج . عكس من يعربد في الكون؛ لذلك لابد أن يأتي العقاب لمن يعربد في الكون أثناء الحياة الدنيا ، وسبحانه وتعالى القائل : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . . } [الطور : 47]
أي أن لهم عذاباً قبل الآخرة .
ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب في الدنيا : { والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ }
وحين تقول : أنا استدرجت فلانا ، فأنت تعني أنك أخذت تحتال عليه حتى يقر بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم ، ويحاصره بالأسئلة من هنا ، ومن هناك ، إلى أن يقر ويعترف ، وهذا هو الاستدراج . و « الاستدراج » من الدرج ونسميه في لغتنا اليومية « السلَّم » وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلا في عمارة ما ، ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثنى عشر سنتيمتراً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويضعها على الدرج دون إرهاق النفس ، وهذا يعني أننا نستدرج العلو لنصل إليه أو ننزل منه .
وقد خصوا في الآخرة الجنة بالدرجات العليا ، والنار بالدرجات السفلى .
وهنا يقول الحق : { والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ } [الأعراف :

أي نأخذهم درجة درجة ، ونعطي لهم نعمة ثم نرهقهم بما وصلوا إليه ، كما قال سبحانه من قبل : { حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً . . . } [الأنعام : 44]
لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه في حق أخيه الإنسان في الدنيا يأخذه من أول جرم؛ لأن الأخذة في هذه الحالة ستكون لينة ، لكنه يملي له ويعليه ثم يلقيه من عَلٍ . { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً . . . } [الأنعام : 44]
وهكذا يكونُ الآخذ أخذ عزيز مقتدر .
وحينَ يستدرج البشرُ ، فإن الطرف المستدرج له أيضاً ذكاء ، ويعرف أن هذا نوع من الكيد وفخ منصوب له ، لكنْ حين يكون ربنا القوي العزيز هو الذي يستدرج فلن يعرف أحد كيف يفلت .
والعلة في قوله : { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ } هي قوله : { مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ . . . }

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183)

والإملاء هو الإمهال وهو التأخير ، أي أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر في المجتمع ، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات ، ونسمع دائماً من يقول : لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناسُ بعضهم بعضاً ، فالإيمان يُعطي الأسوة واليقين . والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى ، بلَ هو إمهال فقط ، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وهنا يوضح الحق : إذا كنت سأستدرج وسأملي فاعلم أن كيدي متين . والكيد هو المكر ، والمكر أخذهم من حيث لا يشعرون وهو عملية خفية تسوء الممكور به .
وهو تدبير خفي حتى لا يملك الممكور به ملكات الدفع . وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم ، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيدة أو مكراً؛ أيستطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً؟ . طبعاً لن يستطيع أحد ذلك . هذا هو معنى { إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } ؛ ومتين أي قوي ، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر ، ونعرف أن الظهر مُكوَّنٌ من عمود فقري وفقرات عظيمة ، تحيط بها عضلات . فلو كان العمود الفقري من عظم فقط لكان أي حمل عليه يكسره . فشاءت تجلياتُ رَبنا عز وجل واقتضت رحمتُه وقدرتُه أن يحاط هذا العظام بعضلتين كبيرتين ، وهما ما نسميه في عرف الجزارين « الفلتو » لحماية الظهر وتقويته ووقايته .
وإذا نظرنا إلى كلمة « متين » ، نجد « المتن » هو الشيء العمودي في الأشياء ، وفي العلم مثلاً ندرس الفقه وندرس النحو ، ويقال : هذا هو المتن في الفقه ، أي الكلام الموجز الذي يختزل

العلم في كلمات محددة ، والذكي هو من يستوعبه . وغالباً مع المتن الموجز شرحاً للمتن ، ثم حاشية للمتن .

ويقول الحق بعد ذلك : { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِمْ . . . }

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (184)

وهنا يُنَبّه الحقُّ سبحانه وتعالى كلَّ الخلق أن يتفكروا في أمر الرسول المبلغ الذي ينقلُ عن القوة العليا مرادَها من الخلق . وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الإنسان الذي يقول عنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولقد ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نزول الرسالة عليه ، وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله . لكنهم لا يريدون أن يسمعوا ، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالنكوص عن المنهج ، فقال بعضهم اتهاما للرسول : إنه مجنون ، مثلما قال بعضهم من قبل : إنه ساحر ، وكاهن ، وقالوا : شاعر ، ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل .

ونتساءل : من هو المجنون؟ .

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكري في الاختيار بين البدائل ، وحين يأخذ منه هذه القدرة على التوازن الفكري ، يصبح غير أهل للتكليف؛ لأن التكليف فيه اختيار أن تفعل كذا ولا تفعل كذا ، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح .

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه؛ لذلك نلاحظ الطفل وهو صغير يختار له والدهُ أو والدتُه الملابس والطعام ، وبعد أن يكبر نجد الطفل قد صار مراهقاً يتمرد ويقرر أن يختار لنفسه ما يريده لأنه قد صارت له ذاتية ، والذاتية –كما نعلم – توجد في النبات وفي الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منها قادراً على إنجاب مثله ، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان . أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية في الإنجاب والنسل ، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة في التفكير؛ فهنا يسقط عنه التكليف؛ لأنه مكره بفقدان العقل .

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذي لم يَبْلغ ، والمجنون والمكره بمن هو أقوى منه ، وهذه عدالة الجزاء من الحق ، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله ، وبهذا يحرس رَبُّنا الكون بِقَيُّومِيَّته .

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلي الذي يختار بين البديلات ، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكن قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات ، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عنده كل غالٍ نفيس لهم حتى وهم كافرون به . وخلقه الفاضل ذاتي مستمر ودائم .

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له ، وبغَوْغَائِيَّة ، وكل واحد يلقى اتهاماً ليس له من الواقع نصيب؛ لذلك قال الحقَ تبارَك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات : { قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . . } [سبأ : **46**]

أي أن يجلس كل اثنين ويتدارسا : هل محمد عاقل أم مجنون؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أنَّ محمدًا هو أكثر الناس أمانة ، وكان الجميع يسمونه الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحي ، وليس من المعقول أن يضره الوحي ، أو أن يفقد بالوحي توازنه الخلقي ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

{ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : **1-4**]

كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم خُلُقاً عظيماً؛ لأن الخُلق هو الصفات التي تؤهل الإنسان لأن يعيش في مجتمع سليم وهو مسالم . ومادام خُلُقه سليماً ، فمعيار الحكم عنده سليم .

وبعد ذلك قالوا عنه : إنه « ساحر » ، ونقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر كبار رجال قريش ليؤمنوا برسالته؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس فيها سحر على الإطلاق . { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ }

الجنَّة التي تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم - هي منتهى العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم نذير واضح ، جاءكم أولاً بالبشارة لكنكم في غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك : { أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ . . . }

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (**185**)

وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذي يأخذ بيدهم إلى الإيمان الأعلى ، ينتقل الجدل إلى التفكير ومسئوليته : { أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض }

والتفكير هو إعمال العقل حتى لا يقولَنَّ أحد : إن رسول الله مجنون ، لأن مجرد النظر في الكون يجعل الإنسان رائيا للسماء مرفوعة بلا عمد ، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك في انتظام دقيق .

{ أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض }

إذن فوقَنا سماء ، وهناك ما فوق السماء ، وتحتنا الأرض ، وفيها ما تحت الأرض ، وهناك بين السسموات والأرض . وما نراه في الظاهر هو ما يسمونه « مُلْك » أما الخفي عنك الذي لا

تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه « ملكوت » .

ويقول سبحانه في سيدنا إبراهيم : { وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض . . . } [الأنعام : 75]

فكلمة « ملكوت » معناها مبالغة في الملك ، مثل رهبوت أي الرهبة الشديدة ، ورحموت أي الرحمة الشديدة ، وكلها صيغة « فعلوت » وهي صيغة المبالغة . { أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض وَمَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ }

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح ، ولكن العظمة والسر ليسا في السماء والأرض فقط ، بل هناك أشياء دقيقة جداً ، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر ، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق . وأنت قد ترى ساعة « بيج بن » الشهيرة في لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة في العالم ، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة في حجم الخاتم ، وننبهر ونعجب بدقة عمله وصنعته . فما بالنا بالخالق الأعظم الذي يعظم خلقه من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر ، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة لا تستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر ، كالميكروب ، أو تدركها بصعوبة كالذبابة والبعوضة وبكل هذه الكائنات كل مقومات حياتها ، حتى الكائن الذي لا معدة له يجهزه خالقه بقدرة على امتصاص الدماء مباشرة بعقله أو غريزته ويسعى ليأكل ويملأ معدته وله أجهزة تحول غذائه ليكون دماً .

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط ، لذلك يقول الحق : { وَمَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ وَأَنْ عسى أَن يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ }

أي من أول شيء يقال له شيء ، صار محكوماً عليه وجودياً ، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التي نعطي له الحياة ، وتعينه ، حتى وإن كانت حواس استشعارية في ذات هذا الكائن ، ولا يقوى عليها صاحب العقل . مثال ذلك : نجد أن ما يفر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التي نتهمها بالغباء .

وحين يتأمل العقل ما وصل إليه العلم في البحث في عالم الحيوان وعالم البحار ، سنجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم . وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة ، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم .

إننا نعلم أن الإنسان جنس ، وأن له نوعين : نوع ذكورة ، ونوع أنوثة ، وبينهما جنس مشتبه نسميه الخنثى ، والأجناس لها أفراد متعددة . وكل واحد له خلق ، وكل واحد له موهبة ، وكل واحد له مهمة . وساعة يطلب منا الحق : إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد فيرك ، وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك ، ويجب عليك أن تجعل كلمة « شيء » هذه هي المقياس ، ولذلك

يقول لك الشرع : إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها ، بل قل هي ليست بشيء ذي بال . وإن همّ واحد بعمل سيئة فلا يقل : وماذا ستفعل لي سيئة واحدة؟ مستصغراً شأن هذه السيئة . وهذا نقول له : لا ، لأن كلمة « شيء » يجب أن تحكم الكون . إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً ضئيل التكوين ، ولا بسطة له في جسمه ، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة ، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة؛ لأن الله قد يعطي الضئيل فكرا عميقاً ، أو حيلة كبيرة ، أو موهبة خاصة في أي شيء . فلا تنظر إلى شيء قليل في أي إنسان ، بل انظر إلى الشيء الجميل الذي فيه وهو المخفي عنك في نفسك . { وَأَنْ عسى أَن يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ }

ولماذا تأتي هنا حكاية اقتراب الأجل؟ وللإجابة عن التساؤل أقول : إنها هامة جداً؛ لأننا مادمنا أفراداً أي جنسين أو ثلاثة أجناس ، وقال عنا ربنا إننا خلفاء في الأرض ، فعلينا أن نعلم أن الخليفة في الأرض جاء ليخلف من سبقوه ، وقد يُميت ربنا أي إنسان في سن شهر أو سنة ، أو سنتين أو خمسين عاماً؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق – تبارك وتعالى – نفسه ولا يعلمه أحد؛ لأن غاية المتساوي لابد أن تكون متساوية ، وعلى سبيل المثال : إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا : لنيل إجازة الليسانس ، وسنجد منهم الطويل ، والقصير ، والأبيض ، والأسود ، والذكي والغبي ، والقوي والضعيف ، وهم لا يتفقون إلا على دراسة الحقوق ، وكذلك لا نتساوى جميعاً كبشر إلا أمام الموت ، فهناك من يموت وهو في بطن أمه ، ومن يموت وهو طفل ، ومن يموت وهو فتى . وإن كنا نختلف فيما بقي بعد ذلك ، والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول : لا لن أموت . ومادمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت ، لتثاب على ما فعلت في الدنيا بدلاً من أن تعاقب ، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل ، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل ، والإبهام هو أوضح أنواع البيان ، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً توضيحياً كاملاً فهو يبهمه .

ومثال ذلك : لو جعل الله للموت سنّاً ، لصار الأمر محدداً بلا أمل . لكنه سبحانه لم يجعل للموت سنّاً أو سبباً ، وأشاعة في كل زمن ، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت في أي لحظة ، ونزل الموت لا يتوقف على سبب ، فقد يأتي بسبب وقد يأتي بغير سبب ، ومادام الإنسان يستقبل الموت في أي وقت ، فعلى العاصي ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله .

وإياك أن تقول : كيف مات فلان وهو غير مريض؟؛ لأن هناك العديد من الأسباب للموت ، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب ، فالإنسان الذي نفقده بالموت ، مات لأن أجله قد انتهى ، والحق هنا يوضح : أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات

وعمره سنتان ، ومن مات وعمره ثلاث سنوات ، ومن مات وهو ظالم ، ومن مات وهو مظلوم ، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تساوي هذه الحياة؟ . وما ذنب الذي لم يعش في الدنيا إلا شهرا؟ لابد أن تعرفوا أن هناك غاية تنتظركم ، غايات فردية هي آجال الناس بذواتهم ، وآجال إجماعية تتمثل في يوم القيامة .

وفي قوله تعالى : { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ }

يوضح الحق تبارك وتعالى : إنه إذا كان هذا الحديث الذي أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع ، ويجمع كل أنواع الكمالات ، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟

وهل في اتباعهم للأهواء ولتقنينات بعضهم لبعض سعادة لهم؟ بالعكس إنهم يشقوْن بذلك .

وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول .

ولذلك يقول سبحانه وتعالى : { مَن يُضْلِلِ الله . . . }

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

وقد كرر الحق هذا كثيراً ، لأن الأشياء التي قد يقف العقل فيها ، أو تأخذه مذاهب الحياة منها ، ويكررها الله ، ليجعلها في بؤرة الاهتمام دائماً ، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من السامع .

وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه في سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر في ذهن السامع . { مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ }

وسبحانه لا يرغم واحداً على أن يهتدي ، فإن اهتدى فلنفسه ، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال .

وكلنا نعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض ، ليتم الشفاء بإذن من الله ، الدواء إذن وسيلة إلى العافية ، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل في ذلك إساءة للطبيب؟ لا . وكذلك منهج الله . { مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ }

لكن هل يريد الله الضلال لأحد ، لا ، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة ، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة ، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء . ولذلك يقول لنا الشرع : إياك أن تشرك بالله شيئاً في أي عمل؛ لأن ربنا يقول لنا في الحديث القدسي الذي يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول : قال الله تبارك وتعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه »

ومعنى الشركة في عرف البشر ، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم ، وموهبة كل منهم ، لا تكفي لإقامة مشروع ما ، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين ، فهل هناك ما ينقص ربنا ليستكمله من آخر؟ حاشا لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكاً يجعل الله

رافضاً لعبادة العبد المشرك . لذلك يقول في الحديث القدسي : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه » . ومادام ربنا قد تنازل عن رعايته له فليتلق المتاعب من حيث لا يدري .

ومن قوله تعالى : { مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ }

نتبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن يعدّل على الله ، ليجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من في قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً ويتركهم في طغيانهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو فقدان العين للبصر .

ويقل الحق – تبارك وتعالى – بعد ذلك : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة . . . }

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)

والمسئول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذي القرنين ، فكان الجواب منه مطابقاً لما عندهم في التوارة لأنهم ظنوا أن الكلام الذي يقوله محمد إنما يأتي منه جزافاً بدون ضابط وليس من رب يُنْزِله . فلما أجاب بما عندهم في التوراة ، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده ، ولذلك سألوه أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم ، وكانوا جماعة في الزمن الماضي ، واتفقوا معه على كل شيء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه : { وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعاً } [الكهف : 25]

فقال اليهود : الثلاثمائة سنة نعرفها ، أما التسعة فلا نعرفها ، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله . . . } [التوبة : 36]

إذن التوقيتات كلها حسب التوقيت العربي ، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال ، والمثال أن كل عَالَم البحار تكون الحسابات المائية فيها كلها بالهلال ، لأنه أدق ، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر ، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل ، بينما القمر دلالة شهرية ، ومجموع الاثنى عشر هو الدلالة السنوية . لكنهم لم يفطنوا إلى هذه ، وأخذوا على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي ، وأضاف الحق : { وازدادوا تِسْعاً } لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين .

ومادة السؤال في القرآن ظاهرة صحية في الإيمان؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة ب « افعل » و « لا تفعل » ، وساعة يقول الشرع : افعل ، ففي ظاهر هذا الفعل مشقة ، وساعة يقول : لا تفعل ففي ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب ، والمنع عنه يناقض شهوات النفس . وللتأكد من أن الأسئلة ظاهره صحية من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة موجهة لرسول الله من أمته ، حكاها القرآن بصور متعددة ، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله : { ويَسْأَلُونَكَ } ؛ ومرة ورد بصورة فعل ماض « وإذا سألك » . وكثيراً ما جاء السؤال بهيئة المضارع { يَسْأَلُونَكَ } ، لأن المضارع يكون للحال وللاستقبال .

وجاءت الأسئلة بالقرآن في صيغة المضارع خمس عشرة مرة ، وجاءت بصيغة الماضي مرة واحدة . وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة مِنْها جاءت لتبين حكماً . وإذا نظرنا إلى مادة الفعل « يسأل » في القرآن وبترتيب المصحف ، نجد القرآن يقول : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ . . . } [البقرة : 189]

ويقول سبحانه : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربين . . . }

[البقرة : 215]

ويقول الحق تبارك وتعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله والفتنة أَكْبَرُ مِنَ القتل . . . } [البقرة : 217]

ويقول سبحانه وتعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . . } [البقرة : 219]

ومرة أخرى يقول في ذات الآية السابقة : { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو . . . }

ويقول سبحانه وتعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ . . . } [البقرة : 220]

ويقول عز وجل : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا النسآء فِي المحيض . . . } [البقرة : 222]

ويقول الحق تبارك وتعالى : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات }

وبعد ذلك في سورة الأعراف يقول : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي . . . } [الأعراف : 187]

وأيضاً يقول سبحانه : { يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا . . . } [الأعراف : 187]

ثم يقول الحق : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول . . . } [الأنفال : 1]

ويقول الحق تبارك وتعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي . . . } [الإسراء :

[85
ويقول المولى سبحانه : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً } [الكهف : 83]
ويقول الحق : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً } [طه : 105]
ويختم هذه الأسئلة بقوله : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا } [النازعات : 42-43]
تلك هي خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله { يَسْأَلُونَكَ } ، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ . . . } [البقرة : 186]
والآيات الخمس عشرة التي جاء فيها الحق بصيغة المضارع { يَسْأَلُونَكَ } نجد كل جواب فيها مُصدرا ب « قل » وهو أمر للرسول : قل كذا ، قل كذا ، ولكن في الآية الواحدة التي جاء فيها الفعل الماضي { وَإِذَا سَأَلَكَ } ، لم يقل : فقل إني قريب ، بل قال : { فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع } ، لأن الله يعلم حب محمد لأمته ، وحرصه عليهم ولذلك يقول : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3]
ويقول سبحانه : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6]
ولذلك حين علم الحق علم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسؤوه فيها ، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه في أمته .
وقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد روى عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما « أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم صلى الله عليه وسلم { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم } فرفع يديه فقال : أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك »

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسوله على أمته ، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرّم به الرسول ، فجاء الخطاب في آية الدعاء بدون « قل » . { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . . } [البقرة : 186]
وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمته أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط ، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه .

لذلك نجد أربع عشرة آية تأتي فيها { يَسْأَلُونَكَ } وتكون الإجابة « قل » ، والآية الخامسة عشرة جاء فيها { يَسْأَلُونَكَ } وكانت الإجابة « فقل » لتدل على « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد ، فكأن الفاء دلت على شرط مقدر هو : إن سألوك فقل ينسفها ربي نسفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187]

و « يجْليها » أي يُظهرها ، وهناك ما يسمى « الجلوة » وما يسمى « الخلوة » ، و « الجلوة » أن يظهر الإنسان للناس ، و « الخلوة » أن يختلي عن الناس ، و « لا يجليها » أي لا يظهرها ، و « لوقتها » ترى أنها مسبوقة باللام ، ويسمونها في اللغة العربية « لام التوقيت » ، مثلما يقول الحق سبحانه : { أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس . . . } [الإسراء : 78]

وهي بمعنى « عند » ، ومعنى دلوك الشمس ، أنها تتجاوز نصف السماء ، وتميل إلى المغرب قليلاً . وقوله : { لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ } أي لا يُبَيّنُها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى . { ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً }

والثقل يعني أن تكون كتلة الشيء أكبر من الطاقة التي تحمله؛ لأن الكتلة إن تساوت مع الطاقة فهي لا تثقل على الحمل .

أو أن الطاقة التي تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض؛ فيكون الشيء ثقيلاً ، وقد يكون هذا الثقل أمْراً ماديا ، كما يحمل الإنسان – مثلاً – على ظهره أردباً من القمح فيقدر على حمله ، لكنه إن زاده إلى أردب ونصف ، فالحمل يكون ثقيلاً على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن « فينخ » به . { ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض }

والثقل لا يكون مادياً فقط ، بل هو فكري وعقلي أيضاً ، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل هندسي أو تمرين في مادة الجبر ، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره ، وصعب الحل في بعض الأحيان .

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس في ملكاتها ، مثل الهم جاثم على الصدر وثقيل عليه ، وهو أقسى أنواع الثقل ، ولذلك فالشاعر القديم يقول :

ليس بحمل ما أطاق الظهر ... ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال : ثقل مادي ، وثقل فكري ، وثقل نفسي .

و { ثَقُلَتْ فِي السماوات } ، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة . ونعلم أن الملائكة أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة ، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر ، أما الملائكة فهي ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها ، وبعضها يخدم البشر ، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون

بمصالحه ، وبحياته ، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيداً جديداً للكون . فكونوا جميعاً مسخرين في خدمته ، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون ، ولهم إلف بالخلق ، إلف كاره للعاصي ، وإلف محب للطائع . ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به . وإن وقع من الطائع زلة ، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى . ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً »

ونعلم أن المنفق سيأخذ ثواب إنفاقه ، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه . وهكذا تدعو لنا الملائكة .

و « ثقلت » هنا تعني أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا ، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم في السموات وكذلك من هم في الأرض ، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة ، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يعطي لها صورة توضح قوله الحق : { لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً }

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التي تأتي عليها فيقول : « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقيم سلعته في السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه »

ومثل هذه التوقعات تخيف .

وقوله الحق : { ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً }

أي أن الواقع في هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتي بغتة ، أي يجيء من غير استعداد نفسي لاستقباله . ويتابع سبحانه : { يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا }

وحفيَ من الحفاوة ، والحفيّ هو المُلِحُّ في طلب الأشياء ، مثل التلميذ الذي يتوقف عند درس لا يفهمه ، فيسأل هذا ، وذاك إلى أن يجد إجابة .

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه ، والحفى أيضاً عالم بما يسأل عنه ، وسبب العلم أنه ألحّ في السؤال عليها .

والأمور التي يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر في مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتةَ بمكان ، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن يعالجه ، فيقطع المسافة إلى المكان الثاني لتحقيق هذه المهمة ، إنما يمشي ويسعى على رجليه ، و « يدوب » النعل الذي يضعه في قدميه من المشي فيقال عنه إنه : « حافي » .

ولذلك يقال : حفي فلان إلى أن وصل للشيء الفلاني ، أي سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات ، مزقت نعله حتى جعلته يمشي حافياً . وهنا يقول الحق على ألسنة القوم : { كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا } أي أنك مُعْنى بها ، ودائب السؤال عنها ، وعارف لها .

وتأتي الإجابة من الحق : { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله }

وفي ذات الآية سبق أن قال : { عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي }

والربوبية متعلقها الخلق ، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر ، والأوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج ، وجاء الحق في هذه الآية ، مرة بالربوبية ، ومرة بالألوهية . والأولى هي علة الثانية ، فأنت أخذت الله معبوداً ، وأطعته لأنه خلقك ووضع لك المنهج ، ولا يذخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شيء ويمنحه البركة ، وكذلك يعطي الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب في الدنيا أو الآخرة ، لذلك هو الإله الحق الذي نتبع منهجه . { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ }

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها ، وسبحانه هو القائل : { إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى } [طه : 15]

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله .

ويقول سبحانه وتعالى : { قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً . . . }

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)

ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله : أنتم تسألونني عن الساعة ، وأنا بشر ، ومتلقّ فقط ، والإرسال بالمنهج يأتي من الله وأنا أبلغه ، ولا علم لي بموعد قيام الساعة ، ولا أملك لنفسي لا ضراً ولا نفعاً ، أي لا أملك أن أدفع الضر عني أو أجذب النفع لنفسي ، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر ، فالإنسان يملك ما يعطيه الله ، والعاقل حين يملك ، يقول : إن هذا ملك عَرَضي ، لا آمن أن ينزع مني . لذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران : 26]

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : { قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَآءَ الله }

أيْ أنَّ أحداً لا يملك شيئاً إلا ما شاء الله أن يملكه ، ورسول الله من البشر . ويضيف : { وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السواء . . . } [الأعراف : 188]

ومحمد صلى الله عليه وسلم لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، فقد حارب ، وانتصر ، وحارب وانهزم ، وتاجر فربح ، ويسير عليه ما يسير على البشر ، ومرة يدبر الأمر الذي لم يكن

فيه منهج من السماء ، فمرة يصيب ومرة يخطيء . فيصحح له الله؛ لذلك يأتي القول على لسانه بأمر من الله : لو كنت أعلم الغيب لما وقعت في كل هذه المسائل ، وكان أهل رسول الله من قريش قد قالوا : إننا أقاربك ، فقل لنا على موعد الساعة . حتى نستعد لملاقاتها .

ويتابع المولى سبحانه قوله : { وَمَا مَسَّنِيَ السواء إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

وساعة ترى « إن » فهي مرة تكون شرطية مثل : « إن ذاكرت تنجح » ، ومرة تكون للنفي وتجد بعدها اسما ، والمعنى : ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون . والكلام موجه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالنذارة وبالبشارة ، وما يُنذروا به لا يفعلوه ، وما يبشروا به يفعلوه .

ويقول الحق بعد ذلك : { هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . }

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189)

وقوله تعالى : { خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } المقصود بها آدم ، وقول الحق : { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } المقصود بها حواء ، ونلحظ في الأداء في هذه الآية أن الضمير عائد إلى مؤنث . { هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا }

ثم جاء بالتذكير في قوله : { لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا }

إذن فصل الذكورة عن الأنوثة جاء عند { لِيَسْكُنَ } . فكأن الكلام في النفس معنيٌّ به جنس بني آدم وهو الذي نسميه « الإنسان » ومنه ذكورة ومنه أنوثة ، ولذلك فسبحانه حينما يتكلم عن الذكورة كذكورة ، والأنوثة كأنوثة ، يأتي بضمير المذكر ، أو بضمير المؤنث ، وقوله : { لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } .

لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جُعلَت للرجل سكناً ، لا يقال : إنها له سكن إلا إذا كان هو متحركاً ، كأن الحركة والكدح في الحياة للرجل ، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان ، بالعطف ، بالرقة . أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له . وقول الحق تبارك وتعالى : { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } .

يذكرنا بما عرفناه من قبل من أن الله خلق آدم من الطين ومن الصلصال ثم نفخ فيه ربّنا الروحَ ، أما حواء فقد ذكرها في هذه المسألة ، وأوضح : أنا جعلت منها زوجها ، و « منها » أي أنها قطعة منه ، وقيل : إنها خلقت من ضلع أعوج ، ومن يرجع هذا الرأي يقول لك : لأن الله يريد أن يجعل السكن ارتباطاً عضويا ، فالمرأة بعض من الرجل ، ونعرف أن الواحد منا يحب ابنه لأنه بعض منه . وعلى ذلك فهذا القول جاء لتقديم الألفة . وهناك من يقول : إن حواء خلقت مثل آدم فلماذا جاء ذكر آدم ولم يأت بذكر حواء؟

ونقول : إن آدم أعطى الصورة في خلق الإنسان من طين ، لأن آدم هو الرسول وهو المسجود له . ونعلم أن المرأة دائما مبنية على الستر . ومثال ذلك نجد الفلاح في مصر لا يقول : زوجتي ، بل يقول : « الجماعة » أو « الأولاد » أو يقول : « أهلي » ولا يذكر اسم الزوجة أبداً .

والحق يقول هنا : { وَجَعَلَ مِنْهَا } ، فإن كانت مخلوقة من الضلع ف « مِنْ » تبعيضية ، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون « مِنْ » بيانية ، أي من جنسها ، مثلها مثلما يقول ربنا : { هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ . . . } [الجمعة : 2] .

أي الرسول من جنسنا البشري ليكون إلف المبلغ عن الله ، والمبلغ عن الله واحدا منا ونكون مستأنسين به ، ولذلك قلنا : إن اختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم من البشر فيه رد على من أرادوا أن يكون الرسول من جنس آخر غير البشر ، فقال الحق على ألسنتهم : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً }

[الإسراء : 94] .

ويأتي الرد عليهم : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95] .

ثم لو كان الرسول من جنس الملائكة فكيف كانوا يرونه على حقيقته؟ كان لا بد أن يخلقه الله على هيئة الإنسان .

ويتابع سبحانه : { فَلَماَّ تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً }

و { تَغَشَّاهَا } تعبير مهذب عن عملية الجماع في الوظيفة الجنسية بين الزوج والزوجة ، والغشاء هو الغطاء ، وجعل الله الجماع من أجل التناسل ليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .

والمعنى هنا أنها حملت الجنين لفترة وهي لا تدري أنها حامل ، لأن نمو الجنين بطيء بطيء لا تشعر الأم به . { فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّآ أَثْقَلَتْ دَّعَوَا الله رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين } [الأعراف : 189] .

ومرت به ، مقصود بها أنها تتحرك حركة حياتها قياماً وقعوداً إلى أن تثقل وتشعر بالحمل في شهوره الأخيرة .

وهنا عرف الزوج أن هناك حملا ورفع الاثنان أيديهما بالدعاء لله عز وجل أن يكون الولد صالحاً بالتكوين البدني وصالحاً للقيام بقيم المنهج . { هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } [الأعراف : 189] .

أي أن الذكورة قد انفصلت عن الأنوثة ، وصار الذكر يسكن عند الأنثى .

وهكذا كان الأمر الخاص بآدم ، ثم جاء الكلام للذرية ، وخصوصاً أن حواء كانت تحمل بذكر وأنثى ، وآدم وحواء وأولادهما هم أصل التواجد البشري وأصل التوالد .

والقرآن قد يتكلم في موضوعات تبدو متباعدة . لكنها تضم قيماً ذات نسق فريد ، فنجد الحق يتكلم في أمر ثم يتكلم في آخر ، مثل قوله : { هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ . . . } [يونس : 22] .

ولم يأت بسيرة البر هنا ، بل تكلم بالبر والبحر ثم انتقل إلى الحديث عن مجيء الموت ، وأيضاً انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً . . . } [الأحقاف : 15] .

هنا يوصي الحق الإنسان بوالديه ، بالأب وبالأم ، ثم يتابع : { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . } [الأحقاف : 15] .

ولم تأت سيرة الرجل بل كل الحيثيات للأم .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك : { فَلَمَّآ آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَآءَ . . . } .

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190)

ويروى أن هذه الآية قد نزلت في « قُصَيّ » وهو جد من أجداده صلى الله عليه وسلم ، فقد طلب « قُصَيّ » من الله أن يعطي له الذرية الصالحة ، فلما أعطاه ربنا الذرية الصالحة سماها بأسماء العبيد ، فلم يقل : عبدالله أو عبدالرحمن ، بل قال : عبدمناف ، عبدالدار ، عبدالعزى . وجعل لله شركاء في التسمية ، ولهذا جاء قول الحق : { جَعَلاَ لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ آتَاهُمَا } ؛ ليدلنا على أن الإنسان في أضعف أحواله ، أي حينما يكون ضعيفاً عن استقبال الأحداث ، يخطر بباله ربنا؛ لأنه يحب أن يسلم نفسه لمن يعطي له ما يريده ، وبعد أن ينال مطلبه ينسى ، ولذلك يقول الحق : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . } [يونس : 12] .

إذن فائدة الضر أنه يجعلنا نلجأ إلى ربنا ، ولذلك نجد الإنسان أحسن ما يكون ذكراً لله وتسبيحا لله حينما يكون في الشدة وفي المرض ، ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه في مرضه وشدته ، لا أقول : إنه قد يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة . لا ، بل عليه فقط ألا يضجر وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي . إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدوّ مّلكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قول إلا بك » .

والإنسان ساعة يوجد في المرض عليه أن يعرف النعمة فيه ، فهو في كل حركة من حركاته يذكر الله ، وكما تخمد فيه طاقات الاندفاعات الشهوانية ، يمتلىء بإيجابيات علوية ، ولذلك نجد الحديث القدسي يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى :

« يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال : وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال : يا رب . كيف أطعمك ، وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان ، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، قال : يا رب . كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي » .

إذن ماذا عن حال مريض يستشعر أن ربه عنده ، ويكون في المرض مع المنعم ، وفي الصحة مع النعمة . { فَلَمَّآ آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ آتَاهُمَا فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الأعراف : 190] .

ومعنى هذا أن ربنا تبارك وتعالى ينزه نفسه عما يقول فيه المبطلون ويشركون معه ما يزعمون من آلهة . ولذلك يقول سبحانه وتعالى : { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ . . . }

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191)

أيشركون في عبادة الله من لا يخلقون شيئاً ، وهم أنفسهم مخلوقون لله ، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل ، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة . { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ }

ولذلك فإن هناك آية أخرى تفضح زعمهم يقول فيها الحق تبارك وتعالى : { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . . } [الحج : 73] .

ونعلم أن البشر في المعامل قد عرفوا العجز عن خلق خلية واحدة وهي التي لا ترى بالعين المجردة ، ولذلك أوضح الحق أن المسألة ليست أمر خلق ، بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو في خرطومه شيئاً ، لن يستطيع أحد أن يسترد المأخوذ منه ، فقد ضعف الطالب والمطلوب .

والخلق –كما نعلم – أول مرتبة من مراتب القدرة ، فإذا كانت الأصنام التي اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم ، فكيف يعبدونها؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل . بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم . ونلحظ أن الحق جاء هنا بالقول : { أَيُشْرِكُونَ } بصيغة تعجب ، والتعجب ينشأ عن إنكار ما به الاستفهام ، أي تعجب منكراً على وفق الطباع العادية ، مثلما يقول لنا : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله . . . } [البقرة : 28] .

أي قولوا لنا ما الطريقة التي بها تكفرون بالله وتسترون وجوده ، مع هذه الآيات البينات الواضحات؟ فكأن ذلك أمْر عجب يدعو أهل الحق للدهشة والاستغراب والإنكار الشديد ، وحينما يتكلم الحق بإنكار شيء لأنه أمر عجيب ، يوجه الكلام مرة إليهم ، ومرة أخرى يوجهه إلى غيرهم ، مثل قوله هنا : { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ }

والكلام للمؤمنين لأنه يريد أن يعطي لقطتين في الآية ، اللقطة الأولى : أن ينكر ما فعله هؤلاء ، وأن يزيد القوم الذين لم يفعلوا ثقة في نفوسهم ، وفرحة بمواقفهم الإيمانية ، حيث لم يكونوا مثل هؤلاء { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } .

وفي الآية الكريمة وقفة لفظية في الأسلوب العربي نفسه قد تثير عند البعض إشكالا ، في قوله تعالى : { مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً } . و « ما » تعني الذي لم يخلق شيئاً ، و « يخلق » هنا للمفرد ، وسبحانه وتعالى جعل للمفرد هنا عمل الجمع فقال : { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً } .

وأقول : إن الذي يقف هذه الوقفة ، ويلاحظ هذا الملحظ إنسان سطحي الثقافة بالعربية ، لأنه لا يعلم أن « ما » و « من » و « ال » تطلق على المفرد والمفردة ، وعلى المثنى والمثناة ، وعلى جمع الذكور وجمع الإناث ، فتقول : جاءني من أكرمته ، وجاءتني من أكرمتها ، وجاءني من أكرمتهما ، وجاءت من أكرمتهما ، وجاء من أكرمتهم وجاء من أكرمتهن .

وكذلك « ما » . إذن فقول الحق : { مَا لاَ يَخْلُقُ } في ظاهرها مفرد ، ولكن اللفظ يطلق على المفرد والجماعة؛ لذلك جاء في الأمر الثاني وراعى الجماعة ، إذن « يخلق » للمفرد ، و « هم يخلقون » للجمع لأن قوله : « ما » صالح للجميع أي للمفرد وللمثنى وللجمع وللمذكر وللمؤنث .

ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ . . . } [محمد : 16] .

وسبحانه قال هنا : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } ، ولم يقل : « حتى إذا خرج من عندك » بل قال : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ } أي أنه جاء بالجماعة ، فإذا رأيت ذلك في « ما » و « من » و « ال » فاعلم أن هذه الألفاظ يستوي فيها المفرد والمفردة والمثنى والمثناة وجمع الذكور وجمع الإناث . { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } .

وهنا في هذه الآية وقفة لغوية أخرى في قوله : « هم » وهي لا تطلق إلا على جماعة العقلاء ، فكيف يطلق على الأصنام « هم » وليست من العقلاء؟ وأقول : إن الحق سبحانه وتعالى لما علم أنهم يعتقدون أنها تضر ، وأنها تنفع ، فقد تكلم معهم على وفق ما يعتقدون ، لكي يرتقي معهم في رد الإنكار لكل ما يستحق الإنكار . فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق ، وثاني مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون والأصنام لا تقدر على نصرهم ، إذن فهم معطلون من كل

ناحية؛ لأنهم لا يخلقون . وهذا أول عجز ، ومن ناحية أخرى أنهم يُخْلَون وهذا عجز آخر ، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثاني فهل هم قادرون على نصر غيرهم؟ ها هو ذا سبحانه يترقى في الحوار معهم ترقية أخرى فيقول : { وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً . . . }

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192)

إذن فلا أحد من الأصنام قادر على أن ينصر نفسه أو يضمن نصر غيره .
وهكذا نجد الترقي في الحوار على أربع مراحل ، أولاً : لا يخلقون ، ثانياً : هم يُخلَقون ، ثالثاً : لا ينصرونكم ، ورابعاً : ولا ينصرون أنفسهم . ثم تأتي المرحلة الخامسة في قوله الحق : { وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ . . . }

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193)

وعلى ذلك فهي خمس مراحل – إذن – ، أكررها لتستقر في الذهن ، أولها أنه من الجائز أنه لا يَخلُق ، ومن الجائز أن يكون مخلوقاً ، ومن الجائز أنه لا يقدر أن ينتصر لغيره لأنه ضعيف ، ولا ينتصر لنفسه لأنه أضعف ، ومع ذلك إن أردت أن تهديه إلى شيء من ذلك أو إلى شيء من العلم فلا يقبل منك .
وكانوا في الجاهلية حين يفزعهم أمر جسيم ينادونهم ويقولون : يا هبل ، يا لات ، يا عزى . وإن لم يصبهم أمر سكتوا عن نداء الأصنام؛ لذلك يقول لهم الله من خلال الوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامتون } [الأعراف : 193] .
أي إن دعوتكم لهم لا تفيد في أي أمر تماماً كصمتكم .
ونلحظ أن الأسلوب هنا مختلف { سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ } فلم يقل : « أدعوتموهم أم صَمَتّم »؛ لأن الفعل يقتضي الحدوث ، ولنا أن نعرف أنهم كانوا لا يفزعون إلى آلهتهم إلا عند الأحداث الجسام . أما بقية الوقت فقد كانوا لا يكلمونهم أبداً؛ لذلك جاءت « صامتون » لازمة ، لأنها اسم ، والاسم يقتضي الثبوت والاستمرار ، أما الفعل فيقتضي الحدوث والتجدد .
والحق هنا يبلغ المشركين : سواء عليكم أدعوتموهم أم لم تدعوا ، فعدم الاستجابة متحقق فيهم وواقع منهم ، وعدم النصر لأنفسهم ولغيرهم متحقق منهم .
ثم يتكلم الحق عن قضية أخرى فيقول : { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله . . . }

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194)

و { تَدْعُونَ } لها معنيان ، المعنى الأول يعني أنكم قد تتخذونهم آلهة وتعبدونهم ، والمعنى الثاني هو أن يقال : « تدعونه » أي تطلب منه شيئاً . والمعنيان يجيئان في هذه الآية : { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادعوهم } .

وعنْدَما يسمع الإنسان كلمة « عباد » يفهم أنها من الجنس المتعقل الحي ، فكيف تكون الأصنام عباداً؟ وأقول : نحن هنا نأخذها على شهرة اللفظ ، أما إذا أردنا تحقيق اللفظ وتعقيده ، فالبناء مأخوذ من التذلل والخضوع ، ألم يقل موسى لفرعون : ؟ { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء : 22] .

أي أذللتهم . وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها تكون الأصنام عباداً أمثالهم في أنهم يُذلون؛ لأن السيل إذا نزل أو هبت الريح نجد هذه الأصنام قد وقعت وتكسرت رقابها ، فيهرع المشركون ليأتوا بمن يعيد ترميم هذه الآلهة!! إذن فأنتم أيها المشركون؛ لأنكم مخلوقون بالله قد تملكون قدرة ، وقوة تستطيعون بها إن جاء لكم ضر أن تدفعوا الضر عنكم ، أما الأصنام فليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها ، أو يكسرها ، أو يقبلها ، فهي أضعف منكم .

وبذلك تكون كلمة { عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } لوناً من الترقي .

وعلى فرض أنهم عباد أمثالكم ، فالعبد من الأحياء حينما يأتي شيء يستذله ، قد يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض الشيء إلا إن كان الشيء قويا فوق طاقته . فالمراد والمقصود أنهم عباد أمثالكم أي مذللون ومسخرون ولا يستطيعون دفع شيء عن أنفسهم . وأنت إذا ما نظرت إلى هذه المسألة وأخذت معنى عباد على معناها الإطلاقي ، فأنت تعلم أن العبد هو كل مسخر مذلل من العباد .

لكن هناك مذلل ومسخر فيما لا اختيار له فيه ، وآخر مذلل ومسخر فيما له فيه اختيار أيضاً ، والفرق بين الاثنين أن الكافر فيما له اختيار؛ إما أن يؤمن وإما أن لا يؤمن ويختار الكفر ، بل إن الإنسان المؤمن له الاختيار في أن يطيع أو يعصي . ولكن هناك أشياء أخرى تجري على الإنسان لا اختيار له فيها ، كأن يمرض ولا يقدر أن يقول : لا لن أمرض ، أو قد يأتيه الموت فلا يقدر أن يقول : لن أموت . وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع دفع القدر ، وكل هذه أمور قهرية يكون الإنسان فيها مذللاً مسخراً ، والكافر والمؤمن في هذه الأمور سواء .

والمؤمن يتميز بأنه يتبع منهج الله فيما له فيه اختيار ، وهذه فائدة الإيمان ، وبذلك يخرج المؤمن عن الاختيار المخلوق لله ، إلى مراد الله منه في الحكم ، ويستوي بكل شيء مسخر لله ، ولذلك نقول للذين يكفرون : كفرتم وتأبيتم بما خلق فيكم من الاختيار عن الإيمان بالله .

وقد جعلها الله لكم بقوله :

{ . . . فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29]

وما دام الواحد منكم أيها الكافرون يتأبى ويستكبر على حكم الله ، إذن فللواحد منكم أيها الكافرون رياضة على التمرد ، فلماذا لا تقول للمرض لن أستسلم لك . ولن يستطيع أحد الكافرين ذلك ، لأنه إنما يكفر بما له حق ممنوح من الله في منطقة الاختيار ، أما في غير ذلك فالكل عباد مذللون . { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادعوهم فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ } [الأعراف : 194]

وقول الحق تبارك وتعالى : { فادعوهم } أي اطلبوا منهم أن يلبوا لكم أي طلب ، وهم لن يستجيبوا لكم؛ لأنهم لا يقدرون أبداً . وفي هذا القول لون من التحدي { فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ } لكنهم لن يستجيبوا ، فليست لهم قدرة لأن يخرجوا على أمر ربنا ويقولوا سنعطيكم ما تطلبون ، لأن طاقتهم وطبيعتهم لا تقدر أن تستجيب .

وبعد أن قال الحق عن الأصنام : إنهم عباد أمثالكم ، أراد أن ينزلهم منزلة أدنى من البشر فقال : { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ . . . }

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195)

وينبه الحق تبارك وتعالى كل مشرك ، وكأنه يقول له : أنت لك رجل تمشي بها ، ولك يد قد تبطش بها ، ولك أذن تسمع ، ولك عين تبصر ، فهل للأصنام حواس مثل هذه؟ . لا ، ليست لهم ، إذن ، فالأصنام أقل منك ، فكيف تجعل الأقل إلهاً للأكبر؟ إن هذا هو جوهر الخيبة .

وقوله : { يَمْشُونَ بِهَآ } ، و { يَسْمَعُونَ } و { يُبْصِرُونَ } جاءت لأن المشركين صوروا التمثال وله رجلان وله اذنان وله عينان ويضعون في مكان كل عين خرزة لتكون مثل حدقة العين ، وحين ينظر إنسان منهم إلى التمثال يخيل إليه أن التمثال ينظر إليه . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { . . . يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ } [الأعراف : 198] .

وفي قوله تعالى : { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . . } [الأعراف : 195] .

حين يعرض الحق مثل هذه الأمور بأسلوب الاستفهام . فإنما يريد أن يحقق المسائل عن أقوى طريق ، لأن الاستفهام لا بد له من إجابة . والكلام من الله عند الكافر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . وإجابة الكافر ستكون قطعاً بعدم استطاعة الأصنام المشي أو اللمس أو الرؤية أو السماع؛ لذلك أراد الحق ألا يكون الحكم من جهته . بل الحكم من جهة المشركين ، وفي هذا إقرار منهم . ولذلك يقول الحق مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم . { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الانشراح : 1] .

أما كان يستطيع سبحانه وتعالى أن يقول : شرحنا لك صدرك؟ كان يستطيع ذلك . ولكنه يأتي بالاستفهام الذي يكون جوابه : بلى لقد شرحت لي صدري . وينبه قوله تعالى : { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . . } إلى مقارنة الأصنام بالبشر . فالبشر لهم أرجل وأيْدٍ وأعين وآذان ، وكل من هذه الجوارح لها عمل تؤديه ، وهكذا يتأكد للمشركين أنهم أعلى مرتبة من أصنامهم . فكيف يجوز في عرف العقل أن يكون الأعلى مرتبة مربوباً للأدنى مرتبة؟ إن ذلك لون من الحمق . { . . . قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ }

ورسول الله جاء بهذا القول ليدحض إيمانهم بهذه الأصنام التي اتخذوها آلهة وليسفه أحلامهم فيها ، وبذلك أعلن العداوة ضدهم – العابدين ، والمعبودين – وصارت خصومة واقعة ، وسألهم أن يدعوا الشركاء ليكيدوا لرسول الله بالأذى أو التعب أو منع النصر الذي جاء للإسلام ، إن كانت عندكم أو عندهم قدرة على ضر أو نفع { قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ } . ويتحداهم صلى الله عليه وسلم أن يكيدوا هم وآلهتهم ، والكيد هو التدبير الخفي المحكم . وانظروا ما سوف يحدث ، ولن يصيب رسول الله بإذن ربه أدنى ضر .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى قد أجرى على رسول الله أشياء ، ليثبت بها أشياء ، وقد قالوا : إن واحداً قد سحر النبي ، ولنفرض أن مثل ذلك السحر قد حصل ، فكيف ينسحر النبي؟

ونقول : ومن الذي قال : إنه سحر؟ .

إن ربنا أعلمه بالساحر وبنوع السحر ، وأين وضع الشيء الذي عليه السحر ، ليبين لهم أن كيدهم حتى بواسطة شياطينهم مفضوح عند الله . { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . . . } [الأنفال : **30**] .

وهم كانوا قد بيتوا المكر لرسول الله وأرادوا أن يضربوه ضربة واحدة ليتفرق دمه في القبائل ، فأوضح ربنا : أنتم بيتم ، ولكن مكركم يبور أمام أعينكم . وليثبت لهم أنهم بالمواجهة لن يستطيعوا مصادمته في دعوته . ولا بالتبييت البشري يستطيعون أن يصدموا دعوته ، ولا بتبييت الجن – وهم أكثر قدرة على التصرف – يستطيعون مواجهة دعوته . وما داموا قد عرفوا أنهم لن يظهروا على الرسول ، ولن يفيد مكرهم أو سحرهم أو كيدهم مع شياطينهم ، إذن فلا بد أن ييأسوا ، ولذلك تحداهم وقال : { . . . قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ } [الأعراف : **195**] .

وأنظره يعني أخره ، والقول هنا : لا تؤخروا كيدكم مع شركائكم ، بل نفذوا الكيد بسرعة ، وقد أمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما آوى إلى ركن شديد؛ لذلك يقول رسول الله بأمر الحق : { إِنَّ وَلِيِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكتاب . . . }

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196)

وما دام الوليّ هو الله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبالي بهم ، و « الولي » هو الذي يليك ، وأنت لا تجعل أحداً يليك إلا أقربهم إلى نفسك ، وإلى قلبك ، ولا يكون أقربهم إلى نفسك وإلى قلبك ، إلا إذا آنست منه نفعاً فوق نفعك ، وقوة فوق قوتك ، وعلماً فوق علمك ، وقول الرسول بأمره سبحانه وتعالى : { إِنَّ وَلِيِّيَ الله . . . }

أي أنه ناصري على أي كيد يحاول معسكر الشرك أن يصنعه أو يبيته لي . فالله هو ولي الرسول أي ناصره ، والقريب منه بصفات الكمال والجلال التي تخصه سبحانه وتعالى ، وعندما يكون لمؤمن خصلة ضعف فهو يذهب لمن عنده خصلة قوة ، ولذلك قلنا في قصة موسى عليه السلام حين التفت قومه ووجدوا قوم فرعون فقالوا : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ }

أي أن جيش فرعون سيدركهم ، لأن البحر أمامهم والعدو وراءهم . وليس أمامهم فسحة أمامية للهرب ولا منفذ لهم إلا أن يصمدوا أمام جيش فرعون وهم بلا قوة ولم يكذبهم موسى عليه السلام في قولهم . بل قال لهم يطمئنهم : {كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] . وهنا خرجت المسألة عن أسباب البشر وانتهت إلى الركن الشديد الذي يأوي إليه الرسل . ولا يقول هذا القول إلا وهو واثق تمام الثقة من نصرة الله ، وسبق أن رويت لكم حكاية المرأة الأوروبية التي أسلمت لأنها كانت تقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كبطل من أبطال العالم ، صنع أكبر انقلاب في تاريخ البشرية ، ولما مرت في تاريخه صلى الله عليه وسلم ، قرأت أن صحابته كانوا يحرسونه من خصومه وأعدائه ، إلى أن فوجئوا في يوم ما بأن قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذهبوا عني . فإن الله أنزل عليّ : { والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس . . . } » [المائدة : 67] .

واستوقفت هذه الواقعة هذه المرأة فقالت : إن هذا الرجل إن أراد أن يكذب على الناس جميعاً ما كذب على نفسه ، ولا يمكن أن يُسلم نفسه لأعدائه بدون حراسة إلا إذا كان واثقاً من أن الله أنزل عليه هذا ، وأنه قادر أن يعصمه ، وإلا دخلَ بنفسه في تجربة . والباحثة من هذه الواقعة قد أخذت لفتة العبرة . وفي مثل هذا يقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : { . . . قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ } [الأعراف : 195] .

وكأنه صلى الله عليه وسلم يستدعيهم إلى التحدي بالمعركة بالمكر والتبييت ، وألا يتأخروا عن ذلك وهو واثق من أن الله عز وجل ينصره . { إِنَّ وَلِيِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكتاب وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين } [الأعراف : 196]

وأنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله الكتاب المبين ليبلغه للخلق ، ولا يمكن أن يسلمه إلى عدو يمنعه من تمام البلاغ عن الله .

لقد أنزل الحق الكتاب على رسوله ليبلغه إلى الكافة ولا يمكن أن يتخلى عنه . { إِنَّ وَلِيِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكتاب وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين }

وقوله : { وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين } أي أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يقول لكل واحد من أتباعه : كن صالحاً في أي وقت ، أمام أي عدو ، ستجد الله وهو يتولاك بالنصر ، وساعة يعمم الله الحكم؛ فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية في قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم . وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئاً ما سوف يكون له هذا التأييد ، وسبحانه الذي جعل رسوله مُبلغاً عنه المنهج ، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح في الكون ، وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه ، أو أن يزيده صلاحاً إن أمكن .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ . . . }

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197)

لأن الذي لا يستطيع نصرك . يجوز أن يكون ضنيناً بنصرتك؛ لأن حبه لك حب رياء ، أو لأنه يرغب في أن يحتفظ بما ينصرك به لنفسه ، أما حين يكون غير قادر على نصرتك؛ لأنه لا يملك أدوات النصر ، فهذا يبين عجز وقصور من اتخذته وليا ، وهكذا كان حال المشركين . وفي يوم الفتح جاء المسلمون بالمعاول وكُسرت الأصنام ، ولم يقاوم صنم واحد . بل تكسرت كلها جميعاً .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لاَ يَسْمَعُواْ . . . }

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)

وبطبيعة الحال لو أن أحداً دعا هذه الأصنام إلى الهداية فلن تهتدي الأصنام لأنها من الجماد الذي لا تصلح معه دعوة أو فهم . رغم أن الصنم منها له عيون كالتي تراها حاليا في معابد الهندوس أو البوذيين ، حين يضعون للتماثيل في مكان حدقة العين خرزاً ملوناً يشبه العين ، وتوجه الحدقة بميلها وكأنه ينظر إليك وهو لا يرى شيئاً .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : { خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف . . . }

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199)

وهذه آية جمع فيها المولى سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق .
وبعد أن أبلغ الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدعو المشركين لأن يكيدوا له مع شياطينهم وأصنامهم ولن يستطيعوا . وبعد ذلك يوضح له : أنا أحب أن تأخذ بالعفو ، وفي هذا تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن يتبعه ، وكلمة « العفو » ترد على ألسنتنا ، ونحن لا ندري أن لها معنى أصيلاً في اللغة . وقد يسألك سائل : من أي أتيت بهذا الشيء؟ فتقول له : جاءني عفواً ، أي بدون جهد ، وبدون مشقة ، وبدون سعي إليه ولا احتيال لاقتنائه .
ويقال أيضاً : إن هذا الشيء جاء لفلان عفو الخاطر ، أي لم يفكر فيه ، بل جاء ميسراً . هذا هو معنى العفو . والحق هنا يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو ، أي أن يأخذ الأمر الميسر السهل ، الذي لا تكلف فيه ولا اجتهاد؛ لأنك بذلك تُسهل على الناس أمورهم ولا تعقدها ، أما حين تتكلف الأشياء ، فذلك يرهق الناس ، ولذلك يأمر الحق رسوله أن يقول : { قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ المتكلفين } [ص : 86] .
وقوله : { وَمَآ أَنَآ مِنَ المتكلفين } أي أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف الأمور حتى تصير الحياة سهلة ولا يوجد لدد بين الناس؛ لأن الذي يوجد اللدد هو التكلف وقهر الناس ، ويجب أن تقوم المعاملة فيما بينهم بدون لدد أو تكلف . ولذلك يقال : إن المؤمن هو السمح إذا با ع ، والسمح إذا اشترى ، والسمح إذا اقتضى ، والسمح إذا اُقتُضِي منه : أي أنه في كل أموره سمح .

وللأمر بأخذ « العفو » معنى آخر وهو أن تعفو عمن ظلمك؛ لأن ذلك ييسر الأمور .
والعفو أيضاً له معنى ثالث ، هو الأمر الزائد ، مثل قوله الحق تبارك وتعالى من قبل أن تفرض الزكاة : { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو . . . } [البقرة : 219] .
ثم حدد الحق بعد ذلك الزكاة وأوجه إنفاقها ، ونلحظ أن الأمر بالإنفاق من قبل أن تفرض الزكاة ، والإنفاق بعد أن نزل الأمر بالزكاة يلتقيان في السهولة؛ لأن المؤمن لا ينفق مما يحتاجه . بل من الزائد عن حاجته .
وقول الله سبحانه وتعالى في الآية « خذ العفو » فيه أمر « خذ » ومقابله « أعْطِ » وقد تعطي إنساناً فلا يأخذ منك إن رأى أن ما تعطيه له ليس في مصلحته ، لكن إذا قال الحق تبارك وتعالى : « خذ » فهذا أمر يعود نفعه عليك ، فإن كان العفو عمن ظلمك في ظاهر الأمر ينقصك شيئاً ، فاعلم أنك أخذت العفو لنفسك .
واعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هينا ليناً مع إخوانه من المؤمنين .

فإن عز عليه أخوه المؤمن فَلْيَهِنْ له ، فإن تعالى أو تعالم أخ مسلم عليك ، فلا تتعال عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركة بينكما ، بل تواضع أنت ، ليزيدك الله رفعة وعزة .

وكأن الله سبحانه وتعالى يؤكد لك : أنك حين تعطي العفو تأخذ الخير من خلاله . ودائماً أضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – أنت حين تدخل إلى منزلك وتجد ابناً لك قد أساء إلى أخيه فيتجه قلبك وحنانك إلى المظلوم . ونحن عيال ربنا ، فإن ظلم واحدٌ آخرَ ، فالظالم بظلمه يجعل الله في جانب المظلوم ، ولذلك يحتاج الظالم إلى أن نحسن إليه حيث كان سببا في رعاية الله لنا فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصري عندما قيل له : إن فلاناً اغتابك بالأمس . ونادى سيدنا حسن البصري الخادم وقال له : جاءنا طبق من باكورة الرطب . اذهب به إلى فلان – وحدد للخادم اسم من اغتابه – وتعجب الخادم : كيف تبعث بالرطب إليه وهو قد اغتابك؟ فقال : أفلا أحسن إلى من جعل الله بجانبي ، قل له : « يقول لك سيدي بلغه أنك قد اغتبته فأهديت إليه حسناتك ، وهو أهداك رطبه » . { خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين }

وتتناول الآية الكريمة الأمر بالعرف :

والعرف هو السلوك الذي تعرف العقول صوابه ، وتطمئن إليه النفوس ، ويوافق شرع الله ، ونسميه العرف؛ لأن الكل يتعارف عليه ، ولا أحد يستحيي منه ، لذلك نسمع في شتى المجتمعات عن بعض ألوان السلوك : هذا ما جرى به العرف . وما يجري به العرف عند المجتمعات المؤمنة يعتبر مصدراً من مصادر الأحكام الشرعية .

وخير مثال على ذلك : أننا نجد الشاب لا يخجل من أن يطرق باب أسرة ليطلب يد ابنتها ، لأن هذا أمر متعارف عليه ولا حياء منه ، بينما نجد المجتمع المسلم يستحي أن يوجد بين أفراده إنسان يزني ، والغاية من الزنا الاستمتاع ، والغاية من طلب يد الفتاة هو الاستمتاع ، لكْن هناك فارق كبير بين متعة يحرمها الله عز وجل ، ومتعة يُحلّها الله تعالى .

وفي نهاية الآية يقول الله تعالى : { . . . وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين }

وكيف يكون الإعراض عن الجاهلين؟ . يخطئ من يظن أن الجاهل هو الذي لا يعلم ، لأن من لا يعلم هو الأمي ، أما الجاهل فهو من يعلم قضية تخالف الواقع . ونلحظ أن المشكلات لا تأتي من الأميين الذي لا يعلمون ، فالأمي من هؤلاء يصدق أي قضية تحدثه عنها وتكون مقبولة بالفطرة؛ لأنه لا يملك بديلاً لها ، أما الجاهل فهو من يعلم قضية مخالفة للواقع ويحتاج إلى تغيير علمه بتلك القضية ، والخطوة الثانية أن تقنعه بالقضية الصحيحة .

والحق هنا يوضح : أعرضْ عن الجاهل الذي يعتقد قضية مخالفة للواقع ويتعصب لها ، وأنت حين تعرض عن الجاهل ، يجب ألا تماريه ، أي لا تجادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدي إلى نتيجة مفيدة؛ لذلك أقول لكل من يواجه قضية التدين ولم يقرأ عن الدين كتاباً واحداً ، وقرأ في كتب الانحراف عن الدين المئات ، أقول له : كما قرأت فيما يناهض الدين مئات الكتب فمن الحكمة يجب

عليك أن تكون عادلاً ومنصفاً فتقرأ في مجال التدين بعض الكتب الخاصة به مثلما قرأت في غيرها .

وإن أردت أن تبحث قضية الدين بحثاً منطقياً يصحح لك عقيدتك ، فعليك أن تخْرِج كل الاقتناعات المسبقة من قلبك ووجدانك . وتدرس الأمرين بعيداً عن قلبك ، ثم أدخل إلى قلبك الأمر الذي ترتاح إليه ، لكن لا تحتفظ في قلبك بقضية وتناهض منطوقها بظاهر لسانك . والحق سبحانه وتعالى يقول : { مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . } [الأحزاب : 4] . فأنت لك قلب واحد ، إما أن يمتلئ بالإيمان واليقين وإما بغير ذلك . والقلب حيز واحد فلا تشغله أنت بباطل ، حين تبحث قضية الحق ، بل أخرج الباطل من قلبك أولاً ، واجعل الباطل والحق خارجه ، وابحث بعقلك ، والذي ييسرُ إليك أن تدخله إلى قلبك فأدخله .
وفي بيان معنى هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها روى لنا أبيّ قال : لما أنزل الله عز وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذا يا جبريل؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » .
وسبحانه - إذن - يريد أن يعلمنا قضية إيمانية إنسانية؛ لأنك كمسلم تساعد المصاب في بدنه ، فما بالك بالمصاب في قيمه ، ألا يحتاج إلى معونتك؟ .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِماَّ يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ . . . }

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)

و « نزغ » تساوي كلمة « نخس » أي أمسك بشيء ووضع طَرَفَه في جسد من بجانبه أو من أمامَه . ويتضح من معنى « نخس » أن هناك مسافة بين الناخس والمنخوس ووسيلة أو أداة للنخس .
وعملية النخس لا يدرك بها الناخس أو المنخوس حرارة بعضهما البعض ، أما كلمة « مس » فقد يشعر الماس والممسوس كل واحد بحرارة الآخر منهما بسرعة ، لكن أحدهما لا يدرك نعومة الآخر ، أما اللمس ففيه إدراك لنعومة وحرارة اللامس والملموس . ومعارك الحرب كلها تدور في هذا النطاق ، فحين يكون العدو بعيداً يحتاج خصمه إلى أن يبتعد عنه كيلا يصيبه بالنبال أو السهام ، ويحاول هو أن يصيب خصمه بالنبال أو السهام . وكما تفعل الجيوش الحديثة حين ترسل طائراتها لترمي القنابل على قوات الخصم . وتقاس قوة الدول بقدرتها على ضرب القوات المعادية دون قدرة تلك القوات على الرد ، لأنها تصيبه من بعد في عصر الصواريخ بعيدة المدى . ونجد الإشارة في قول الحق تبارك وتعالى : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ . . . } [الأنفال

: 60] .
وأوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى القوة فيما رواهُ عنه عقبة ابن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : « إلا أن القوة الرمي » . لأن الرمي يُمَكّن قذيفتك من عدوك ، وأنت بعيد عنه فلا يقدر أن يصيبك بما يرميه .
وقديماً كانت الجيوش تزحف ، فيُلقى الخصوم عليها النبال والسهام ، وإذا ما اقتربت الجيوش أكثر من خصومها فكل فريق يوجه الرماح إلى ما يقرب من أجساد الفريق الآخر . وإذا حمى وطيس المعركة تتلاقى السيوف . إذن كلها من النخس ، والمس ، واللمس .
وحينما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه قائلاً : « يا رب كيف بالغضب؟ » أي كيف يكون علاج الغضب؟ نزل قول الحق : { وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأعراف : 200] .
وقد يستفهم قائل فيقول : أينزغ الشيطان الرسول؟ . وأقول : إنّ الحق تبارك وتعالى لم يقل : « وإذ نزغك الشيطان » ، ولكنه قال : « وإما ينزغنك » أي إن حدث ذلك ، وهو قول يفيد الشك – ثم لماذا يحرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من لذة مجابهة الشيطان؟ . ونعم عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك؟ قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » .
وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله . . . } .
والاستعاذة تعني طلب العون والملجأ والحفظ وأنت لا تطلب العون ولا تلجأ ولا تستجير إلا بمن هو أقوى ممن يريد أن ينالك بشر .

ومعلوم أن الشيطان له من خفة الحركة ، وقدرة التغلغل ، ووسائل التسلل الكثير؛ لذلك فينبغي ألا تستعيذ بمثله أو بمن هو دونه ، ولكنك تستعيذ بخالق الإنس والجن وجميع المخلوقات ، وهو القادر على أن يعطل فاعلية الشيطان . وسبحانه سميع عليم ، والسمع له متعلق ، والعلم له متعلق ، فحين تستحضر معنى الاستعاذة وأنت مشحون بالإيمان وتلجأ إلى من خلقك . وخلق ذلك الشيطان؛ عندئذ لا بد أن يهرب الشيطان من طريقك لأنه يعلم أنك تلجأ إلى الخالق القوي القادر وهو ليست له قوة على خالقه ، وسبحانه سميع لقولك : « أعوذ بالله » ، عليم بما في نفسك من معنى هذه الكلمة .
وإذا كان الحق تبارك وتعالى هنا قد تكلم عن حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال : { وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ }

أي أن الشيطان بعيد ، وهو يحاول مجرد النزغ ، فماذا عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء هذا؟ . هنا يقول الحق تبارك وتعالى : – { إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طائف . . . } .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201)

ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مسّهم » ولم يقل : « لمسَهم » . لأنهم من الذين اتقوا ، أي وضعوا بينهم بين صفات جلال الله وقاية تجعلهم يقفون عند حدوده ولذلك يقول : { إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طائف مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ } .
والطائف هو الخيال الذي يطوف بالإنسان ليلاً ، وبما أن الشيطان لا يرى ، لذلك نصوره على أنه خيال ، فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا وتذكروا خالق الشيطان وخالقهم ، وتذكروا منهج الله الذي يصادم شهواتهم ، وتذكروا أن عين الله تراهم ولا تغفل عنهم ، وأن محارم الله واضحة وبينة ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : في الحديث الذي يرويه عنه النعمان بن بشير : « الحلال بيّن والحرامُ بيّن وبينهما مشَبهات لا يعلمها كثير من النّاس ، فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .
وإذا ما تذكر المؤمنون العقوبة المترتبة على أي فعل شائن يزينه الشيطان لهم ، هنا تزول عنهم أي غشاوة ويبصرون الطريق القويم .
ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي . . . } .

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202)

ونحن حين نتتبّع كلمة « يمدونهم » في القرآن ، نجدها مرة « يمدونهم » ومرة يمددكم كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى : { وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ . . . } [نوح : 12] .
ونعلم أن الشياطين لن تترك المؤمنين في حالهم ، بل تظل في محاولة الغواية ، وتحاول الشياطين غواية المؤمنين الطائعين أكثر من محاولتهم غواية العاصين؛ لأن العاصي إنما يعاون الشيطان باتباعه شهوات نفسه ، ولا يقصر العاصي أو الشيطان في ذلك ، بل يحاول العاصي أو الشيطان غواية المؤمنين و « أقصر » من مادة « قصر » ، أي أنه قادر أن يطول المسافة لكنه يقصرها . وهكذا إلحاح الشياطين لغواية المؤمنين .
فالشيطان – كما جاء في القرآن – يعترف بموقفه من ملاحقة المؤمنين بالوسوسة وتزيين المعاصي . { . . . لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم } [الأعراف : 16] .

والشيطان يعلم أن من لا يتقي الله لا يحتاج إلى تزيين أو غواية؛ لأنه يرغب ويميل للمعاصي والعياذ بالله؛ لذلك لا يبذل الشيطان لغوايته جهدا كبيراً .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُواْ . . . }

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)

وقد جاء الحق تبارك وتعالى من قبل بكلمة « آيات » ، والآيات –كما أوضحنا – إما آيات كونية وإما آيات المعجزات الدالة على صدق الرسل ، وإما آيات الأحكام .

والله سبحانه وتعالى جاء هنا بكلمة : « آية » لا « آيات » ، والكون أمامهم مليء بآياته ، والمنهج المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام واضح ، ولا ينقص إلا أن تأتي الآية المعجزة – من وجهة نظرهم – وينبه الحق هؤلاء بقوله تبارك وتعالى في سورة الإسراء : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً * وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 89 – 93] .

إذن فالآياتُ المعجزاتُ التي طلبوها ، لا يأتي بها الرسول من عنده ، والآيات التي ينزل بها المنهج أيضاً ليست من عنده ، بل هي تنزيل من لدن عزيز حكيم . وكانوا يتهمونه صلى الله عليه وسلم أنه يفتري القرآن . لذلك طلبوا منه صلى الله عليه وسلم المعجزة الحسية متناسين ما جاءت به آيات القرآن الكريم من معجزة لم يستطيعوا هم أن يأتوا بآية واحدة من مثل آياتها؛ وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : { قَالُواْ لَوْلاَ اجتبيتها قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يوحى إِلَيَّ مِن رَّبِّي }

يأمره هنا ربه أن يقول : { قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يوحى إِلَيَّ مِن رَّبِّي }

أي أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مكلف أن يبلغهم بما يأتي به الوحي يحمله الروح الأمين جبريل عليه السلام من آيات القرآن الحاملة للمنهج الإلهي ، وهذا المنهج في حد ذاته معجزة متجددة العطاء ، لذلك يضيف : { . . . هذا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف : 203] .

ففي القرآن الكريم بصائرُ وهدىً رحمةُ ، والبصائر جمع بصيرة ، من الإبصار ، إذا امتلأ القلب بنور اليقين الإيماني فإن صاحبه يعيش في شفافية وإشراق ، ويسمى صاحب هذه الرؤية المعنوية صاحب بصيرة ، أما البصر فهو مهمة العين في الأمور الحسية ، لكنْ هناك أمور معنوية لا تكشفها إلا البصيرة ، والبصيرة تضيء القلب بالنور حتى يستكشف تلك الأمور المعنوية ، ولا

يمتلك القلب البصيرة إلا حين يكونُ مشحوناً باليقين الإيماني .
والقرآن الكريم بصائر؛ لأنه يعطي ويمنح من يؤمن به ويتأمله بصائر ليجدد الأمور المعنوية وقد صارت مُبصَرَةً ، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عينُ اليقين .

وهذا القرآن المجيد بصائرُ وهدى ، أي يدل الإنسان ويهديه إلى المنهج الحق وإلى طريق الله المستقيم ، وهو رحمةٌ أيضاً لمن لا يملك إشراقات القلب التي تهدي للإيمان ولا يملك قوة أخذ الدليل الذي يوصله إلى الهداية ، إذن فهو رحمة لكل الناس ، وهدى لمن يسأل عن الدليل ، وبصائر لمن تيقن أصول الإيمان مشهدياً .
وكما قلنا من قبل : إنَّ الله قد أخبر المؤمنين بأمور غيبية ، ومن هذه الأمور الغيبية أن له جنةً وأن له ناراً ، وصدق المؤمنون بكل ما جاءهم من البلاغ عن ربهم ، وعلموا أن ذلك من الله ، وصار هذا العلم علم يقين كقدر مشترك فيما بينهم ، فإذا جاءَ يوم القيامة ورأوا الصراط مضروباً عن متن جهنم مطابقاً لما صدقوه وصار عين يقين ، وإذا ما دخل بعضهم النار – والعياذ بالله – تكفيراً لذنوب ارتكبوها ، فهذا حق يقين . وضربت المثل من قبل – ولله المثل الأعلى –كان الجغرافيون يحدثوننا ونحن طلاب عن خريطة الولايات المتحدة ، ويقولون : إن عاصمتها « واشنطن » ، والميناء الكبير فيها اسمه « نيويورك » ، وفي « نيويورك » توجد ناطحات السحاب وهي مبان ضخمة يزيد ارتفاع المبنى الواحد من هذه المباني على مائة طابق أي أكثر من مائتي متر ، وصدقنا نحن أستاذ الجغرافيا ، وعندما أتيحت للبعض منا فرصة السفر ورأوا واشنطن ونيويورك من الطائرة ، صارت الرؤية عين يقين بعد أن كانت علم يقين . وعند هبوط الطائرة في مطار واشنطن صارت الرؤية حق يقين .
وقد عرض الحق سبحانه وتعالى لنا الإيمان ببعض من الغيب في قوله تعالى : { أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر *كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ *كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين } [التكاثر : **1 – 7**] .
أورد سبحانه هناك « علم اليقين » « وعين اليقين » ، وأما « حق اليقين » فقد جاء في قوله : { فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين } [الواقعة : **88 – 95**] .
والمؤمنون المصدقون بأخبار الغيب على درجات مختلفة . . فهناك من صدق الله في الخبر عن الغيب كعين يقين ، وهناك من صدق قول الله حق اليقين ، ولذلك فإننا نجد الإمام عليا –كرم الله وجهه – يقول : « لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقينا » .

وفي الحوار الآتي الذي دار بين حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابي الجليل الحارث بن مالك ما يكشف لنا جوهر هذا اللون من الإيمان :

« فقد روى الحارث بن مالك الأنصاري : أنه مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث؟ قال : أصبحت مؤمناً حقّاً ، قال : » انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظلمت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضارغون فيها . فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً « .
هذا الصحابي الجليل وصل إلى أن كل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم قد صار حق يقين ، وامتلك البصيرة التي رأى بها كلَّ ذلك .
{ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجتبيتها قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يوحى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هذا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف : 203] .
وهكذا نجد القرآن الكريم بصائر لأصحاب المنزلة والدرجات العالية ، وهدى لأصحاب الاستدلال ورحمةً للجميع .
ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَإِذَا قُرِىءَ القرآن فاستمعوا . . . } .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)

وما دام قد أوضح لك المولى سبحانه وتعالى من قبل أن هذا القرآن بصائر من ربنا وهدى ورحمة ، ألا يستحق أن تحتفي به أيها المؤمن؟ . . ألا تجذبك هذه الحيثيات الثلاث لأن تعطي له أذنك وألا تنصرف عنه؟ .
إذن لا بد أن تنصت للقرآن الكريم لتتلقى الفوائد الثلاث؛ البصائر ، والهدى ، والرحمة ، وهو حقيق وجدير أن يُحْرَص على سماعه إن قُرِئ .
ولنلحظ أن الله تعالى قال : { فاستمعوا لَهُ } ولم يقل « اسمعوا » ، لأن الاستماع فيه تعمد أن تسمع ، أما السمع فأنت تسمع كل ما يقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، ومن الرحمة المحمدية يقول حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ناهياً عن التسمع لأسرار الغير تجسساً عليهم بالبحث عن عوراتهم فيما يرويه عنه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسَّسُوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا » .
وفي هذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التي منها التلصص والتصنت إلى أسرار الناس . { وَإِذَا قُرِىءَ القرءان فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأعراف : 204] .

والإنسان قد يصمت ويستمع ولكن بغير نية التعبد فيحرم من ثواب الاستماع ، فاستمع وأنصت بنية العبادة ، لأن الله هو الذي يتكلم ، وليس من المعقول والتأدب مع الله أن يتكلم ربك ثم تنصرف أنت عن كلامه ، وقد لفت أنظارنا سيدنا جعفر الصادق : ونبهنا إلى ما فيه الخير حيث يقول :

« عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : { حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } ، فإني سمعت الله عقبها يقول : { فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سوء } .

وعجبت لمن اغتم ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : { لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } فإني سمعت الله عقبها يقول : { فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين } .

وعجبت لمن مُكر به ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : { وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله إِنَّ الله بَصِيرٌ بالعباد } . فإني سمعت الله عقبها يقول : - { فَوقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ } .

وعجبت لمن طلب الدنيا ولم يَفْزَع إلى قوله تبارك وتعالى : { مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله } . فإني سمعت الله عقبها يقول : - { فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ } .

ونحن حين نستمع لقراءة القرآن الكريم بنية التعبد فذلك هو حُسْن الأدب الذي يجب أن نستقبل به العبر التي تعود بالفائدة علينا .

ووقف العلماء حول الإنصات سماعاً للقرآن؛ أيكون الإنصات إذا قرئ القرآن مطلقاً في أي حال من الأحوال ، أو حين يُقرأ في الصلاة ، أو حين يُقرأ في خطبة الجمعة؟

وقد اختلفوا في ذلك ، فبعضهم قال : إن المقصود هو الإنصات للقرآن حين يُقرأ في الصلاة ، والسبب في ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، يعيدون بعده كل جملة قرآها فإذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم؛ قالوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا قال : » الحمد لله رب العالمين « ، قالوا : » الحمد لله رب العالمين « فينبههم الله عز وجل إلى أن يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهم يستمعون إليه دون ترديد للقراءة .

وقال آخرون من العلماء : الإنصات للقرآن الكريم يكون في الصلاة ، وفي خطبة الجمعة أو العيدين ، لأنها تشتمل على آيات من القرآن ، ولكن اشتمالها على الآيات أقل مما يقوله الخطيب ، ونبه البعض إلى أن الإنصات للخطبة ثبت بدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام : « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت » .

إذن الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة .

وهناك قول بأن الاستماع مطلوب للقرآن في أي وضع من الأوضاع حين يُقرأ؛ ففي هذا احترامٌ

ومهابةٌ لكلام الله عز وجل ، وينسب هذا القول إلى إمامنا وسيدنا ومولانا سيدي « أبي عبدالله الحسين » ، فيقول :

إذا قُرئ القرآن سواءٌ إن كنت في صلاة أو كنت في خطبة ، أو كنت حرّاً فأنصت؛ لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يميز القرآن على مطلق الكلام ، فميزه بأشياءَ ، إذا قُرئ ننصت له ، وإذا مسّ المصحف لا بد أن يكون على « وضوء » حتى لا يجترئ الناس ويمسّوا المصحف كأي كتاب من الكتب ، وهذا يربي المهابة فلا تمسك المصحف إلا وأنت متوضئ ، فإذا علمنا أولادنا ، نقول للواحد منهم : لا تقرب المصحف إلا وأنت متوضئ؛ فتنشأ المهابة في نفس الولد .

وأيضاً في « الكتابة » شاء الحق تبارك وتعالى لبعض ألفاظه كتابة خاصة غير كتابة التقعيد الإملائي؛ حتى يكون للقرآن قداسة خاصة ، فهو كتاب فريد وليس ككل كتاب وكلامه ليس ككل كلام . { وَإِذَا قُرِىءَ القرءان فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأعراف : **204**] .

وبعض العلماء قال : ليس المطلوب مجرد الاستماع بالآذان ، بل المقصود بالاستماع هنا هو أن نستجيب لمطالبه ، ألا تقولون لبعضكم حين يدعو بعضكم لبعض : « الله يسمع دعاك »؟ إنك تقولها وأنت تعلم أن الله سامعك ، ولكنك تقصد بها أن يستجيب سبحانه وتعالى لهذا الدعاء ، إذن فالاستماع للقرآن يقتضي الاستجابة لمطلوبات القرآن . لماذا؟ لننال الرحمة من الحق فهو الرحمن الرحيم . { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } .

ونعلم أن « لعل » « وعسى » حين تقال يقصد بها الرجاء ، و « ليت » تعني التمني وهو مستحيل ولا يُتَوَقّع ، ونحن نتمنى لنظهر أن هذا أمر محبوب لنا ، لكننا نعلم أنه مستحيل ، مثلما قال الشاعر العجوز :

ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

إنه يعلم يقيناً أن الشباب لن يعود ولكن قوله يدل على أن الشباب فترة محبوبة . ومثل قول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقود مدح فما أرضى لكم كَلِمِ

ولن تدنو الكواكب .

إذن ساعة تسمع « عسى » أو « لعل » يتبادر إلى ذهنك أن هذا رجاء لأن يحدث ، وإذا كان رجاء من الله ، فهو رجاء من كريم لا بد له من واقع .

ويقول الحق بعد ذلك :

والذكر مرور الشيء ، إن كان بالبال ، فهو ذكر في النفس ، وإن كان باللسان ولا يُسْمِع الغير ويُسْمِعك أنت فهذا ذكر السر ، وإن كان جهرا فهو قسمان؛ جهر مقبول ، وجهر غير مقبول ،

والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذِّكْرُ إلى إزعاج والعياذ بالله ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { . . . وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً } [الإسراء : **110**] .

ولعل إخواننا القراء يتنبهون إلى هذه الآية؛ تنبهاً يجعلهم يلتفتون إلى أداء أمر الله في هذا المجال فلا يجهرون ولا يرفعون أصواتهم به لدرجة الإزعاج ، لأني أقول لكل واحد منهم : إن ربك لم يطلب منك حتى الجهر ، إنما طلب دون الجهر ، وأقول ذلك خاصة لهؤلاء الذين يفسدون نعمة الله على خلقه؛ فيصيحون ليلا ويمنعونهم من رحمة الله ليلا التي قال عنها : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [القصص : **73**] .

فلا تفسدوا على الناس رحمة ربنا؛ لأن الدعوة إلى الله ليست صياحاً على المنابر ، إلا إذا كنتم تصنعون لأنفسكم دعاية إعلامية على مساجد الله وعلى منابر الله . وهذا أمر مرفوض وغير مقبول شرعاً . { واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً } والحق تبارك وتعالى يقول مرة : { ياأيها الذين آمَنُواْ اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً } [الأحزاب : **41**] .

ومرة يقول : { واذكر رَّبَّكَ }

وقوله : « اذكر الله » يستشعر سماعها التكاليف؛ لأن الله هو المعبود ، والمعبود هو المطاع في الأوامر والنواهي .

أما قوله : « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال؛ خلقك ورباك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يعد ولا يحصى . فاذكر ربك؛ لأنك إن لم تعشقه تكليفاً ، فأنت قد عشقته لأنه يمدك بالنعم ، وسبحانه يتفضل علينا ويوالينا جميعاً بالنعم .

وأضرب لك هذا المثل – ولله المثل الأعلى وهو منزه عن التشبيه – وأنت لك أولاد ، وتعطي لهم مصروفاً ، وحين تعطي لهم المصروف كل شهر ، تجدهم لا يحرصون على أن يروك إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطي مصروفهم يوميا فأنت تلتفت لتجدهم حولك ، فإن كنت نائماً يدخل ابنك لغرفة نومك يسير بجانبك ويتنحنح ليقول إنه يحتاج لشيء موجود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عبد لإحسان ربك؟ وما دمت عبد الإحسان فاذكر من يحسن إليك ، اذكر ربك دائماً .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً . أي بذلة ، لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلة عبودية لمقام الربوبية ، واذكر ربك « خيفة » أي خائفاً متضرعاً؛ لأنك كلما ذللت له يعزك ، ولذلك نجد العبودية مكروهة في البشر وهي استعباد ، والناس ينفرون ممن يستعبدهم؛ لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيان كبير وظلم عظيم فهي تعطي خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطي خير الله لك . ولذلك نجد الحق يمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير } [الإسراء : 1] .
وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كبرى بحادث الإسراء ، وكان الحديث عنها بامتنان من الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .
والشاعر المؤمن يقول :
حسب نفسي عزاً بأني عبد ... يحتفي بي بلا مواعيد رب
هو في قدسه الأعز ولكن ... أنا ألقي متى وأين أحب
وأنت أيها العبد المؤمن تلقى الله متى أردت ، وإذا أسلمت زمامك للإيمان؛ فالزمام في يدك . يكفي أن تنوي الصلاة وتقول : الله أكبر فتكون في حضرته سبحانه سواء كنت في البيت أو في الشارع أو في أي مكان . وفي منتهى العزة لك . { واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجهر مِنَ القول . . . } [الأعراف : 205] .
ولم يقل هنا رب العالمين : بل ربك أنت يا محمد ، وهذه قمة العطاءات التي جاءت للناس ، فهذا العطاء الذي جاء بمحمد رسولاً ، نعمةٌ ومنةٌ من الله على المؤمنين برسالته ، وبعد ذلك ينسب لكل مسلم العطاء الذي جاء لمحمد . وقوله تعالى لرسوله : { واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ } أي أنه سبحانه لم يجعل دليل عنايته بك مقصوراً على ما يشاهد في الخارج والبعيد عنك فقط؛ لأنك قد لا ترى شيئاً في الكون أو لا تسمع شيئاً في الكون؛ لأن الكون منفصل عنك ، إنما انظر إلى نفسك أنت وستجد الآيات كلها تذكرك بخالقك ، { وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21] .
فقبل أن يجعل ربنا الدليل في الكون الذي حولك ، جعل لك الدليل أيضا في نفسك؛ لأن نفسك لا تفارقك وأنت أعلم بملكاتها وبجوارحها ، وبنوازعها ، ولهذا كان التضرع إلى الله والخيفة منه لهما مجال هنا؛ لأنك تستطيع أن ترى سر صنعته فيك ، وستجد الكثير من الآيات ، وهي آيات أكبر منك ، لذلك أنت تتضاءل أمام من وهب لك كل هذا ، وتخاف ألا تؤدي حقه لديك .
ونعود إلى قول الله تعالى : { واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجهر مِنَ القول بالغدو والآصال } والذكر حَدَثٌ ، والحَدَثُ يحتاج إلى زمان وإلى مكان . والغدو والآصال زمنان يستوعبان النهار؛ فالغدو هو أول النهار ، والآصال هو من العصر للمغرب ، مثلما نقول « شمس الأصيل » .

وهذه الآية الكونية تتكرر في القرآن الكريم كثيرا ، فالحق تبارك وتعالى يقول : { يأيها الذين آمَنُواْ اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [الأحزاب : 41 - 42] .
وكما يقول عز وجل : { إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِّتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ

وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [الفتح : 8 – 9] .
و « الأصيل » هنا مشترك ، ومقابل الأصيل يطلق الحق عليه مرة بكرة ، وأخرى يطلق عليه : الغدو ، وسبحانه القائل : { الله نُورُ السموات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيِمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال } [النور : 35 – 36] .
إنك ساعة أن تقرأ « في بيوت » تعرف أن هنا حدثاً؛ لأن قوله : « في بيوت » شبه جملة « في معنى الظرف ، وإذا استقرأت ما قبلها ، لم تجد لها مُتَعَلَّقاً . والحظ إذن أن ما قبلها هو { نُّورٌ على نُورٍ } { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه } فأنت حين تذهب إلى المسجد لتلقى الله ، فذلك نور ، وتصلى له فذلك نور ، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك في بيته ، وكل هذا نور على نور ، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل؛ فليكثر من الذهاب إلى بيوت الله ، وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة ، ونعلم أن الصلاة هي الخلوة التي بين العبد وربه ، وكان رسول الله إذا حز به أمر قام إلى الصلاة . وأنت إذا ما اتبعت حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وتصلي ركعتين لله فلن حز بك أمر وعزت عليك مسألة وكانت فوق أسبابك ثم ذهبت بها إلى الله فلن يخرجك الله إلا راضياً . { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال } .
والغدو والآصال أو البكرة والأصيل كما عرفنا هي أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل .
ولماذا أزمنة أول النهار وأزمنة أو الليل؟
لأن هذه الأزمنة هي التي يطلب فيها الذكر . فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة ، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم ، لذلك إياك أن تشغلك الحياة عن واهب الحياة ، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تؤديه وتقوم به وأن تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة : (الحمد لله) وعندما ترى أي جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أن تقول : » ما شاء الله « وعندما ترى أي شيء يعجبك تقول : (سبحان الله) .

ولذلك حينما دعا الله خلقه المؤمنين به إلى الصلاة قال : { يأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ للصلاة مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [الجمعة : 9] .
وهذا التكليف في صلاة الجمعة المفروضة كصلاة للجماعة ، والجماعة مطلوبة فيها ، ومن

الضروري أن نتواجد فيها كجمع؛ لأن الجماعة مشروطة فيها فلا تصح بدون الجماعة .

ونعرف أن الصلاة إنما هي ذكر لربنا ، فماذا بعدها؟ { فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الجمعة : 10] .

أي إياك أن يشغلك انتشارك في الأرض وابتغاؤك من فضل الله ، والأخذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله ، بل عليك أن تذكره سبحانه وتعالى : { واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً . . . } .

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205)

أي لا تكن من الغافلين عن مطلوبات الله بالحدود التي بينها الله عز وجل؛ لأن الغفلة معناها انشغال البال بغير خالقك ، وأنت إن جعلت خالقك في بالك دائما فإنك لا تغفل عن مطلوباته في الغدو والآصال وفي كل وقت ، سواء كنت في الصلوات الخمس ، أو كنت تضرب الأرض في أي معنى من المعاني ، وتأس أيها المؤمن بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فإذا كان الملائكة والذين لم يرتكبوا أية معصية وليس لهم موجبات المعصية ، ولا يأكلون ولا يتناسلون ، وليس لهم شهوة بطن ولا شهوة فرج ، وكل المعاصي جميعها تأتي من هذه الناحية ، مع ذلك يجب عليك أن تتأسى بهم؛ لأنهم هم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه؛ وله يسجدون ، لذلك يقول الحق بعد ذلك : { إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ . . . }

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

وإذا كنا عند ربنا وفي حضرة ما منحه لنا من خَلْق وما أمدنا به من إيجاد من عُدم سواء ، فلماذا خص هؤلاء بالعندية؟ .

إياك أن تفهم من العندية أنها عندية المكان؛ لأن المكان مُحيِّز ، وربنا عز وجل لا يتحيز في مكان ، والعندية هنا عندية الفضل ، وعندية الرحمة ، وعندية الملك ، وعندية العناية . أو إن كل خلق لله جعل لهم أسباباً ومسبَّبات ، ولكن خلقاً من خلقه يسبحونه بذاته ، وليس لهم عمل آخر ، ويعرفون بالملائكة العالين ، لا الملائكة المدبرات أمراً أو الحفظة . ولذلك قلنا سابقاً : إن الحق سبحانه وتعالى حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وامتنع إبليس ، قال له : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين } [ص : 75] .

و { العالين } هم الذين لم يشملهم أمر السجود ، فهم ملائكة موجودون ولا عمل لهم إلا

تسبيح الذات العلية ولا يدرون عن الخلق أو الدنيا شيئاً . وهم غير الملائكة المسخرين لخدمتنا؛ فالذين عند ربنا هم الملائكة المُهيَّمون الذين لا يعرفون شيئاً إلا الذات الإلهية وتسبيح الذات وعملهم يحدده الله هنا : { لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ }

واختلف العلماء في كيفية سجود الملائكة ، أهو الخضوع؟ أهو الصلاة؟ أهو السجود الذي نعرفه نحن؟ والسجود عندنا هو منتهى ما يمكن من الخضوع لله عز وجل وقت الصلاة . لأنه نزول بأشرف شيء في الإنسان وهو الوجه الذي يضعه المؤمن على الأرض خضوعاً لله عز وجل .

ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا إذا مررنا على آية سجدة من آيات كتاب الله فيها مثل ذلك فعلينا أن نستجيب لها استجابة حقيقية ونسجد لها سجدة تسمى التلاوة ، ويكون ذلك عند تلاوتها أو سماعها من القارئ ، وحصرها العلماء فيما تجدونه في المصحف عند كل سجدة وجعلوا عندها علامة ووضعوا تحت الكلمة التي نسجد عندها خطاً . وحين قام العلماء ببيان المواضع التي تطلب فيها هذه السجدات وجدوها قد ابتدأت بسجدة آخر سورة « الأعراف » التي نتناولها بخواطرنا الآن ، وانتهت بسجدة « العلق » : { اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ } [العلق : 1] .

وبينهما سجدات ، وبعض العلماء عدّ في سورة الحج سجدتين وبعضهم أهمل السجدة الثانية في هذه السورة . فمن حسبها خمس عشرة سجدة ، عدّ سجدة الحج الثانية المختلف عليها مع سجدة الحج الأولى - المتفق عليها - وبعض العلماء قال : إنها أربع عشرة سجدة؛ لأنه لم يحسب سجدة الحج الثانية .

وهب أنك أردت أن تسجد لله شكراً في أي وقت ، وعند أي آية فاسجد لله سجدة الشكر ، وهي سجدة واحدة كسجدة التلاوة وتستحب عند تجدد نعمة أو انقشاع غمّه ، أو زوال نقمة ولا تكون إلا خارج الصلاة .

والسجود بطبيعة الحال تبدأه بالتكبير ، ورفع اليدين كأنك تبدأ الصلاة ، والمفترض أن تقول : « سبحان ربي الأعلى » ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا ما نقوله في السجود للتلاوة ، وروي عن ابن عباس قال :

« كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال : إنِّي رأيتُ البارحَة - فيما يرى النائم كأنِّي أصلي إلى أصل شجرة ، فقرأت السجدةَ فسجدت الشجرةُ لسجودي فسمعتها تقول : اللهم احطُطْ عني بها وِزْراً ، واكتُب لي بهَا أَجْراً ، واجْعْلها لي عندكَ ذُخْراً . قال ابنُ عباس : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ السجدة فسجد ، فسمعته يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجلُ عن قولِ الشجرة » .

وبذلك تختم سورة الأعراف ، والتسمية للسورة في ذاتها متناسبة؛ لأن « الأعراف » هو المكان

العالي البارز الذي يجلس عليه القوم ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم لينظروا إلى أهل الجنة وينظروا إلى أهل النار ، وهكذا تكون الأعراف مكاناً يزيد في الارتفاع ، وهي مأخوذة من « عرف الفرس » ، وعرف الفرس أعلى شيء فيه ، والأنفال أيضاً هي الزيادة؛ ولذلك فإن التسمية متناسبة سواء بالنسبة لسورة الأعراف أو الأنفال ، وأيضاً يوجد التناسب في المعنويات ، وهذا التناسب نلحظه عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى في أواخر سورة الأعراف : { إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ } [الأعراف : 201] .

ثم يأتي قوله سبحانه وتعالى في أول سورة الأنفال : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول فاتقوا الله وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ . . . } [الأنفال : 1] .

لأن من مهام الشيطان أن يفرق بين المؤمنين بوسوسته لهم ، فإذا ما تذكروا الله وما أعده لأهل الإيمان؛ فهم يبصرون الحقيقة الأولى التي ترتفع على كل شيء وهي الإيمان بالله ، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يكدرها حتى تكون خالصة نقية .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)

يقول الحق سبحانه وتعالى مفتتحاً سورة الأنفال : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول فاتقوا الله وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }

السؤال يقتضي سائلاً : وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتضي مسئولاً هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقتضي مسئولاً عنه وهو موضوع السؤال المطروح .

والمسئول عنه قد يوجد بذاته ، مثلما نسأل صديقنا : ماذا أكلت اليوم؟ هذا السؤال فيه تحديد لمنطقة الجواب ، والجواب عنه أيضا يحدد المنطقة .

وموضوع السؤال في قول الله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا النسآء فِي المحيض وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ } [البقرة : 222] .

يدل عليه الجواب ، فهم لم يسألوا عن أسباب المحيض ، أو لماذا ينقطع عن الحامل أو من بلغت الكبر ، لكن كان موضوع السؤال الذي هو واضح من إجابة الحق تبارك وتعالى : أيجوز أن يباشر الرجل المرأة أثناء المحيض أو لا؟

وسؤال آخر سألوه للرسول صلى الله عليه وسلم عن اليتامى ، ويحدد الجواب موضوع السؤال : يقول الله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ والله يَعْلَمُ المفسد مِنَ المصلح وَلَوْ شَآءَ الله لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة : 220] .

لأنهم كانوا يتخوفون من مخالطة اليتامى في الأموال ومن مؤاكلتهم ، وغير ذلك من ألوان التعامل ، ورعاً وبعداً عن الشبهات وجاءت الإجابة لتحدد موضوع السؤال :

ومرة يأتي السؤال وفيه تحديد مناط الإجابة لأنها عامة مثل قوله الحق تبارك وتعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج } [البقرة : 189] .

هم سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم : لماذا يبدأ الهلال صغيراً ولماذا يكبر ، ثم لماذا يختفي في المحاق؟ . وهذا سؤال في الفلك . ولم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في الحدود التي يستفيدون منها وهي القيمة النفعية العملية ، وجاءت الإجابة : { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج } .

لأننا ورغم وجودنا في هذا القرن العشرين إلا أن البعض من الناس ما زال يكذب الحقيقة العلمية التي ثبتت بما لا يدع مجالاً لأي شك . ونقول للعامة : إن الهلال يشبه قلامة الظفر ثم يكبر ليستدير ثم يختفي قليلاً . وفي هذا يقول الشاعر :

وغاية ضوء قمير كنت آمله ... مثل القلامة قد قدت عن الظفر

ولو قال لهم : إن الهلال يظهر حين تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ثم يبدأ في الاكتمال تباعاً ، لما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه المسألة ، فجاء لهم بالحكمة المباشرة النفعية التي تدركها عقولهم تماماً ، ثم ارتقت العقول بالعلم ووصلنا إلى دراسة حركة الأفلاك التي توضح كل التفاصيل الفلكية .

وهناك سؤال يجيء في أمر محدد ، مثل قول الحق : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله }

[البقرة : 217] .

وهكذا عرفنا أن موضوع السؤال هو عن حكم القتال في الشهر الحرام ، لا طلب تحديد الأشهر الحرم بالذات .

ويقول الحق تبارك وتعالى هنا : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال } والأنفالُ جمعُ نَفَل (بفتح الحرف الأول والثاني) ، مثل كلمة سَبَب وأسباب ، والمراد بالنَفل هنا الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وهي من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختصت بها هذه الأمة دون الأمم السابقة ، والنفْل بالسكون الزيادة ، ومنه صلاة النافلة؛ لأنها زيادة عن الفريضة الواجبة ، وفي هذا المعنى يقول ربنا عز وجل في آية ثانية : { وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ } .

ونافلة تعني أمراً زائداً غير مفروض ، ولذلك نقول : إن النفل هو العبادة الزائدة ، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرض عليك؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصي ، بل يعبد ربه بأي لون من ألوان العبادة التي شرعها الله ، وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله ، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : { وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً } [

الإسراء : 79] .

النفل إذن هو أمر تعبدي زائد عن الأصل .

وحينما ابتلى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل ، جاءه الابتلاء لا بوحي صريح ، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق ، فلم يكن الابتلاء – مثلا – أن يذبح إنسان آخر سيدنا إسماعيل ، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقده ، لا بل هو الذي يقوم بذبح ولده إسماعيل . وهكذا كان الابتلاء كبيراً ، خصوصاً أنه لم يأت إلا في آخر العمر . وكانت هذه المسألة من الملابسات القاسية على النفس . ولذلك أوضح ربنا عز وجل أن سيدنا إبراهيم كان أمة ، أي اجتمعت فيه صفات الإيمان اللازمة لأمة كاملة . { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } [البقرة : 124] .

ولنر رحموت النبوة في سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء لينفذ أمر الرؤيا بذبح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحي؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذاً دون أن يطلعه على الحقيقة؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده لحظة لها جس عقوق لأبيه ، وقد يقول الابن : أي رجل هذا الذي يذبح ابنه؟ . وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك في الثواب ، وأن يكون الابن خاضعاً لأمر الحق تبارك وتعالى كأبيه فقال له : { يابني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى } [الصافات : 102] .

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذي جاءه كرؤيا في المنام فماذا يقول الابن إجابة على سؤال أبيه؟ { قَالَ ياأبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين } [الصافات : 102] .

أي أن إسماعيل عليه السلام أسلم زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى ، ويواصل المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح الابن فيقول تبارك وتعالى :

{ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن ياإبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين } [الصافات : 103 – 105] .

فبعد أن رضي كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وسلما أمرهما لله تعالى وامتثلا للأمر بالقضاء ، رفع الله برحمته هذا القضاء؛ لذلك يصف الحق تبارك وتعالى هذا البلاء وتكرمه بالفداء فيقول : { إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات : 106 – 107] .

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله ، إياك أن تجزع ، إياك أن تسخط ، إياك أن تغضب ، إياك أن تتمرد؛ لأنك بذلك تطيل أمد القضاء عليك ، ولكن سلم لقضاء الله فيُرفع هذا القضاء؛ لأن القضاء لا يُرفَع حتى يُرْضى به . وهكذا لم يكن جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط ، بل وزيادة على

ذلك يسوق له المولى البشرى بمزيد من العطاء فيقول : { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين } [الصافات : 112] .

أي أنه لم يرزقه بولد ثانٍ فقط ، بل بولدٍ يكون نبياً وصالحاً . وتأتي زيادة أخرى في العطاء الرباني لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ } [الأنبياء : 72] .

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذي يحفظ ذكره فقط ، بل يعطيه الولد الذي يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكل ذلك نافلة من الله ، أي عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبي الأنبياء .

إذن النفل هو الأمر الزائد عن الأصل . ومثال ذلك ما خص الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركتْه الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » .

إذن تشريع الله للغنائم في الإسلام أمر زائد عن الأصل؛ لأن الغنائم لم تحل لأحد من الأنبياء قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم .

وهناك نفل ، وهناك غنيمة ، وهناك فيء ، وهناك قبض .

وسنوجز معنى كل منها :

الغنيمة : هي ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين ، وتقسم فيما بينهم بنسب معينة ، فللرجل المقاتل سهم واحد ، وللفارس سهمان ، وهذا على سبيل المثال فقط وتقسيمها حسب تشريع الله عز وجل ، وسبق بيان النفَل والنفْل بفتح الوسط وسكونه ، والفيء هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر – « والقبَض » بتحريك الوسط بمعنى المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

لكن إذا جاء ولي الأمر وبين للمقاتلين مشجعاً لهم على حركة الحرب مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« من قتل كافراً فله سلبه » .

فلذلك أمر زائد في حصته في الغنيمة .

وقد يبعث القائد سريةً ويشجعها على خوض الصعاب فيقول لأفراد تلك السرية : لكم نصف ما غنمتم ، أو الربع أو الخمس ، فهذا يعني أن من حقهم أن يأخذوا النسبة التي حددها لهم

القائد كأمر زائد ، ثم تقسم الغنائم من بعد ذلك ، وساعة يأخذ المقاتلون الأسلاب والمتاع ، والعتاد والأموال من الأسرى ، فهذه تسمى غنائم ، أما حين تُجْمع الغنائم عند ولي الأمر فيصير اسمها القبَض وقد سبق بيانه .

وفي يوم بدر حدثت واقعة يرويها الصحابي الجليل سعد بن مالك رضي الله عنه قائلاً :

« قلت يا رسول الله : قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، قال عليه الصلاة والسلام : » إن هذا السيف لا لك ، ولا لي ، فضعه « ، قال : فوضعته ، ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلي بلائي ، قال : فإذا رسول الله يدعوني من ورائي . قال الصحابي : قد أنزل الله في شيئاً؟ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سألتني السيف ، وليس هو لي ، وأنه قد وُهِب لي ، فهو لك » ، قال : وأنزل الله هذه الآية : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول } [الأنفال : 1]

أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحكم في أمر السيف إلا بعد أن ينزل حكم الله عز وجل . ونعلم جميعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غزوة بدر ولم يكن يقصد القتال ، بل كان الخروج للعير التي تحمل بضائع قريش القادمة من الشام ، وليس معها إلا بعد أربعون رجلاً يحرسونها ، ولذلك خرج المسلمون وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم عدة أو عتاد ، بل لم يكن لديهم إلا فرسان اثنان لأنهم لم يخرجوا لقتال ، بل خرجوا للعير بغية أن يعوضوا أنفسهم شيئاً مما سُلبوه في مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان سلك طريق الساحل . أي سار في طريق بعيد عن المسلمين ولم يأت من جهة الرسول والذين معه ، واستنفرت قريش كل رجالها ليحموا العير ، وصار الأمر بين أن يرجع المؤمنون دون حرب ، وإما أن يواجهوا النفير ، وهو التعداد الكثير ، وكانوا ألفاً ومعهم العُدّة والعتاد ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع الفتيان على الحرب فقال لهم : « من قتل كافراً فله سلبه » ، أي أنه خصّهم بأمر زائد عن سهمهم في الغنيمة . فلما علم الكبار من الصحابة والشيوخ ، قالوا : يا رسول الله هم قاتلوا وقتلوا ، لكن نحن كنا عند الرايات ، يفيئون إلينا إن وقعت عليهم هزيمة فلا بد أن نتشارك ، وحدث لغط وخلاف ، فحسم الله سبحانه وتعالى هذا اللغط بأن أنزل قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول فاتقوا الله } .

فبين سبحانه أن الحكم في قسمة الغنائم بين الجميع لله وللرسول وإياكم أن تخرجوا عن أمر الله فيها ، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية . فلا تنازعوا ولا تختلفوا { وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ } . إن كان قد حصل بين الطرفين ، الشبان والشيوخ الكبار قليل من الخلاف فأصلحوا ذات بينكم . وساعة تسمع { وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ } قد تسأل : ما هو البين؟ الجواب « البين » هو ما بين شيئين ، فحين يجلس صف من الناس بجانب بعضهم البعض ، فما بين كل منهم هو ما يُسمى «

البين » ، وقد يكون الذي يفصلنا عن بعض « بين مودة » أو بين جفوة ، إذن فالبين له صورة وله هيئة ، فإن كانت الصورة التي بينكم وبين بعضكم فيها شيء من الجفوة فأصلحوا السبب الذي من أجله وُجدَ « البين » حتى لا يكون بينكم جفوة ونزاع .

ثم يقول تبارك وتعالى : { وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ } [الأنفال : 1] .

وقلنا إن أمر الطاعة معناه الامتثال ، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهي أيضاً ، لأن الأمر طلب فعل ، والنهي طلب عدم فعل ، وكلاهما طلب . وحينما يقول الحق : { وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ } .

تفهم هذا القول على ضوء ما عرفناه من قبل وهو أن مسألة الطاعة أخذت في القرآن صورا ثلاثا ، الصورة الأولى : يقول الحق تبارك وتعالى : { وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ } وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول ، ولكنه يفرد الأمر بالطاعة .

ومرة ثانية يقول المولى عز وجل : { وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول } [المائدة : 92] .

أي أنه سبحانه يكرر المطاع ، ويكرر الأمر بالطاعة .

ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى : { وَأَطِيعُواْ الرسول } . لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل ، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواردت السنة مع النص القرآني ، فنحن نطيع الله والرسول في الأمر الصادر من الله . وهناك بعض من التكاليف جاءت إجمالية ، والإجمال لا بد له من تفصيل ، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى : { فَأَقِيمُواْ الصلاة إِنَّ الصلاة كَانَتْ عَلَى المؤمنين كِتَاباً مَّوْقُوتاً } [النساء : 103] .

إذن فالله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الإجمال تفسيراً وتطبيقاً فهي خمس صلوات ، ركعتان للصبح ، وأربع ركعات للظهر ، وأربع ركعات للعصر ، وثلاث ركعات للمغرب ، وأربع ركعات للعشاء ، وحدد الرسول عليه الصلاة والسلام الصلوات التي نجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن ، وحدد الصلوات التي لا نجهر فيها بالتلاوة .

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى { أَطِيعُواْ الله } ، أي أطيعوه في مجمل الحكم ، وحين يقول : { وَأَطِيعُواْ الرسول } أي أطيعوه في تفصيل الحكم ، وإذا ما قال : { أَطِيعُواْ الله والرسول } فهذا يعني أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ ، والمراد واحد ، وإذا لم يكن لله أمر ، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول : { وَأَطِيعُواْ الرسول } ، وسبحانه قد أعطى رسوله تفويضاً بقوله :

{ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا } [الحشر : 7] .

أي أن كل أمر من الرسول إنما يأتي من واقع التفويض الذي أكرمه الله به ، وهنا يقول سبحانه وتعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول فاتقوا الله وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ

وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [الأنفال : 1] .
أي إن كنتم مؤمنين حقا فاتقوا الله الذي آمنتم به واتّبِعُوا الأمر الصادر من الله ورسوله لكم ، لأن مدلول الإيمان هو اقتناع القلب بقضية لا تطفو للمناقشة من جديد ، وكذلك اقتناع بأن هذا الكون له إله واحد ، وله منهج يبلغه الرسول المؤيد من الله عز وجل بالمعجزة ، وهذا الإيمان وهذا المنهج يفرض عليكم تقوى الله بإصلاح ذات البين ، ويفرض عليكم طاعة الله والرسول في كل أمر ، ومن هذه الأمور التي تتطلب الطاعة هو ما أنتم بصدده الآن ، لأنه أمر في بؤرة الشعور .
ويأتي الحق بعد ذلك ليبين من هم المؤمنون فيقول : { إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا . . . }

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

وفي هاتين الآيتين الكريمتين خمسُ صفاتٍ لها ترتيب عقائدي وحركي وجوارحي ، وبذلك يتحدد تشخيص كلمة « المؤمنين » ، هذه الصفات هي الأولى : أنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وثانية الصفات أنه : إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً ، ثالثة الصفات : أنهم على ربهم يتوكلون ، ورابعة الصفات : أنهم يقيمون الصلاة ، وخامسة الصفات : أنهم ينفقون مما رزقهم الله .
والصفة الأولى للمؤمنين هي : { إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الأنفال : 2] .
والوجل هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرة ، واضطراب في القلب ، وحينما أراد الشعراء أن يعطوا صورة بهذا الإحساس ، نجد شاعراً منهم يقول :
كأن القلب ليلة قيل يغدي ... بليلي العامرية أو يراح
قطاط غرها شرك تجا ... ذبه وقد علق الجناح
فالشاعرُ يصور حالة قلبه حين سمع بنبأ سفر حبيبته ، كأنه صار مثل حمامة تحاولُ أن تخلّص نفسها من شبكة أو مَصْيدة وقعت فيها ، إنما تجاذب المصيدة حتى تخرج ، وهي ترجف في مثل هذا الموقف ، هكذا حال القلب لحظة فراق المحبوبة عند الشاعر .
وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى : ؟ { الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب } [الرعد : 28] .
في الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتي بأحوال متعددة ، فإن كان الإنسان مسرفاً على نفسه ، فهو يرجف حين يذكر الله الذي خالف منهجه . وإن كان الإنسان يراعي حق الله في كل عمل قَدْر الاستطاعة ، فلا بد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

إذن فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مَهابةِ وسطوة صفات الجلال . والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال . ولذلك تجمعها آية واحدة هي قول الحق تبارك وتعالى : { الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله } [الزمر : **23**] .

فالجلود تقشعر خوفاً ووجَلاً ومهابة من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً في حنان المنّان سبحانه وتعالى ، لأن رّبنا قال : { نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم } [الحجر : **49**] .

إذن فلا يقولن أحد إن هناك تعارضاً بين الوجل والاطمئنان ، فكلها من ذكر الله بالأحوال المتعددة للإنسان ، فإذا ما وجل الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ } [هود : **114**] .

وهل يزيد الإيمان أو ينقص؟

اختلف العلماء في هذا الأمر . ونحن عندما ننظر إلى قول الحق نجده يؤكد زيادة الإيمان ، وحينما نسأل ما الإيمان؟ وما الإسلام؟ . . . . إلخ نجد الجواب في توضيح الرسول صلى الله عليه وسلم ورده على السائل في الحديث الآتي والذي يرويه الصحابي الجليل سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله : ما الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر ، قال يا رسول الله : ما الإسلام؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال يا رسول الله : ما الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله : متى الساعة؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها ، إذا ولدت الأمة ربها فذلك من أشراطها ، وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاءُ البَهْم في البنيان فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا صلى الله عليه وسلم : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ردوا عليّ الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

وجبريل عليه السلام حين جاء يسأل ليعلم بعضاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الرسول عليه السلام عن الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » ، وفي رواية أخرى ذكر القضاء والقدر خيره وشره .

وهذه كلها أمور غيبية ، ولا يقال في الأمر المحسّ إيمان ، فلا يقول واحد : أنا مؤمن أني أتحرك على الأرض؛ لأن هذا أمر حسيّ . والإيمان لا يكون إلاّ بالأمور الغيبية وأولها أن تؤمن بإله واحد لا تدركه الأبصار وهو غيب ، وبملائكته وهي غيب ، وصدقنا وجودها لأنه أبلغنا بذلك الوجود . وكذلك أن نؤمن بالكتب المنزلة على الرسل . وبالرسل ، وصحيح أن الكتاب أمر حسيّ والرسول كذلك له وجود حسيّ ، لكن لم نشاهد الوحي وهو ينزل الكتاب على الرسول . إذن فهو أمر غيبي ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر أمر غيبي أيضاً ، والايمان بالقضاء والقدر وهو ما غابت عنا حكمته ، وكلها إذن أمور غيبية .

هذا الإيمان في القمة ، لكن هناك إيمان آخر يجيء لأننا نعلم أن التشريعات لم تأت مرة واحدة ، بل كانت تأتي على مراحل ، فتشريع ينزل أولاً بأن نؤمن أنه من الله . إذن فالذي يزيد وينقص من الإيمان هو الإيمان بالتكليفات ، وأنها صادرة من الله عز وجل ، وكلما كانت تنزل آية بتشريع جديد كانت تزيد المؤمنين إيماناً ، فعندما نزل الأمر بالصلاة آمنوا بإقامتها واستجابوا ونفذوا ، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به ، ثم يجيء الأمر بالزكاة فتكون الطاعة والتنفيذ ، وطبعاً هناك فرق بين أن تؤمن بالشيء ، وأن تفعل الشيء .

فالإيمان شيء ، وفعله شيء؛ لأن الإسلام هو الانقياد الظاهري للمنهج ، وتطبيق كل ما يجيء به الإسلام هو إيمان مستمر متزايد؛ لأننا آمنا بأن ما يجيء من المنهج هو من الله . إذن فالذي يزيد هو توابع الإيمان من التكليفات والامتثال لهذه التكليفات ، مثال ذلك : كلنا نعرف قول الحق : { وَللَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً } [آل عمران : 97] .

لكن هناك أناس يتمسكون بحرفية قوله الحق : { وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالمين } [آل عمران : 97] .

والذين يتمسكون بحرفية القول الحق لم يتساءلوا : كفر بماذا؟ هل كفر لأنه لم يحج؟ لا ، إن كفره في هذه المسألة لا يكون إلا بأن ينكر أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالمطلوب منا إيمانياً أن نقر بالحج كركن من أركان الإسلام في حدود الاستطاعة ، فإن فعله الإنسان كان قد نفذ الحكم ، أما إن لم يفعله فقد يكون ذلك في حدود عدم الاستطاعة .

ويذيل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها بقوله : { وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } . ومُتعلّق الجار والمجرور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور؛ لذلك ففي الأسلوب حصر وقصر ، مثلما نقول : « لزيد المال » أي أن المال ليس لغيره ، وقول الحق : { وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } أي لا يتوكلون على غيره ، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى ، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشيء الذي لا تقوى عليه تقول بصدده : « وكلت فلاناً ينجزه لي على خير وجه » وحتى تختار الذي توكله ويكون مناسباً لأداء تلك

المهمة فأنت تعلن باطمئنان : أنك قد وكلت فلانا .
إذن معنى { وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } أي أنهم يكلون أمورهم على من ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق سبحانه وتعالى القادر العظيم الذي خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدي إلى مسبَّبات الأسباب مقدمة ، والمسبّبات هي النتيجة . وبعد ذلك ترك أموراً ليس فيها أسباب ، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعز عليك في أسبابه؛ إياك أن تيأس من أنه لا يحدث ، بل قل : تلك هي قضية الأسباب ، أما أنا فلي رب خلق الأسباب . وهو القادر فوق كل الأسباب ، وفي حياتنا اليومية نلحظ أن الناس يخلطون بين عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويظن إنسان ما أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ويركن إلى الكسل ويقول : أنا متوكل على الله ، وهذا نقول له : لا ، إن هذا منك تواكلٌ وليس توكلاً؛ لأن التوكل ليس عمل جوارح ، التوكل عمل قلوب .
والمؤمن الذي يستقبل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التي يجب أن يأخذها ، وسبحانه وتعالى هو المسبب الأعلى ، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، فعلى الجوارح أن تحرث الأرض ، وأن تختار البذرة الطيبة ، وتنثرها في الأرض ، ثم ترويها ، وتتعهدها ، وهذه العمليات اسمها الأسباب ، ثم لا تركن إلى الأسباب فقط ، بل عليك أن تقول : إن فوق كل الأسباب هناك المسبِّبُ .

فمن الجائز أن يخضر الزرعُ وينمو ، ثم تأتي له آفةٌ من مطر أو حر وتضيعه .
ومن ينقل التوكل إلى الجوارح . نقول له : أنت تواكلت ، أي نقلت عمل القلب إلى الجوارح .
ومن يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس . لأنه تكاسل عن الأخذ بالأسباب وادّعى أنه متوكل على الله . ولو كان الواحد من هؤلاء صادقاً في توكله على الله لأخذ بالأسباب .
وعادة فإني دائماً أقول لمن يدّعي التوكل مع الكسل : لماذا لا تترك الطعام يأتي إلى فمك ، لماذا تمد إليه يديك؟ . إن من يكسل إنما يكذب في التوكل ، فلا أحد مثلاً يترك قطعة اللحم تقفز من طبق الطعام إلى فمه ، لكنه يأخذها بيده . ويمضغها بأسنانه ، ويبلعها بعد المضغ ، ولو كان صادقاً في أن التوكل هو ألا تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك ، لكنه يكذب ويتواكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه ، ولا يستعملها في الأمور التي تتعبه . وقول الحق تبارك وتعالى : { وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } .
هذا القول يعني أنهم يؤمنون بأن الأسباب من خلق الله . وحين يأخذ المؤمن بالأسباب فهو يؤمن أنه لاجىء إلى الله ومعتمد عليه ، لكن إن عزت عليه الأسباب فهو يعلم أن له رباً ، ولذلك قال : { وعلى رَبِّهِمْ } ، والرب هو الخالق من عَدَم ، والممد من عُدْم ، وما دام قد خلقك وأمدك من عُدْم قبل أن يكلفك ، فهل من المعقول أن يظلمك؟ طبعاً لا . لكن عليك أن تفطن أنه لك

جوارح ، فاستعملْ الجوارح فيما خلقت من أجله .

وتأتي الآية التالية لتوضح عمل الجوارح ، وهي تحمل الصفتين الرابعة والخامسة من صفات المؤمنين : { الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [الأنفال : 3] .

والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والتكبير في الصلاة عمل جوارح ، وكذلك الزكاة هي عمل ناتج من عمل سبق ، فحتى تخرج الزكاة لا بد أن تبذل الجهد وتأخذ بالأسباب لتنتج ما يعولك أنت ودائرتك القريبة من زوجة وأبناء ثم أقارب ، ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه الزكاة ، وهذه بطبيعة الحال غير زكاة الزروع التي تُخْرَج في يوم الحصاد . { وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } [الأنعام : 141] .

ودائما ما نجد الصلاة والزكاة وهما مقترنتان ببعضهما ، ولا تجد آية فيها ذكر للصلاة إلا وفيها ذكر للزكاة أيضاً؛ لأن الصلاة تعني ترك أمورك الحياتية التي تسعى فيها لدنيا الأسباب ، وتذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه ، أي أنك قد اقتطعت جزءاً من الزمن الذي كنت تقضيه في حركة حياتك لتقف فيه أمام ربك خالق الأسباب .

والزكاة تعني أنك تقتطع جزءاً من مالك ، ولذلك قلنا : إن الصلاة فيها زكاة وزيادة ، فأنت تخرج مقدار اثنين ونصف في المائة مما يتبقى معك من مال يبلغ نصاباً ويكون زائداً عن الحاجة الأصلية ، لكنك بالصلاة تضحي ببعض الوقت الذي تقضيه في العمل الذي يأتي لك بأصل المال ، إذن ففي الصلاة زكاة وأكثر . وأنت في الزكاة تتنازل عن بعض المال ، لكنك في الصلاة تتنازل عن الوقت الذي هو محل العمل ، وهو الذي تنتج فيه الرزق ، والرزق وعاء الزكاة .

ويذيل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية قائلاً :

{ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } ونعلم أن الرزق كما ذكر العلماء هو كل شيء ينتفع به الإنسان ، وحتى اللص الذي يسرق وينتفع بسرقته يعد هذا بالنسبة له رزقاً لكنه رزق غير طيب وله عقاب في الدنيا إن تم ضبطه ، ولن يفلت من عقاب الله الحاكم العادل في الدنيا والآخرة ، وهو بطبيعة الحال غير الرزق الحلال الذي يأتي من عمل مشروع ، والمؤمن الحق هو من ينفق من هذا الرزق الحلال؛ سواء لمتطلبات حياته أو رعاية المجتمع الإيماني .

وبعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { أولائك هُمُ المؤمنون . . . }

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

و « أولئك » تشير إلى من أنعم الله عليهم بالصفات الخمس السابق ذكرها ، وهؤلاء هم من وجلت قلوبهم من ذكر الله ، وزادتهم الآيات في إيمانهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، هؤلاء هم المؤمنون حقاً { أولائك هُمُ المؤمنون حَقّاً } .

ولنعلم أن الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا تذهب به الأغيار ، ويخضع له كل الناس لأنه يتعلق بمصالح حياتهم . وإن جاء الباطل ليزحزح الحق ، نجد الحق ثابتاً لا يتزحزح لأنه قوي .

ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى : { أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17] .

وحين ينزل المطر من السماء ، يأخذ من مائة كل وادٍ من الوديان على قدر اتساعه وعمقه ، ويمتليء ، ترى الرغاوي وهي الزبد تطفو فوق السيْل ، وهي عبارة عن هؤلاء سببه وجود الشوائب من قش وغيره ، وهذا مثل نراه في حياتنا ، ونجد الأرض والناس وكل المخلوقات تنتفع بالمياه ، لكنها لا تنتفع بالزبد أو الرغاوي . ثم ينتقل الحق في ذات الآية من ضرب المثل بالماء ، إلى ضرب المثل بالنار فيقول : { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ } [الرعد : 17] .

وأنت حين ترى قطعة الحديد وهي تتحول إلى السيولة بالانصهار في النار ، تجد شرراً يتطاير منها ، ويطفو فوق سطح الحديد المصهور ، وهو ما يسمى ب « خبث الحديد » وتتم إزالة هذا الخبث ليبقى الحديد صافياً لتصنع منه السيوف أو الخناجر وغيرها ، وهذه الحالة تحدث في الذهب حين يصهره الصائغ ليزيل عنه أية شوائب ويعيد تشكيله ليكون حلياً .

وزبد الماء وزبد الحديد وزبد الذهب يتجمع على الجوانب ويبقى الماء صافياً ، وكذلك الحديد والذهب ، ولهذا يقول الحق : { كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل } [الرعد : 17] .

أي أن الحق يبقى صافياً ثابتاً ، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الجوانب ليذهب بغير فائدة .

ويوضح الحق علو كلمته سبحانه وتعالى في آية أخرى فيقول : { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا } [التوبة : 40] .

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين ، أما كلمته سبحانه وتعالى فلها العلو الثابت .

والحق هنا يبين أن المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات الخمس هم مؤمنون حق الإيمان فيقول عز وجل : { أولائك هُمُ المؤمنون حَقّاً } .

ومعنى هذا أن هناك مؤمنين ليسوا على درجة عالية من الإيمان ، أي أن هناك منازل ودرجات للإيمان متفاوتة ، ولكل قدر من الصفات منزلة وعطاء مناسب .

ونحن نرى البشر حينما يخصهم واحد بوده يفيضون عليه من خيراتهم ، فنجد غير العالم يأخذ ممن يودهم من العلماء بعض العلم ، والضعيف الذي يعطي وده لقوي ، يعينه القوي ببعضٍ من قوته

، والفقير الذي يعطي وده لغني ، يعطيه الغني بعضاً من المال ، والأرعن يأخذ ممن يودهم من العقلاء قدراً من التعقل للأمور .

إذن أهل المودة والقرب والتقوى يفاض عليهم من المولى وهم ممن اختصهم الله بالعطاءات ، فالذي وجدت فيه هذه الصفات ، ومؤمن حقاً تكون له درجات عند ربه تناسب حظه من الحق وحظه من الصفاء ، ولنعرف أن السير في درب الحق يعطي الكثير . والمثال الذي نقدمه على ذلك أننا نجد من يصلي الأوقات الخمسة في مواعيدها ، وهذا هو المطلوب العام ، إذا ما صلى ضعف ذلك بالليل ، أو واظب على الصلاة في الجماعة ويلزم نفسه بمنهج الله ، سوف يأخذ حظاً من الصفاء لم يكن موجوداً عنده من قبل ذلك ، وسيجد في قلبه إشراقات وتجليات ، وتسير أمور حياته بسهولة ويسر .

وقد يكون الإنسان من هؤلاء – على سبيل المثال – خارجاً من البيت وسألته زوجته : ماذا نطبخ اليوم؟ ويجيبها : لنقض هذا اليوم بما تبقى عندنا من الأمس . وعندما يعود قد يفاجأ بأن شقيقه قد قدم من الريف ، وأحضر له هدية من البط ، والقشدة والفطائر . فتسأله زوجته : أكنت تعلم بمجيء أخيك؟ فيقول : لم أكن أعلم ، وهذا مجرد مثال ، لكن عطاءات الصفاء تكون أكثر من ذلك مادياً ومعنوياً ، ومن يستمر في العبادة ويزيد عليها ويؤدي كل ذلك بحقه ، سيزيد عطاء الله له؛ لأن الله لا يمل عطاء أهل الصفاء أبداً . ومن يجرب مثل هذه العبادة ويزيدها سيجد عطاء الله وهو يزيد .

ودائما أضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى وهو منزه سبحانه وتعالى عن التشبيه لنفترض أن إنساناً أراد أن يسافر من القاهرة إلى الإسكندرية ، وسأل إنساناً آخر ، فقال له : إن ذهبت من الطريق الفلاني ستجد استراحة طيبة ، عكس الطريق الفلاني .

ويتبع المسافر نصائح من أرشده ، فيجده صادقاً ، فيرتاح من بعد ذلك لرأيه ، وكذلك أهل الصفاء ، هم أهل العطاء ، وعلى قدر صفائهم يكون هذا العطاء . والذي يشجع الناس الذين يبالغون في التعبد هو هذا الإشراق ، وهناك من يصف الواحد منهم بأنه مجذوب وإن من يطلق على المتعبد الزاهد هذا الوصف يرى المنزلة العالية وهي تشد هذا المتعبد إليها ، وهو من جهة أخرى ينظر هذا الزاهد إلى من يتعثرون في طلب الدنيا ، ويصفهم بينه وبين نفسه بأنهم من « الغلابة » ويدعو لهم .

وأقول لمن يرى واحداً من هؤلاء : لا شأن لك بأي إنسان من هؤلاء وإياك أن تتعرض لهم واتركهم في حالهم ، ما دام الواحد منهم لا يسألك شيئا . { لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ } .

والدرجات عند البشر هي ارتقاءات يسعى إليها ، فما بالنا بالدرجات التي عند الرب؟ وما دام الله سبحانه وتعالى قد وعدهم بالدرجات العالية عنده فقد ضمنوا المغفرة؛ لأن الواحد منهم

سيطهر بالمغفرة ، وجاء الحق بعطاء الدرجات قبل المغفرة لأنه سبحانه خلق الخلق ويعرف أنهم أهل أغيار ، ويعلم أن هناك من أسرفوا على أنفسهم ، ويحاولون فعل الخيرات لأنهم يؤمنون بأن الحسنات يذهبن السيئات ، وسبحانه علمنا أن معالم الدين تأخذ حظها من المسرفين على أنفسهم ، لأن من لم يسرف على نفسه تجده يطيع الله طاعة هادئة رتيبة فليس وراءه ما يلهب ظهره .

أما من عملوا السيئات فإن هذه السيئات تقض مضاجعهم . والمسرف على نفسه لحظة الإسراف يظن أنه أخذ من الله شيئاً واحداً من خلف منهجه ، فيوضح له ربنا : إياك أن تظن أن هناك من يخدع الله . فأنت ستعمل كثيراً وبشوق لخدمة منهج الله ، ونجد المسرف على نفسه لحظة الإفاقة والتوبة ، وهو يندفع إلى فعل الخيرات . مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر » . لأن فجر الفاجر يتجسد أمامه ويريه سوء المصير ، فيندفع إلى فعل الخيرات ليمحو السيئات ، أما من لم يخطىء فنجده هادىء القلب ، مطمئن النفس ، لا يلهب ظهره شيء .
{ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال : 4] .
وهل هذا الرزق ناشيء من كريم؟ الجواب لا؛ لأن الكرم تعدى من الكريم الأصيل ، إلى أن صار الرزق نفسه كريماً ، وكأن هذا الرزق يتعشق صاحبه؛ لأن ربنا ساعة يعطي إنساناً نعمةً ، ثم يستعملها العبد في الطاعة ، تحس النعمة أنها مسرورة بالذهاب إلى هذا الإنسان لأنه استعملها في طاعة وفيما يرضى الله عز وجل .
ولك أن تعرف أن الرزق أعلم بمكانك منك بمكانه . فلا أحد يعرف عنوان الرزق الذي قدره الله له ، لكن الرزق يعرف عنوان صاحبه ، ويبحث عنه في كل مكان إلى أن يجده . هكذا نفهم أن الكرم يتعدى إلى الرزق نفسه فيصبح الرزق كريماً .
وجاء كل هذا الحديث بمناسبة الخلاف على الغنائم والأنفال ، وفصل ربنا بالحكم وبين وأوضح أن الأنفال لله والرسول ولم يعد لأحد كلام بعد كلام الله ، وهذه الحادثة في الأنفال حدثت في الخروج إلى الحرب ، فحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج للحرب ، كان هناك فريق منهم كاره لهذا الخروج ثم رضي به . لكن حالهم اختلف في الغنائم فطالب بعضهم بأكثر مما يستحق؛ لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى : { كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ . . . }

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5)

و « كما » تدل على تشبيه حالة بحالة ، فهم قد رضوا بقسمة الله في الغنائم بعد أن رفضوها ، وكذلك قبلوا من قبلُ أن يخرجوا لملاقاة النفير بعد كراهيتهم لذلك . لكنهم خرجوا وحاربوا

وانتصروا ثم اختلفوا على الغنائم ، ورضوا أخيراً بقسمة الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام .

فهل ذكر مسألة كراهيتهم للخروج إلى الحرب هي طعن فيهم؟ لا ، فهذا القول له حيثية بشرية؛ لأن الذي يريد أن يخوض معركة لا بد أن يغلب عليه الظن بأنه سوف ينتصر ، وإلا سينظر إلى أن عملية الخروج إلى القتال فيها مجازفة . وكان المسلمون في ذلك الوقت قليلي العدد ، وليس معهم عُدَد ، بل لم يكن لديهم من مراكب إلا فرسان اثنان . وكان خروجهم من أجل البضائع والعير ، لا لملاقاة جيش كبير ، وهكذا لم تكن الكراهية لهذه المسألة نابعة من التأبي على أوامر الله تعالى ، أو مطالب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولكنهم نظروا إلى المسألة كلها بالمقاييس البشرية فلم يجدوا فيها التوازن المحتمل .

ويريد الله أن يثبت لهم أنهم لو ذهبوا وانتصروا على العير فقط ، لقيل عنهم إنهم جماعة من قطاع الطرق قد انقضوا على البضائع ونهبوها ، فلم يكن مع العير إلا أربعون رجلا ، والمسلمون ثلاثمائة ويزيدون ، ومن المعقول أن ينتصروا ، ولكن ربنا أراد أن ينصرهم على النفير الذي استنفره الكفار من مكة ، هذا النفير الضخم في العدد والعدة ويضم جهابذة قريش وصناديدها ، وتتحقق إرادة الحق في أن يزهق الباطل . { كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بالحق وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين لَكَارِهُونَ } .

والخروج من البيت هنا مقصود به خروج الرسول من المدينة لملاقاة الكفار ، وهذا الفريق من المؤمنين لم تخرجهم الكراهية عن الإيمان؛ لأن معنى « فريق » هم الجماعة الذين يفترقون عن جماعة ويجمعهم جميعاً رباط واحد ، فالجيش مثلاً يتكون من فرق ، يجمعهم الجيش الواحد .

وهذه الفرق التي يأتي الحديث عنها هنا هي الفرق التي كرهت أن تخرج إلى القتال رغم أنهم مؤمنون أيضاً ، ونعلم أن كراهية القتال أمر وارد بالنسبة للبشر ، وسبحانه وتعالى القائل : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعسى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [البقرة : 216] .

ويقول الحق بعد ذلك : { يُجَادِلُونَكَ فِي الحق بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ . . . }

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6)

و { يُجَادِلُونَكَ فِي الحق } ، أي يجادلونك في مسألة الخروج لملاقاة النفير ، بعد ما تبين لهم الوعد الحق من الله عز وجل وهو وعده سبحانه وتعالى بأن تكون لهم إحدى الطائفتين ، وهما طائفة العير أو النفير الضخم الذي جمعته قريش لملاقاتهم . وما دام الحق قد وعدكم إحدى الطائفتين ، فلماذا لا تأخذون الوعد في أقوى الطوائف؟ لماذا تريدون الوعد في أضعف الطوائف؟! لقد وعدكم الحق سبحانه وتعالى أن إحدى الطائفتين ستكون لكم ، فكان المنطق والعقل يؤكدان أنه

ما دام قد وعدنا الله عز وجل إحدى الطائفتين ، فلنقدم إلى الأنفع للإسلام والحق الذي نحارب من أجله ، وأن نواجه الطائفة ذات القوة والشوكة والمنعة؛ لأنه قد يكون من الصحيح أن النصر مؤكد على طائفة العير ، لكن هذا النصر سيبقى من بعد ذلك مجرد نصر يقال عنه! إنه نصر لقطاع طريق ، لا أهل قضية إيمان ودين .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطائفتين أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشوكة تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ الله أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافرين } [الأنفال : 7] .

فالمنطق إذن يفرض أن الله عز وجل ما دام قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين ، طائفة في عير والأخرى في نفير ، كان المنطق يفرض إقبال المؤمنين على مواجهة الطائفة القوية؛ لأن النصر على النفير هو أشرف من النصر على طائفة العير . { يُجَادِلُونَكَ فِي الحق بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الموت وَهُمْ يَنظُرُونَ } .

ونلحظ أن هناك « سوق » ، وهناك « قيادة » ، والقيادة تعني أن تكون من الأمام لتدل الناس على الطريق ، و « السوق » يكون من الخلف لتحث المتقدم أن يقصر المسافة مع تقصير الزمن ، فبدلاً من أن نقطع المسافة في ساعة – على سبيل المثال – فنقطعها في نصف ساعة .

وقوله تعالى :

{ يُسَاقُونَ إِلَى الموت وَهُمْ يَنظُرُونَ } [الأنفال : 6] .

أي أنهم غير منجزين للسير . بل هم مدفوعون إليه دفعاً ، وهم ينظرون بشاعة الموت ، لأنهم تصوروا أن مواجهتهم لألف فتى من مقاتلي قريش مسألة صعبة ، فألف أمام ثلاثمائة مسألة ليست هينة؛ لأن ذلك سيفرض على كل مسلم أن يواجه ثلاثة معهم العدة والعتاد ، فكأن الصورة التي تمثلت لهم صورة بشعة ، لكنهم حينما نظروا هذه النظرة لم يلتفتوا إلى أن معهم ربّا ينصرهم على هؤلاء جميعاً .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطائفتين أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ . . . }

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7)

والوعد من الله عز وجل يجب أن يستقبل من الموعود بأنه حق؛ لأن الذي يقدح في وعد الناس للناس أن الإنسان له أغيار ، فقد تعد إنساناً بشيء ، وقد حاولت أن تفي بما وعدت ولكنك لم تستطع الوفاء بالوعد . أو كانت لك قوة وانتهت . أو قد يتغير رأيك . إذن فالوعد من المساوي من الخلق غير مضمون ، لكن الوعد من القادر القوي ، الذي لا تقف عراقيل أمام إنفاذ ما يريد ، هو وعد حق ويجب أن يتلقوا هذا الوعد على أنه حق . { وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطائفتين أَنَّهَا

لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشوكة تَكُونُ لَكُمْ } .

أي إن كنتم تميلون وتحبون أن تكون لكم الطائفة غير ذات الشوكة التي تحرس العير – والشوكة هي شيء محدد من طرف تحديداً ينفذ بسهولة من غيره ، وأنت تجد الشوكة مدببة رفيعة من الطرف ثم يزداد عرضها من أسفلها ليتناسب الغِلْظُ مع القاعدة لتنفذ باتساع . وذات الشوكة أي الفئة القوية التي تنفذ إلى الغرض المراد ، ولا يتأبى عليها غرض ، ولذلك يقال « شاكي السلاح » . فإن كتم تتمنون وتريدون عدم ملاقاة جيش الكفار في معركة فالمولى عز وجل يقول لكم { وَيُرِيدُ الله أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافرين } .

أي أن الله تعالى يريد أن ينصر الإسلام بقوة ضئيلة ضعيفة بغير عتاد على جيش قوى فيعرفون أن ربنا مؤيدهم ، وبذلك يحق الحق بكلماته أي بوعده . وهناك الكلمة من الله التي قال فيها : { وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها التي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى } [الأعراف : 137] .

هكذا كان وعد الله الذي تحقق . { وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافرين }

والدابر والدُبر هي الخلف ، وتقول : « قطعت دابره » أي لم أجعل له خلفاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك : { لِيُحِقَّ الحق وَيُبْطِلَ الباطل . . . }

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ **(8)**

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قال من قبل ويريد الله أن { يُحِقَّ الحَقَّ } ، وهنا يقول : { لِيُحِقَّ الحق } والمراد بالحق الأول نصر الجماعة الضعاف ، القلة الضعيفة على الكثرة القوية ، هذا هو الحق الأول الذي وعد به الحق بكلماته ، ليحق منهج الإسلام كله ، ولو كره المجرمون .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ . . . }

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ **(9)**

ومادة « استغاث » تفيد طلب الغوث ، مثل « استسقى » أي طلب السقيا ، و « استفهم » أي طلب الفهم ، و « الألف » و « السين » و « التاء » توجد للطلب . و « استغاث » أي طلب الغوث من قوى عنه قادر على الإغاثة ، وأصلها من الغيث وهو المطر ، فحين تجدب الأرض لعدم نزول المطر ولا يجدون المياه يقال : طلبنا الغوث ، ولأن الماء هو أصل الحياة؛ لذلك استعمل في كل ما فيه غوث ، وهو إبقاء الحياة ، وفي حالة الحرب قد يفنى فيها المقاتلون؛ لذلك يطلبون الغوث من الله عز وجل { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ } .

و { تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ } بضمير الجمع ، كأنهم كلهم جميعاً يستغيثون في وقت واحد ، وقد

استغاث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصطف القوم وقال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه واستقبل القبلة وقال : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم ائتني ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض » .

ويدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان يستغيث بالخالق الذي وعد بالنصر ، ورد القوم خلفه : آمين ، لأن أي إنسان يؤمن على دعاء يقوله إمام أو قائد فهو بتأمينه هذا كأنما يدعو مثلما يقول الإمام أو القائد . فمن يقول : « آمين » يكون أحد الداعين بنفس الدعاء . والحق سبحانه وتعالى هو القائل : { وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : **88**] .

وهذا ما جاء في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعدها : { قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا } [يونس : **89**] .

مع العلم بأن سيدنا موسى عليه السلام هو الذي دعا ، وقوله سبحانه من بعد ذلك { أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا } دليل على أن موسى دعا وهارون قال : « آمين » فصار هارون داعياً أيضاً مثل أخيه موسى . { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ } [الأنفال : **9**] .

{ فاستجاب لَكُمْ } الألف والسين والتاء -كما علمنا - تأتي للطلب ، وقول الحق سبحانه وتعالى { فاستجاب } يعني أنه طلب من جنود الحق في الأرض أن يكونوا مع محمد وأصحابه؛ لأن الله سبحانه وتعالى ، خلق الكون ، وخلق فيه الأسباب . نراها ظاهرة ، ووراءها قوى خفية من الملائكة . والملائكة هم خلق الله الخفي الذي لا نراه ولا نبصره ، إلا أن الله أخبرنا أن له ملائكة .

فالملائكة ليست من المخلوقات المشاهدة لنا ، وإنما إيماننا بالله ، وتصديقنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله تعالى جعلنا نعرف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الملائكة ، وأخبرنا أيضاً أنه خلق الجن وصدقنا ذلك ، إذن فحجة إيماننا بوجود الملائكة والجن هو إخبار الرسول الصادق بالبلاغ عن الله تعالى ومن يقف عقله أمام هذه المسألة ويتساءل : كيف يوجد شيء ولا يرى ، نقول له : هذه أخبار من الله .

وهناك من أنكر وجود الملائكة والجن وقال : إنما القوى الميكانيكية في الأسباب ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبي ، فسبحانه يترك في مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبي إلى الذهن ، فيجعلك لا تعرف وجود أشياء تشعر بآثارها ، ثم بمرور الزمن تدرك وجودها ، وهذه الأشياء لم تُخلق حين اكتشفتها ، وإنما هي كانت موجودة لكنك لم

تتعرف عليها ، وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك وجود الشيء . ومثال ذلك كان اكتشاف الميكروب في القرن السابع عشر وهو موجود من قبل أن يكتشف ، وكان يدخل في أجسام الناس ، وينفذ من الجلد ، وحين اكتشفوه ، دلّ ذلك على أنه كان موجوداً لكننا لم نكن نملك أدوات إدراكه . إذن فإن حُدثت بأن لله خلقاً موجوداً وإن لم تكن تدركه ، فخذ مما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه .

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى بوجود الملائكة ، وكل شيء له ملائكة يدبرونه ، وهم : « المدبرات أمرا » ، والملائكة الحفظة ، وسبحانه القائل : { لَهُ معقبات مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله } [الرعد : 11] .

وسبحانه أيضاً القائل : { مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : 18] .

وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بمصالح الإنسان في الأرض ، المطر مثلاً له ملكه ، الزرع مثلاً له ملكه ، وكل شيء له ملك . وهو سبب خفي غير منظور يحرك الشيء . { فاستجاب لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة } .

والإمداد هو الزيادة التي تجيء للجيش ، لأن الجيش إذا ووجه بمعارك لا يستطيع أن يقوم بها العدد الموجود من الرجال أو السلاح ، حينئذ يطلب قائد الجيش إرسال المدد من الرجال والعتاد . { أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة مُرْدِفِينَ }

ونعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لآدم ، لم يكن الأمر لكل جنس الملائكة ، بل صدر الأمر إلى الملائكة الموكلين بمصالح الأرض . أما الملائكة غير الموكلين بهذا ، فلم يدخلوا في هذه المسألة ، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما عنف إبليس ، قال له : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين } [ص : 75] .

والمقصود ب « العالين » هم الملائكة الذين لم يشملهم أمر السجود .

والحق تبارك وتعالى هنا في هذه الآية يبين أنه سبحانه وتعالى قد أمد المسلمين المحاربين في غزوة بدر ب : { بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة مُرْدِفِينَ }

والرِدْفُ هو ما يتبعك ، ولذلك يقال : « فلان ركب مطيته وأرْدَفَ فلاناً » ، أي جعله وراءه .

والمُردِف هو من يكون في الأمام ، والمردَف هو من يكون خلفه . والآية توضح لنا أن الملائكة كانت أمام المسلمين؛ لأن جيش المسلمين كان قليل العدد ، وجيش الكفار كان كثير العدد ، وجاءت الملائكة لتكثير عدد جيش المسلمين ، فإذا كان العدد مكوناً من ألف مقاتل ، فقد أرسل الحق ملائكة بنفس العدد ويزيد بذلك جيش المؤمنين بعدد المؤمنين . وكان يكفي أن يرسل الحق ملكاً واحداً ، كما تحكي الروايات عما حدث لقوم لوط ، فقد روي أن جبريل عليه السلام ، أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط ، وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق

الحمار ، ونباح الكلاب ، وصياح الديوك ، ولم تنكفىء لهم جرّة ، ولم ينسكب لهم إناء ، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض .
وصيحة واحدة زلزلت قوم ثمود . لماذا إذن أرسل الحق تبارك وتعالى هنا ألفاً من الملائكة؟ .
حدث ذلك لتكثير العدد أمام العدو وليفيد في أمرين اثنين :
الأمر الأول : أن تأخذ العدو رهبة ، والأمر الثاني : أن يأخذ المؤمنون قوة لكن أكان للملائكة في هذه المسألة عمل؟ أو لا عمل لهم؟ هنا حدث خلاف .
ونجد الحق تبارك وتعالى يقول : { وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى . . . }

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10)

أي أن الملائكة هي بشرى لكم ، وأنتم الذين تقاتلون أعداءكم ، وسبحانه وتعالى هو القائل : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } [التوبة : 14] .
قال الحق سبحانه وتعالى ذلك للمؤمنين وهم يدخلون أول معركة حربية ، ويواجهون أول لقاء مسلح بينهم وبين الكافرين ، لأنهم إن علموا أن الملائكة ستقاتل وتدخل ، فقد يتكاسلون عن القتال ويدخلون إلى الحرب بقلوب غير مستعدة ، وبغير حمية ، فأوضح ربنا : أنا جعلت تدخل الملائكة بشرى لكم ، و { لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ } ، أي أن عدد الملائكة يقابل عدد جيش الكفار ، والزيادة في العدد هي أنتم يا من خرجتم للقتال . واعلموا أن الملائكة هي لطمأنة القلوب .
لكن الحق يريد أن يعذبهم بأيديكم أنتم ، لأن الله يريد أن يربي المهابة لهذه العصبة بالذات ، بحيث يحسب لها الناس ألف حساب .
واختلفت الروايات في دور الملائكة في غزوة بدر ، فنجد أبا جهل يقول لابن مسعود : ما هذه الأصوات التي أسمعها في المعركة؟ فقد كانت هناك أصوات تُفزع الكفار في غزوة بدر - ويرد ابن مسعود على أبي جهل : إنها أصوات الملائكة . قال : إذن بالملائكة تغلبون لا أنتم . .
فإياكم أن تفتنوا حتى بالملائكة؛ لأن النصر لا منكم ولا من الملائكة ، ولكن النصر من عندي أنا؛ لأن الذي تحب أن ينصرك ، لا بد أن تكون واثقاً أنه قادر على نصرتك ، والبشر مع البشر يظنون الانتصار من قبل الحرب ، ومن الجائز أن يغلب الطرف الآخر ، لكن النصر الحقيقي من الذي لا يُغْلَب وهو الله سبحانه وتعالى : { وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله }
وأنت حين تستنصر أحداً لينصرك على عدوك فهذا الذي نستنصر به إن كان من جنسك يصح أن يَغْلِب معك ويصح أن تنغلب أنت وهو ، لكنك تدخل الحرب مظنة أنك تغلبَ مع من ينصرك وقد يحدث لكما معاً الهزيمة أمَّا الحقُّ سبحانه وتعالى فهو وحده الذ لا يُغَالَب ولا يُغْلَب .

{ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .
وهو سبحانه وتعالى الناصر ، وهكذا يكون المؤمن الذي يقاتل بحمية الإيمان واثقاً من النصر ، لكن إياكم أن تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمةً ، فإن تهاونتم في أي أمر يُسلب منكم النصر؛ لأن الله لا يغير سننه مع خلقه ، وقد رأينا ما حدث في غزوة أحد حين تخاذلوا ولم ينفذوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتصروا؛ لأن الحكمة اقتضت ألا ينتصروا ، ولو نصرهم الله لاستهانوا بعد ذلك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقال بعض منهم : خالفناه وانتصرنا ، وهكذا نجد أن طاعة الله والرسول والأخذ بالأسباب أمر هام ، فحين جاء الأمر من رسول الله في غزوة أحد بما معناه : يا رماة لا تتركوا أماكنكم ، ولو رأيتمونا نفر إلى المدينة ، فلا شأن لكم بنا ، وعلى كل منكم أن يأخذ دوره ومهمته ، فإذا رأى أخا له في دوره قد انهزم فليس له به شأن ، وعلى كل مقاتل أن ينفذ ما عليه .

لكنهم خالفوا فسلبهم الله النصر . وهكذا يتأكد لهم أن النصر من عند الله العزيز الذي لا يغلب . وقال البخاري عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة ، وأمَّر عليهم « عبد الله بن جبير » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تبرحوا وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » .
ونلحظ أن المدد بالملائكة ورد مرة بألف ، ومرة بثلاثة آلاف في قول الحق سبحانه { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بثلاثة آلاف مِّنَ الملائكة مُنزَلِينَ } [آل عمران : **124**] .

فإن لم يكفكم ثلاثة آلاف سيزيد الله العدد ، لذلك يقول المولى عز وجل : { بلى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءالاف مِّنَ الملائكة مُسَوِّمِينَ } [آل عمران : **125**] .
إذن المدد يتناسب مع حال المؤمنين ، ويبين ذلك قوله سبحانه : { بلى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ } فالصبر إذن وحده لا يكفي بل لا بد أيضا من تقوى اللخ ، ولا بد كذلك من المصابرة بمغالبة العدو في الصبر؛ لذلك يقول المولى تبارك وتعالى في موقع آخر : { اصبروا وَصَابِرُواْ } [آل عمران : **200**] .
وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضاً ميزة الصبر؛ لهذا يزيد الله الصابر ، فإن صبر العدو على شيء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه .
وقد جعل الله عز وجل الإمداد بالملائكة بشرى لطمأنة القلوب وثقة من أن النصر من عند الله تعالى :

{ وَمَا جَعَلَهُ الله إلاَّ بشرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النصر إلاَّ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال : 10] .

وما أن بدأت المعركة حتى بدأ توالي النعم التي سوف تأتي بالنصر ، إمداد بالملائكة ، بشرى لتطمئن القلوب ، وثقة من أن النصر من عند الله العزيز الحكيم .

ثم يأتي التذكير بالدلالة على ذلك فيقول المولى سبحانه وتعالى : { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ }

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)

والنعاس عبارة عن السِّنة الأولى التي تأخذ الإنسان عندما يحب أن ينام ، ويسميها العامة في مصر « تعسيلة » ويقولون : « فلان معسل » أي أخذته سِنَة النوم ، وهي ليست نوماً بل فتور في الأعصاب يعقبه النوم ، وهذا من آيات الله تعالى في أن يهب الإنسان راحة مؤقتة وليست نوماً . وسبحانه يقول عن ذاته العليا : { لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ } [البقرة : 255] .

أي أنه – جل وعلا – لا يأخذه النومُ الخفيفُ ولا النوم الثقيل . لأنّ السِّنة هي إلحاح من الجسم في طلب النوم ، ويكون نوماً خفيفاً ، وسبحانه وتعالى ليس كمثله شيء فهو عز وجل لا يتجسد أو يتمثل في شيء ، لا السِّنة تأخذه ولا النوم يقاربه ، ونلحظ أن الإنسان إذا ما تكلم بجانب من تأخذخ السِّنة فهو يصحو وينتبه . أما النائم بعمق فقد لا يصحو .

فالسِّنة – إذن – هي الداعي الخفيف للراحة . أما النوم فهو الداعي الثقيل . وهنا أنزل الله عليهم النعاس بمثابة مقدمة للنوم ليستريحوا قليلاً . ونعلم أن النوم آية من آيات الله عز وجل في كونه؛ لأن الجسم حين يعبر عن نفسه بالحركة والطاقة ويأكل الغذاء ويشرب الماء ويتنفس الهواء ، كل ذلك يتحول إلى طاقة ثم إلى وقود للحركة .

وهذه الطاقة تتكون بالتفاعل بين العناصر المختلفة ، من تمثيل للغذاء وتحويل الطعام إلى نوعيات مختلفة لتغذية كل خلية من خلايا الجسم بما يناسبها ، ثم استخلاص « الأوكسجين » عبر التنفس وطرد ثاني أكسيد الكربون ، وعشرات الآلاف من التفاعلات الكيميائية لا توجد بها فضلات لتخرج ، وهي تختلف عن التفاعلات الأخرى التي تخرج منها الفضلات من أحد السبيلين ، أو من صماخ الأذن أو غير ذلك .

ومثل هذه الفضلات إنما تنتج من الاحتراقات التي نقول عنها : « العادم » في الآلات الميكانيكية . والعادم هو نتيجة الاحتراق وهي غازات تنفصل لتسير الحركة . وفي الإنسان نجد العادم يتمثل في الغائط ، وما خرج من صماخ الأذن ، و « عماص العين » ، والعرة ، كلها عوادم . لكنْ هناك لون من تركيبة هذه التفاعلات يُمثل لإيجاد الطاقة وليس له عادم .

والوسيلة الأساسية لاستعادة التوازن الكيميائي المناسب للإنسان هي أن نريح الجسم ، وتتفاعل مواد الجسم مع نفسها ويعود طبيعياً . وهذا لا يحدث إلا بالنوم . ولذلك نجد الإنسان حين يسهر كثيراً ويذهب إلى النوم يشعر برجليه وقد « خدلت » أو كما يقال : « نملت » . وهذا نتيجة عجز مواد الجسم عن التفاعل الذي تحتاجه نتيجة اليقظة ، وهذه كلها مسائل لا إرادية . بدليل أن الإنسان يرغب أحياناً في أن ينام ، ويتحايل أحيانا على النوم فلا يأتيه؛ لأن النوم من العمليات المختصة بالحق سبحانه وتعالى ، وهو آية من آيات الله في هذا الكون ، ومن ضمن الآيات العجيبة .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [الروم : 23] .
وحين حاول العلماء الباحثون أن يفسروا ظاهرة النوم ، وضعوا عشرات النظريات ، وآخر التجارب التي أجريت أنهم أحضروا إنسانا وعلقوه كالرافعة من وسطه ، وكأنه عصا مرفوعة من وسطها بتوازن ، وجعلوا كل نصف من النصفين متساوياً في الوزن ، وحين جاء النوم لهذا الإنسان محل التجربة وجدوا أن جهة من النصفين مالت ، وكأن ثقلاً ما جاءها من النصف الآخر فزادت كتلتها ، وهذا آخر ما درسوه في النوم ، هذه التجربة أثبتت أن النوم عجيبة من العجائب التي تستحق أن يقول الحق تبارك وتعالى عنها : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [الروم : 23] .
وانظر إلى كلمة « النهار » هذه تر فيها الرصيد الاحتياطي الموجود في آية النوم؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل } .
وفي هذا القول رصيد احتياطي لمن جاء له ظرف من الظروف ولم ينم بالليل ، فيعوض هذا الأمر وينام بالنهار ، ومن حكمة الله تعالى أنه ذيل هذه الآية بقوله عز وجل : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } .
وهذا بسبب أن النوم يعطل كل طاقات الجسم ، فعندما ينام الإنسان لا يقدر جسمه على أن يتحرك التحرك الإداري ، إلا السمع فهو باق في وظيفته؛ لأن به الاستدعاء ، وإنَّ العين – مثلاً – لا ترى أثناء النوم ، إنما الأذن تسمع ولا تتخلى عن السماع أبداً؛ لأن بالأذن يكون الاستدعاء ، فإذا ما نادى الأب ابنه وهو نائم فهو يسمع النداء . لذلك قلنا سابقاً : إنَّ الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينيم أهل الكهف ثلثمائة سنة وازدادوا تِسْعا ، قال تعالى : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11] .
لأنه لو لم يضرب على آذان أهل الكهف لظل السمع باقياً ، فإذا ظل السمع ، أهاجته الأعاصير ، وعواء الذئاب ، وزئير الأسود ، ولما استطاعوا النوم طيلة هذه المدة .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :
{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ } [الأنفال : 11] .
وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال هو :
وهل هناك نعاس غير أمنة؟ والجواب نعم؛ لأنه مجرد الراحة من تعب لتنشط بعدها ، هذا لنفهم أن « أمنة » جاءت لمهمة هي تهدئة أعماق المؤمنين في المهيجات المحيطة ، فهذا عدو كثير العدد ، وهو بلا عتاد؛ لذلك شاء الحق تبارك وتعالى ألا يضيع منهم الطاقة اللازمة للمواجهة ، ولا تتبدد هذه الطاقة في الفكر؛ لذلك جعل نعاسهم مخصوصاً يغلبهم وهو « نعاس أمنة » ، وجعل المولى عز وجل من هذا النعاس آية ، حيث جاءهم كلهم جميعا ، وهذه بمفردها آية من آياته سبحانه وتعالى ولو غلبهم النوم العميق لمال عليهم الأعداء مَيْلَة واحدة ، ولكنهم أخذوا شيئاً من الراحة التي فيها شيء من اليقظة .

{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً } .
وهنا النعاس مفعول به ، وهو أمنة من الله ، وسبحانه يقول في آية أخرى : { ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الغم أَمَنَةً نُّعَاساً } [آل عمران : 154] .
هنا في آية الأنفال نعاس وأمنة ، وهناك في آية آل عمران أمنة ونعاس؛ لأن الحالتين مختلفتان – فتوضح آية آل عمران أن التعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين في غزوة أحد بعد أن أصابهم الغم في هذه الغزوة ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما في سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبهم جميعا ولا يوجد بينهم منافق أو مرتاب فغشيتهم جميعا هذه الأمنة بالنعاس؛ لأنه يزيل الخوف ، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثقة بنصر الله .
ويقول الحق تبارك وتعالى متابعاً في ذات الآية :
{ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان } [الأنفال : 11] .

ومعنى التطهير أن هناك حادثاً يستحق التطهر منه وهم لم يجدوا ماءً ليتطهروا به حيث كان المشركون قد غلبوا المسلمين على الماء في أول الأمر ، فظمئ المسلمون وانشغلوا بالعطش ، وبالرغبة في تطهير أجسامهم ، وهذا يدل على أن المؤمن يجب أن يظل نظيفاً ، رغم الوجود في المعركة التي لو استمر فيها الواحد منهم يوماً أو اثنين دون استحمام ، لما لامه أحد على ذلك ، وجاء هذا القول ليدل على حرص المؤمن على النظافة إن خرج شيء من الإفرازات والعرق ، أو كان التطهر من رجز الشيطان؛ لأن الشيطان خيل لهم منامات جنسية ، وأخذ يوسوس قائلا لهم : أنتم تقولون إنّكم على حق ، فكيف تصلون وأنتم جنب؟ وكان مجرد حدوث هذا الأمر لهم

جميعاً هو آية أخرى من الآيات . فأغاظ الله الشيطان وأنزل عليهم الماء ليشربوا ويتطهروا .
ويقول المولى سبحانه وتعالى في ذات الآية : { وَلِيَرْبِطَ على قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدام }
وأراد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن المؤمنين فلا تتوزع أو تتشتت مشاعرهم ، وما أن نزل المطر حتى حفروا الحفر ليتجمع فيها الماء ، وهكذا حماهم سبحانه وتعالى من نقص الماء ، كما أن نزول المطر على الأرض الرملية نعمة كبرى – من جهة أخرى – حيث يثبت الرمال على الأرض فلا تثير غباراً ، ونعلم أن الإنسان حين يسير على الأرض ، فإن ثقلة يدك ما تحته مما يحتمل الدك على قدر وزنه ، فالطفل الصغير حينما يمشي على الرمال ، فأثر سيره يكون بسيطاً ، عكس الرجل الضخم ، وإن قستها بالنسبة لوزن الصبي أو الغلام ، وبوزن الرجل الممتلئ ، تجد أن الأرض قد غاصت بنسبة الكتلة التي سارت عليها ، وحين يسير الناس دون عمل ولا يقصدون غير السير ، يكون الثقل خفيفاً ، أما حين يدخل الرجال الحرب فالأقدام قد تغوص في الرمال وقد يصير جزءٌ من جسد المقاتل معطلاً عن الحركة؛ لأن القدم هي التي تحقق التوازن .

إن هذه من حكمة الله تعالى ، ونحن نرى ذلك في حياتنا ، فنجد أهل الريف يضعون فوق جداول الماء جزع نخلة أو « عرقاً » من الخشب ليسير عليه الإنسان بين الشطين ، وإن فكّر السائر في هذه المسألة قد يقع في الماء ، لكنه إن ترك رجليه للسير تلقائيا ، فهو يمشي محققاً التوازن ، ومثل الأمر يحدث في صناعة سلالم البيوت ، إننا نجدها متساوية في ارتفاع درجاتها ليصعد الإنسان صعوداً رتيباً من غير تفكير ، فإذا اختلت درجة واحدة في السلم بأن كا ارتفاعها مختلفا عن بقية الدرجات يختل التوازن ويقع الإنسان؛ لأن الساق ضبطت نفسها آليا على هذا الوضع .
ولذلك نجد الصعود على السلالم الحلزونية متعباً لأن السلالم الحلزونية فيها جهة واسعة وأخرى ضيقة . وقد يرتبك الإنسان أثناء الصعود ، ولهذه الأسباب نجد الجيوش تكشف طبيّاً على المجندين ، ولا يختارون إلا الشخص المستوي القدمين لتستقبل أقدامه كل الظروف ويكون قادراً على مواجهة الظروف غير العادية ، ومن عظمة الخالق سبحانه وتعالى أن جعل كل عضو من الأعضاء له مواصفات خاصة .
وسبحانه يذيل هذه الآية بقوله عز وجل : { وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدام }
وتثبيت الأقدام من جهة يمثل أمراً معنويّاً ، ومن جهة أخرى يكون تثبيت الأقدام « بمعنى أن نزول المطر جعل الأرض ثابتة » ولا تثير الغبار أو الرمال ، وسبحانه هو القائل في مناسبة أخرى : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قاتل مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا استكانوا والله يُحِبُّ الصابرين * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا في أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين } [آل عمران : **146 – 147**] .

وهكذا نفهم أن تثبيت الأقدام له ألوان متعددة ، حسيّة ومعنوية .
ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ . . . }

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12)

والمولى سبحانه وتعالى هنا يبين أنه أوحى إلى الملائكة بالإلهام : أني معكم بالنصر والتأييد { فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ } .
أي قوّوا عزائم المؤمنين وثبتوا قلوبهم . أي اجعلوا قلوبهم كأنها مربوطة عليها فلا يخافون أية أغيار من عدوهم ، ويزيد الإيضاح للمؤمنين : إياكم أن تظنوا أن كثرةَ العددِ أو قوةَ العُدَدِ هي التي تصنع النصر . بل النصرُ دائماً من عند الله تعالى وسبحانه القائل : {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله } [البقرة : 249] .
وذلك لأن النسبة بين المؤمنين والكافرين غير متوازنة وتحتاج إلى مدد عال من الله تعالى . وقلنا إن السماء تتدخل إذا كان الأمر فوق أسباب الخلق ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى : { أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ } [النمل : 62] .
وإن قال قائل : أنا أدعو الله أكثر من مرة ولا يجيبني . . نرد عليه ونقول له : أنت لم تدع دعوة المضطر ، بل دعوت دعوة المترف ، مثلما يدعو ساكن في شقة بأن يرزقه الله بقصرٍ صغير . أو يدعو من يسير على أقدامه وتحمله سيارة العمل طالباً سيارة خاصة ، أو يدعو من يملك « تليفزيونا » بأن يهبه الله جهاز « فيديو » ، هذه كلها ليست دعوة اضطرار؛ لأن المضطر هو من فقد أسبابه .
ويتابع الحق القول في ذات الآية : { سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [الأنفال : 12] .
وإذا ألقى الله عز وجل الرعب والخوف في قلوب العدو مهما كان عَدَدُه ومهما كانت عُدَدُه ، فسيترك هذا العدو كل ما معه ويفر من حالة الرعب والفزع ، وقد فعل بعض من الكفار ذلك .
وقد امتنَّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأن أمدهم بالملائكة بشرى واطمئناناً ، وهيأ لهم الماء ، وطهرهم ، وأذهب عنهم رجز الشيطان ، وكل هذه مقدمات المعركة مستوفاة من جانب الحق تبارك وتعالى إمداداً لكم ، وما عليكم أيها المؤمنون سوى أن تُقبلوا على المعركة بعزيمة صادقة ، عزيمة المقاتل الشجاع المحارب الذي له من العقل ما يفكر به ويدبر في التخطيط ، وفي الكر والفر .
وكانت أدوات القتال قديماً هي السيوف والرماح والنبال ، وكان المقاتل يحتاج رأسه ليخطط به ، ويحتاج يديه وأنامله ليمسك بها السيف ، ولذلك ينبه الحق المؤمنين إلى هاتين النقطتين المؤثرتين

فيقول : { فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } .

والضرب لما فوق الأعناق هو ضرب الرأس فيفقد القدرة على التفكير ، أو تذهب حياته لينتهي ، وإن بقي على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائه وذلتهم . والضرب منهم في كل بنان . أي ضربهم بالسيوف في أيديهم؛ لأن الضرب في الأيدي إنما يجرحها ويجعلها عاجزة عن القتال .

لماذا؟ . يجيب الحق في الآية التالية : { ذلك بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ . . . }

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13)

وهنا يوضح الحق سبحانه وتعالى : أن هذا النصر المؤزر للنبي وصحبه والهزيمة للمشركين؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ، و « شاقوا » من « الشق » ومعناه أنك تقسم الشيء الواحد إلى اثنين . وكان المفروض في الإنسان منهم أن يستقبل منهم الله الذي نظم له حركته في هذا الكون ، ولم يكن هناك داع لتبديد الطاقة بالانشقاق إلى جماعتين؛ جماعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وجماعة مع الكفر والشرك؛ لأن الطاقة التي كانت معدة لإصلاح أمر الإنسان والكون للخلافة؛ إنما يتبدد جزء منها في الحروب بين الحق والباطل ، ولو توقفت الحروب لصارت الطاقة الإنسانية كلها موجهة للإصلاح والارتقاء والنهوض وتحقيق الخير لبني الإنسان ، لكنهم شاقوا الله ورسوله ، فجعلوا أنفسهم في جانب يواجه جانب المؤمنين بالله ورسوله ، فجعلوا أنفسهم في جانب يواجه جانب يواجه جانب المؤمنين بالله والرسول؛ لذلك استحقوا عذاب الله وعقابه ، وبسبب أنهم شاقوا الله ورسوله ، عليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله ، فيقول سبحانه وتعالى :

{ وَمَن يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب } [الأنفال : **13**] .

وهذه قضية عامة ، وسنة من الله في كونه تشمل هؤلاء الذين شاقوا الله ورسوله من بدء الرسالة ، وإلى قيام الساعة .

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك : { ذلكم فَذُوقُوهُ . . . }

ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14)

وذلكم إشارة للأمر الذي حدث في موقعة بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق ، وضرب كل بنان كافر ، وإن ربنا شديد العقاب ، وهذا الأمر كان يجب أن يذوقه الكافرون . والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل محسّ به ولو لم يكن مطعوماً أو مشروبا ويقول ربنا عز وجل : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : **49**] . أي ذق الإهانة والمذلة لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس؛ لأن ذوق الطعام هو

الحاسة الظاهرة في الإنسان؛ قد يجده بالذوق حريفاً ، أو حلواً ، أو خشناً أو ناعماً إلى غير ذلك . وها هو ذا الحق يضرب لنا المثل على تعميم شيء : فيقول عز وجل : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .

والجوع سلب الطعام ، فكيف تكون إذاقة الجوع؟ الجوع ليس مما يذاق ، ولا اللباس مما يذاق ، ومن قول الحق تبارك وتعالى نفهم أن الإذاقة هي الإحساس الشديد بالمطعوم ، واللباس –كما نعلم – يعم البدن ، فكأن الإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرجل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق؛ وكأن الجوع قد صار محيطاً بالإنسان كله . وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى : { ذلكم فَذُوقُوهُ } .

والذوق غير البلع والشبع ، ونرى ذلك في عالمنا السِّلعي والتجاري؛ فساعة تشتري – على سبيل المثال – جوافة ، أو بلحاً أو تيناً ، يقول لك البائع : إنها فاكهة حلوة ، ذق منها ، ولا يقول لك كل منها واشبع ، إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشتري لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك . وما نراه في الدنيا هو مجرد ذوق ينطبق عليه المثل الريفي « على لساني ولا تنساني » ، والعذاب الذي رآه الكفار على أيدي المؤمنين مجرد ذوق هيّن جدًا بالنسبة لما سوف يرونه في الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم ، وسيأتي الشبع من العذاب في الآخرة ، لماذا؟ { ذلك بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب } [الأنفال : 13] .

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء الكفار المعاندين ، مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله على الكفر ، وفي يوم القيامة يطبق عليهم القانون الواضح في قوله سبحانه وتعالى : { وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النار }

إذن فالهزيمة لمعسكر الكفر والذلة هي مجرد نموذج ذوق هين لما سوف يحدث لهم يوم القيامة من العذاب الأليم والحق سبحانه وتعالى هو القائل : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ } [الطور : 47] .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، و « العذاب » هو إيلام الحس ، إذا أحببت أن تديم ألمه ، فأبق فيه آلة الإحساس بالألم ، ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن سليمان والهدهد يقول : { وَتَفَقَّدَ الطير فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَاْذبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [النمل : 20 – 21] .

كأن الذبح ينهي العذاب ، بدليل أنّ مقابل العذاب في هذا الموقف هو الذبح .

وماذا عن عذاب النار؟ . إن النار المعروفة في حياتنا تحرق أي شيء تدخله فيها ، لكنّ نار الآخرة تختلف اختلافا كبيرا لأن الحق هو القائل : { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا

لِيَذُوقُواْ العذاب } [النساء : 56] .
ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { يَٰأَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمُ . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15)

ونعلم أن نداء الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين بقوله : { يَٰأَيُّهَا الذين آمنوا } ، إما أن يكون بعدها أمر بمتعلق الإيمان ومطلوبه ، وإما أن يكون بعدها الإيمان نفسه ، ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ } [النساء : 136] .
وبعضهم يقول : كيف ينادى مؤمنين ثم يقول لهم : « آمِنوا »؟ ، وهؤلاء المستفهمون لمْ يلتفتوا إلى أن الحق حين يكلم المؤمنين يعلم أنهم مؤمنون بالفعل ، ولكن الأغيار في الاختيار قد تدعوهم إلى أن يتراخى البعض منهم عن مطلوبات الإيمان . و « آمنوا » الثانية معناها : أنشئوا دائما إيماناً جديداً أي مستمراً يتصل بالإيمان الحاضر والإيمان المستقبل ، ليدوم لكم الإيمان .
فإذا كان ما بعد { يَٰأَيُّهَا الذين آمنوا } أمراً بمطلوب الإيمان ، من حكم شرعي ، أو عظة أخلاقية . يكون أمرها واقعاً ، والمعنى : يا من آمنتم بي إلهاً قادراً حكيماً ، ثقوا في كل ما آمركم به لأني لا آمركم بشيء فيه مصلحة لي؛ لأن صفات الكمال لي أزلية ، فخلقي لكم لم ينشئ صفة كمال ، فإن كلفتكم بشيء ، فتكليفي لكم يعود عليكم بالنفع والمصلحة لكم ، وضربنا المثل - ولله المثل الأعلى منزّه عن كل مثل - أنت تذهب إلى الطبيب بعد أن تتشاور مع أهلك وزملائك وتكون واثقاً بأن هذا هو الطبيب الذي ينفع في هذه الحالة التي تشكو منها ، وساعة تذهب إليه يشخص لك المرض ويكتب لك الدواء ، وسواء استخدمت الدواء أم لم تستخدمه فأنت حر وأثر ذلك يعود عليك وعود استعمالك الدواء لن يضر الطبيب شيئاً ، بل أنت الذي تضر نفسك ،كذلك منهج الله الذي جعله لصلاحية حركة الحياة . إن اتبعته وطبقته تنفع نفسك ، وإن تركته فلم تطبقه فسوف تضر نفسك ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى : { وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] .
إذن فالاختيار لك والله سبحانه وتعالى قد خلقك ، وخلق الكون الذي يخدمك من قبل أن توجد ، وأنت طارىء على هذا الكون ، طارىء على الشمس وعلى القمر ، وعلى الأرض ، وعلى الجبال ، وعلى الماء وعلى أي شيء في هذا الوجود . والذي خلق ما سبقك لا بد أن تكون له صفات الكمال المطلق . فهو سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء بالحكمة والنظام ، وما دامت له سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق المستوعبة ، فهو لا يطلب منك بالتكاليف أن تنشىء له صفات كمال جديدة ، وهو غني عنك . فإذا اقتنعت بالإيمان فلمصلحتك أنت ، ولم يكلفْك إلا بالأحكام التي تصلح من حالك . وحيثية كل حكم هو تصديره ب { يَٰأَيُّهَا الذين آمنوا } .

إياك أن تبحث عن علة في الحكم؛ لأنك لو ذهبت إلى الحكم لعلته ، لاشتركت مع غير المؤمنين ، فالمؤمن – مثلا – حين سمع الأمر باجتناب الخمر ، امتثل للحكم لأنه صادر من الله ، من بعد ذلك عرف غير المؤمنين – بالتحليل العلمي – أن الخمر ضارة فامتنعوا عنها ، فهل امتناعهم هو امتناع إيماني؟ لا .

إذن فإن المؤمن يأخذ الأمر من الله عز وجل لا لعلة الأمر بل لمجرد أنه قد صدر من الله؛ لذلك يمتثل للأمر وينفذه . . فالمسلم يمتثل لأوامر الله ويؤدي العمل الصالح دون بحث أو تساؤل عن علته ، فحين يقال – على سبيل المثال – إن من فوائد الصيام أن يذوق الغني ألم الجوع ، ويعطف على الفقير ، حين أسمع من يقول ذلك أقول له : قولك صحيح لأن فيه لمسة من فهم ، لكن ماذا عن صوم الفقير الذي ليس عنده ما يعطيه لغيره ، ألا يصوم أيضاً؟ .

إن المؤمن يصوم لأن الأمر جاء من الله بالصيام . ومعظم أحكام الله تأتي مسبوقة بقوله : { يَٰٓأَيُّهَا الذين آمنوا } ، أي : يا من آمنتم بي إلهاً أقبلوا عليّ ، فإنكم إن بحثتم عن العلة ، ثم نفذتم الحكم لعلته فأنتم غير مؤمنين بالإله الآمر والمشرع ، لكنكم مؤمنون بعلة المأمور به ، والله يريدك أن ترضخ له فقط ، ولذلك يأمرك بأوامر وينهاك بنواهٍ ، فأنت – مثلا – حين تحج بيت الله الحرام ، تسلم على الحجر الأسود بأمر من الله ، وقد تتيح لك الظروف أن تقبِّل هذا الحجر كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت في كل ذلك لا ترضخ للحجر . بل للآمر الأعلى الذي بعث محمداً بحرب على الأصنام وعلى الأحجار ، وأنت تتبع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنتهى التسليم والإيمان ، وتذهب بعد ذلك لترجم الأحجار التي هي رمز إبليس . وتفعل ذلك تسليماً لأوامر الله تعالى التي بلغتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : { يَٰٓأَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار } [الأنفال : 15] .

فما دمت قد آمنت بالإله ، لا بد أن تدافع عن منهج الإله؛ لأن هذا أيضاً لمصلحتك؛ لأنك بإيمانك بالله أيها المؤمن ينتفع المجتمع كله بخيرك ، ولن يأمرك سبحانه إلا بالخير ، فلن تسرق ، ولن تزني ، ولن تشرب خمراً ، ولن تعربد في الناس ، ولن ترتشي ، وبكل ذلك السلوك ينتفع المجتمع؛ لأن المجتمع يضار حين يوجد به فريق غير مهتدٍ . وأنت حين تقاتل لتفرض الكلمة الإيمانية هلى هؤلاء ، فهذا يعود إلى مصلحتك ، ولذلك فإن اتصافك بالإيمان لا يتحقق إلا إن عديته لغيرك ، ومن حبك لنفسك ، أن تعدى الإيمان بالقيم التي عندك إلى غيرك لتنتفع أنت بسلوك من يؤمن ، وينتفع غيرك بسلوكك معه ، ومن مصلحتك أن يؤمن الجميع .

وحين يكلفك الحق تبارك وتعالى بالجهاد في سبيل الله فأنت تفعل ذلك لصالحك .

{ يَٰٓأَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ زَحْفاً } [الأنفال : 15] .

وزحفاً مصدر زَحَف ، والزحْف في الأصل هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر بالنصف الأعلى من الجسم . وتقول : « الولد زحف » أي تحرك من مكانه بنقل يديه وشد بذلك بقية جسمه . كما نقول : « حبا » . أي استعمل الوركين والركبتين ليتحرك بجسده على الأرض ، ثم نقول : « مشى » أي وقف على قدميه وسار ، فتلك إذن مراحل تبدأ من زَحْف ثم حَبْو ثم مَشْي ، والطفل يبدأ حركته الأولى بالزحف ، بعد أن يتمكن من السيطرة على رأسه ، ويمتلك القدرة على تحريكها بإرادته ، ويقوى نصفه الأعلى ، فيقعد ، ثم يزحف ، وبعد ذلك تقوى فخذاه فيحبو ، ومن بعد ذلك تقوى الساقان فيمشي .

إذن قوة الطفل تبدأ من أعلى .

ولكن ما حكاية « زحفا » هنا في هذه الآية الكريمة؟ ولماذا لم يقل هَرْولوا إلى القتال؟ . ونقول : إن الزحف هو انتقال كتلته لا ترى الناقل فيها ، فمن يراها يظن أن الكتلة كلها تتحرك .

وكأن الحق تعالى يقصد : أريد منكم أن تتحركوا إلى الحرب كتلة واحدة متلاصقين تماماً فيظهر الأمر وكأنكم تزحفون . وزحفاً أصلها زاحفين ، وقد عدل سبحانه وتعالى عن اسم الفاعل وجاء بالمصدر ، مثلما نقول عن إنسان عادل : إنه إنسان عدل ، أي أن عدله مجسم . ولذلك نجد الشاعر يقول عن الجيش الزاحف :

خميس بِشَرْقِ الأرضِ والغربِ زحفُه ... وفي أذنِ الجوزاءِ منه زمازم

والخميس هو الجيش الجرار ، ويريد الشاعر أن يصوّر الزحف كأنه كتلة واحدة متماسكة ومترابطة ، بحيث لا تستطيع أن تميز حركة جندي من حركة جندي آخر ، حتى ليخيّل إليك أن الكتلة كلها تسير معاً . ومن يريد أن يتأكد من ذلك ندعو الله أن يكتب له الحج ويصعد إلى الدور الثاني من الحرم المكي الشريف ويرى الطائفين ، ويجدهم ملتحمين جميعاً كأنهم كتلة واحدة تسير ، ولذلك سمّوها « السيل » .

و « سالت بأعناق المطي الأباطح »

مَثلُهم مثل السيل في تدفقه لا تفرق فيه نقطة عن أخرى .

والحق تبارك وتعالى يوضح لنا هنا أن لقاء الكفار يجب أن يكون زحفاً أي كتلة واحدة متماسكة ، فيصيب المشهد الكافرين بالرعب حين يرون هذه الكتلة الضخمة التي لا يفرق أحد بين أعضائها ، وهكذا تكون المواجهة الحقيقية .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى التنبيه فيقول :

{ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار } [الأنفال : 15] .

أي لا تعطوهم ظهوركم ، وهو سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول : { وَلاَ تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } [المائدة : 21] .

ويريد الله أن يعطي صورة بشعة في أذن القوم؛ لأن « الأدبار » جمع « دبر » والدبر مفهوم أنه

الخلف ويقابله القُبُل ، وهذا تحذير لك من أن تمكن عدوك من ظهرك أي دبرك ، لأن هذا أمر مستهجن ، ولذلك نجد الإمام عليا – كرّم الله وجهه – يرد على من قالوا له إن درعك له صدار وليس له ظِهار ، أي مغطى من الصدر ، وليس له ظهر . وهنا يقول الإمام على رضي الله عنه : « ثكلتني أمي إن مكّنت عدوي من ظهري » ، وكأن شهامة وشجاعة الإمام تحمله على أنه يترك ظهره من غير وقاية .

وفي قول الحق جل وعلا { فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار } تحذير من الفرار من مواجهة العدو .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك : { وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ . . }

وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16)

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة لم يرتب الغضب منه إلا على من يولي الدبر هَرباً وفراراً من لقاء الأعداء . أما الذي يولي الدبر احتيالاً ولإيهام العدو بأنه ينسحب وفي ذات اللحظة يعاود الكرّة على العدو مطوّقاً له ، فهذا هو المقاتل الحق والصادق في إيمانه الذي يمكر بالعدو . وكذلك من يولي الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضيع منه حياته بلا ثمن ، فهذا أيضاً من أعمل فكرة ليُنزل بالعدو الخسارة؛ لأن المؤمن يحرص دائما على أن يكون موته بمقابل ، فإذا ما وعده الله بالجنة . ألا يقاتل هو ليصيب الأعداء بالهزيمة؟ . وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة كافرين ، بمعنى أن الله تعالى منح كل مؤمن قوةً تغلب عشرة ، مصداقاً لقوله عز وجل : { يأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صابرون يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } [الأنفال : 65]

ولكن علم الله أن بالمؤمنين ضعفاً فجعل مقابل المؤمن في المعركة اثنين من الكفار ، مصداقاً لقوله تعالى : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يغلبوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين } [الأنفال : 66]

ولذلك فإننا نجد الذي يفر أمام ثلاثة من الأعداء لا يسمى فارًا في الحكم الشرعي . لكن من يفر من مواجهة اثنين ، يعد فارّاً؛ لأن الحق تعالى قال قبل أن يوجد فينا الضعف : { إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ } [الأنفال : 65]

أي أن المقاتل المؤمن كان يمكنه أن يواجه عشرة من الكافرين . فإن كان المقابل أقل من عشرة كافرين ، فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه حتى لا يموت رخيص الثمن . ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى أن الضعف سيصيب المؤمنين؛ لذلك قال : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً

فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ } [الأنفال : 66] .
وهكذا انتقلت النسبة بين المؤمنين والكافرين من واحد لعشرة ، إلى مؤمن مقابل اثنين من الكفار ، وهذا من رحمة الله تعالى ، فمن رأى نفسه في مواجهة أكثر من اثنين من الأعداء يوضح له الحق تعالى : عليك أن تنحاز إلى فئة من المؤمنين تعصمك من نيلهم منك بلا ثمن .
{ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ } [الأنفال : 16] .
وعرفنا أن المتحرف للقتال هو صاحب الحيلة ، ونقول في ألفاظنا التي تجري على ألسنتنا في حياتنا اليومية : « فلان حريف » أي لا يغلبه أمر ويحتال عليه ، وهكذا يكون المتحرف في القتال الذي يكيد للكافرين ويدبر لهم أشياء فيظنون الانهزام ، وهي في الواقع مقدمات للنصر ، وقوله سبحانه : « أو متحيزا » مأخوذ من « الحيز » ، وهو المكان الذي يشغله الجسم ، وكل واحد منا له « حيز » في مكان يشغله ، أي أن كل واحد منا متحز ، والحيز هو الظرف المكاني الذي يسع الإنسان منا واسمه ظرف مكان ، وكل واحد من المخاطبين له مكان وهو متحيز بطبيعته ، وجاءت كلمة « متحيز » في هذه الآية لتوجه كل مؤمن مقاتل أن يأخذ لنفسه حيزاً جيداً يمكنه من إصابة الهدف ، وكذلك تفيد ضرورة انضمام المقاتل دائما إلى فئة مع إخوانه بهدف تقوية المواجهة مع العدو .

ومن لا يفعل ذلك فعليه أن يتلقى العقاب من الله ، وقد بينه تعالى في قوله سبحانه : { فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله } [الأنفال : 16] .
و « باء » تعني رجع ، والتعبير الأدائي في القرآن الكريم مناسب لما فعلوه؛ لأن من يعطي الأعداء دبره فهو الراجع عن الزحف والقتال . لكن من يرجع بهدف الكيد للأعداء والمناورة في القتال أو لتقوية جماعة أخرى من المؤمنين ، فهذا له وضع مختلف تماما ، إنه ناصر لدين الله ، عكس المنسحب الفار الذي يصحبه في انسحابه غضب من الله ، والغضب من الله – كما نعلم – هو سبب من أسباب إنزال العذاب ، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى :
{ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير } [الأنفال : 16] .
والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ، ونعلم أن الواحد منا حين يرغب في الراحة فهو يأوي إلى المكان الذي يجد فيه الراحة والأمن من كل سوء .
والفارُّ من مواجهة العدو في معارك الإسلام لن يجد مأوى إلا النار ، بل وترحب به النار ويدور حوار بينها وبين الحق عز وجل يوم القيامة توضحه الآية الكريمة : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ } [ق : 30] .
ويُثْبتُ الحق في قرآنه الكريم أن النار تغتاظُ من الكافرين لأنها جندٌ من جنود الله تعالى ومسخرة لتنفيذ حكم الله ، فمن خالف المنهج في الدنيا تتلقاه النار بتغيظ وزفير ، ويسمع الكافرون

تغطيتها حين تراهم من بعد ، والحق سبحانه هو القائل : { إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً } [الفرقان : 12] .

وحين تكون النار هي المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع؟ .

كأن الراجع من الزحف والفارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أن يُقتل ، سيذهب إلى شيء شر من القتل .

ثم يربب الحق في المؤمنين ويطلب منهم ألاّ يفتتنوا بالأسباب فيقول سبحانه : { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكن الله قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى . . . }

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17)

وقول الحق تبارك تعالى :

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكن الله قَتَلَهُمْ } [الأنفال : 17] .

مثل قوله تعالى في آية أخرى : { وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله } [آل عمران : 126] .

وفي هذا ترتيب من الحق تبارك وتعالى للمؤمنين ، فكما أن النصر من عند الله عز وجل لمن أخذ بالأسباب ، كذلك قتل الكافرين كان بإرادته سبحانه لمن كفر ووقع هذا القتل بيد المؤمن ، فالمؤمن يضرب بالسيف ، وينجرح العدو وينزف ، لكن ألم تر جريحاً لم يمت ، وألم تر غير مجروح يموت؟ . إذن فالقتل هو من الله .

سبحان ربي إن أراد فلا مرد له يفوت ... كم من جريح لا يموت وغير مجروح يموت

إذن فالمؤمنون حين حاربوا أهل الكفر . إنما يجرحونهم فقط ، أما الموت فهو واقع بهم من الله سبحانه وتعالى .

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكن الله قَتَلَهُمْ } [الأنفال : 17] .

ولقائل أن يقول : إن الحق تبارك وتعالى قال في موقع آخر : { قاتلوهم يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ } [التوبة : 14] .

إذن فللمؤمن المقاتل مظهرية القتال ، وللحق حقيقة القتل . ولذلك يأتي سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

{ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى } [الأنفال : 17] .

وفي هذا القول الكريم عطاء لشيء كان مجهولا لهم بشيء عُلِم لهم ، وبذلك قاس غير معلوم بمعلوم . وعرفنا من قبل أنك إذا رأيت حدثاَ أو فعلاً منفياً ومثبتا له في وقت واحد ، قد يبدو لك أن في الكلام تناقضاً . وهنا – على سبيل المثال – ينفي الحق الحدث في قوله : « وما رميت » وثبته في قوله : « إذ رميت » . والرمي معروف . والفاعل هو رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فكيف ينفي عنه الفعل أولاً ، ويثبته له ثانياً؟ .
ونعلم أن القائل هو رب حكيم ، وأسلوبه على أعلى ما يكون . وحتى نفهم هذه المسألة ، نحن نعرف أن كل حدث له هيئة يقع عليها وله غاية ينتهي إليها ، فمرة يوجد الحدث ، لكن الغاية منه لا تتحقق ، مثلما يقول الوالد لولده : لقد قرب الامتحان فاجلس في حجرتك وذاكر .
ويجلس الولد في حجرته وأمامه كتاب ما يقلب صفحاته ، وبعد ساعة يدخل الأب حجرة ابنه ليقول : هات كتابك لأسألك فيما ذاكرته . ويسأل الأب ابنه سؤالاً ثم ثانياً فلا يعرف الابن الإجابة عن الأسئلة ، فيقول الأب : ذاكرت وما ذاكرت . أي كأنه لم يذاكر ، بل فعل الفعل شكليّاً ، بأن جلس إلى المذاكرة ، ولم يؤد ما عليه لأن أثر الفعل وهو المذاكرة لم يتحقق .
وفي غزوة بدر استنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه واستغاث ودعا الله ورفع يديه فقال : « (يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم) فأخذ صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلاّ أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين »

ومعلوم أنه ساعة تأتي ذرة تراب في عيني الإنسان يشتغل بعينيه عن كل شيء . إذن فقول الحق تبارك وتعالى :
{ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى } [الأنفال : 17] .
أي أنك يا رسول الله ما أرسلت بالرمية الواحدة – حفنة التراب – إلى عيون كل الأعداء؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد ، ولكنك « إذ رميت » أي أديت نصيحة جبريل لك ، أما الإيصال إلى عيون العدو فهذا من فعل الله القويّ القادر .
ويتابع سبحانه وتعالى قوله :
{ وَلِيُبْلِيَ المؤمنين مِنْهُ بلاء حَسَناً إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال : 17] .
والبلاء الحسن هنا هو خوض المعركة وحسن أداء القتال فيها .
ويخطىء الإنسان حين يظن أن البلاء هو نزول المصائب ، لا ، إن البلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور . فالطالب الذي استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسناً ، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئاً . إذن فالابتلاء غير مذموم على إطلاقه ، ولا ممدوح على إطلاقه ، لكن بنتيجة الإنسان فيه هل ينجح أم لا .
وحتى نعرف أن القرآن يفسر بعضه بعضا فلنقرأ قول الحق تبارك وتعالى : { وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً } [الأنبياء : 35] .
فالخير بلاء ، كما أن الشر بلاء ، وحين تستخدم الخير في خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به ، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله ، فهذا كله اختبار من الله عز وجل ، ولذلك

يقول الحق تبارك وتعالى : { فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ } [الفجر : 15] .

وهذا هو الابتلاء بالخير ، أما الابتلاء بالشر فيقول عنه الحق سبحانه : { وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أهانن } [الفجر : 16] .

والابتلاء بالخير أو بالشر هو مجرد اختبار ، والاختبار كما وضحنا غير مذموم على إطلاقه ، ولا ممدوح على إطلاقه ، ولكنه يذم ويمدح بالنسبة لغايته التي وصل إليها المبتلي أو من يمر بالاختبار ، فإن نجح ، فهذا ابتلاء حسن ، وإن فشل ، فهو ابتلاء سيىء .

ونلحظ – على سبيل المثال – أن الطالب الذي ركز فكره ووقته وحبس نفسه وبذل كل طاقته في التحصيل والاستذكار طوال العام الدراسي ، هذا الطالب حين يدخل الامتحان . فهو يحاول أن يثأر من التعب الذي عاناه في التحصيل والإحاطة؛ لذلك يجيب على الأسئلة بدقة ، وكلما انتهى من إجابة سؤال إجابة صحيحة ، يشعر ببعض الراحة ، وإن حاول زميل له أن يشوش عليه فهو يصده ولا يلتفت إليه ، بل قد يستدعي له المراقب . والمؤمن الذي يشترك مع المؤمنين في البلاء الحسن فهو التلميذ الذي يؤدي ما عليه بإخلاص .

والذي يسمع همسة كل مؤمن ويرى فعله هو الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك جاء بعد الحديث عن البلاء الحسن بقوله تعالى :

{ إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال : 17] .

إذن فالله سبحانه وتعالى سميع بما تجهرون به وعليم بما تخفونه في صدوركم . وهو جل وعلا يعلم من حارب بقوة الإيمان ، ومن خالطته الرغبة في أن يرى الآخرون مهارته في القتال ليشيدوا ويتحدثوا بهذه المهارة . ولا أحد بقادر على أن يدلس على الله عز وجل .

ويقول سبحانه وتعالى من بعد ذلك : { ذلكم وَأَنَّ الله مُوهِنُ كَيْدِ . . . }

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18)

و « ذلكم » إشارة إلى أن الأمر كان كذلك ، وسبحانه وتعالى هنا يخبرنا أنه موهن كيد الكافرين ، أي يضعف هذا الكيد ، ولسائل أن يقول : لماذا لا ينهاهم؟ ولماذا يضعف الكفر فقط؟ ونقول : إن إضعاف الكفر يُهَيّج على الإيمان ويحبب المؤمنين في الإيمان حين يرون آثار الكفر التي تفسد في الأرض وهي تضعف ، ولأن الحمية الإيمانية تزيد حين يهاج الإسلام من خصومه . إذن فبقاء الكفر لون من استبقاء الإيمان .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . . }

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

و « تستفتحوا » من الاستفتاح وهو طلب الفتح؛ لأن الألف والسين والتاء تأتي بمعنى الطلب ، فنقول : استفهم أي طلب الفهم ، و « إن تستفتحوا » ، أي تطلبوا الفتح ، ونعلم أن المعنويات مأخوذة كلها من الأمر الحسيّ؛ لأن أول إلف للإنسان في المعلومات جاء من الأمور الحسّية؛ ثم تتكون للإنسان المعلومات العقلية . ومثال ذلك قولنا : « إن النار محرقة » ، وعرفنا هذا القول من تجربة حسّية مرت بأكثر من إنسان ثم صارت قضية عقلية يعرفها الإنسان وإن لم ير ناراً وإن لم ير إحراقاً .

وعندما تجتمع المحسات تتكون عند الإنسان خمائر معنوية وقضايا كلية يدير بها شئونه العامة ، ومثال ذلك : إننا نعرف جميعاً أن المجتهد ينجح ، وأخذنا هذه الحقيقة من الواقع ، تماماً كما أخذنا الحقيقة القائلة : إن المقصر والمهمل كل منهما يرسب .

وسبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه فيقول : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً } [النحل : 78] .

أي أن الإنسان منا مخلوق وهو خالي الذهن ، وخلو الذهن يطلب الامتلاء ، وكل معلومة يتلقاها الذهن الصغير يستطيع أن يستظهرها فوراً ، ولذلك نجد التلمذ الصغير أقدر على حفظ القرآن الكريم من الشاب الكبير؛ لأن هذا الشاب الكبير قد يزدحم ذهنه بالمعلوم العقلي .

وقد شرح لنا علماء النفس هذه المسألة حين قالوا : إن لكل شعور بؤرة هي مركز الشعور . والأمر الذي تفكر فيه تجد المعلومات الخاصة به في ذهنك فوراً . وقد تتزحزح هذه المعلومات من ذاكرتك إذا فكرت في موضوع آخر ، كما تتزحزح المعلومات الخاصة بالموضوع السابق إلى حافة الشعور لتحل مكانها المعلومات الخاصة بالموضوع الجديد في بؤرة الشعور .

والحيز في المعنويات مثله مثل الحيز في الحسِّيات ، فأنت حين تملأ زجاجة بالمياه لا بد أن تكون فوهة الزجاجة متسعة لتدخل فيها المياه ويخرج الهواء الذي بداخل الزجاجة . لكن إن كانت فوهة الزجاجة ضيقة كفوهة زجاجة العطر مثلا فهذه يصعب ملؤها بالمياه إلا بواسطة أداة لها سن رفيع كالسرنجة الطبية حتى يمكن إدخال المياه وطرد الهواء الموجود بداخل الزجاجة ذات الفوهة الضيقة .

وهكذا نرى أن الحيز في الأمور المحسة لا يسع كميتين مختلفتي النوعية ، ويكون حجم كل منهما مساوياً لحجم الحيز . وتقترب المسألة في المخ من هذا الأمر أيضاً ، فأنت لا تتذكر المعلومات الخاصة بموضوع معين إلا إذا كان الموضوع في مركز الشعور ، فإذا ما ابتعد الموضوع عن تفكيرك بعدت المعلومات الخاصة به إلى حاشية الشعور البعيدة . والطفل الصغير يكون خالي الذهن

لذلك يستقبل المعلومات بسرعة ويكون مستحضرا لها .
ولذلك لا يجب أن نتهم إنساناً بالغباء وآخر بالذكاء لمجرد قدرة واحد على سرعة التَّذكر وعجز الآخر عن مجاراة زميله في ذلك ، فالذكاء له مقاييس متعددة ما زال العلماء إلى الآن يختلفون حولها .

لكن في موضوع التذكر اتفق جانب كبير من العلماء على أن الذهن كآلة التصوير يأخذ المعلومة من أول لقطة شريطة أن تكون بؤرة الشعور خالية لهذه المعلومة . أما إن كانت بؤرة الشعور مشغولة بأمر آخر فهي لا تلتقط المعلومة . والحق سبحانه وتعالى هو القائل : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] .
والسمع والأبصار هما عمدة الحواس ، نأخذ بهما محسّات ونُكَوّنُ منها معلومات عقلية .
والحق تبارك وتعالى هنا يقول :
{ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ الله مَعَ المؤمنين } [الأنفال : 19] .
والفتح يُطلق إطلاقات متعددة ، منها الحسّي ، مثل فتح الباب أو فتح الكيس ويقصد إزالة إغلاق شيء يصون شيئاً ، مثل فتح الباب ، والباب إنما يصون ما بداخل الغرفة . والفتح الحسّي يمثله القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى : { وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ } [يوسف : 65] .
أي إن إخوة يوسف حين فتحوا الأخراج – وكانت هي بديلة الحقائب – وجدوا البضاعة التي كانوا قد أخذوها معهم ليستبدلوا بها سلعاً أخرى . وهذا هو الفتح الحسّي .
وقد يكون الفتح في الأمور المعنوية كالفتح في الخير وفي العلم مثل قول الحق تبارك وتعالى : { مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا } [فاطر : 2] .
إذن ففتح الرحمة فتح معنوي .
وقد يكون الفتح في الحكم؛ لأن الحكم يكون بين أطراف مشتبكة في قضية ، وكل طرف يدّعي على الآخر ، ويأتي الحكم ليزيل خفاء القضية ويَفْتَحها .
ومثال ذلك ما حدث بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه . فقومه قالوا : { لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يانوح لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين } [الشعراء : 116] .
فماذا قال سيدنا نوح عليه السلام؟ : { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ المؤمنين } [الشعراء : 117 – 118] .
أي أن سيدنا نوحاً عليه السلام قد دعا الله أن يفصل في القضية التي بينه وبين قومه بالحق وهو

يعلم أن الله تعالى معه . لذلك طلب منه النجاة لنفسه ولمن معه من المؤمنين .
وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الفتح يأتي بمعنى الحكم الذي يفصل بين المتنازعين ، وهو صلب حكم يفصل بين فريقين ، فريق الهدى والداعي إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين ، وفريق الضلال وهم كفار قريش .
وقد استفتح الفريقان ، فقد قال أبو جهل حين التقى القوم : « اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة » .
لقد ظن أبو جهل أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم يقطع رحمهم ، ويجعل الولد يترك أباه وأمه ، وأيضاً كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا :
« اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين »
هكذا كان دعاء الكفار .

أما دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو قوله :
« يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً » .
والاستفتاح من الطرفين يدل على أن كلا منهما مجهد بأمر الآخر ، فلو كان أحدهما مرتاحاً والآخر متعباً لطلب المتعب الفتح وحده .
وجاء الحكم من الله سبحانه وتعالى في القضية هذه ، حيث حكم تبارك وتعالى على الكافرين بأن يُسلبوا ويقتلوا ويصبحوا مثار السخرية من أنفسهم وممن يروهم وقد استحقوا ذلك بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم ومحاربتهم للحق ، والذي رجح أن الفتح جاء أيضاً من المؤمنين أن الحق قال :
{ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح } [الأنفال : 19] .
أي إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح ، وهذا الفتح كان في صالح المؤمنين ، وأيضاً في صالح دعاء الكافرين ، إنه جاء في الأمرين الاثنين؛ فتح للمؤمنين ، وفي صالح دعاء الكفار . فأنتم – أيها الكافرون – قد دعوتم ، فإما أن تكونوا قد دعوتم والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم ، وهذا دليل على أنكم أغبياء في الدعاء ، وما دام الفتح قد جاء ، كان الواجب أن ينتهي كل فريق عند الحد الذي وقع ، وكان على الكافرين أن يقتنعوا بأنهم انهزموا ، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا .
{ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } [الأنفال : 19] .
و « تنتهوا » هذه صالحة أولاً بظاهرها للكفار ، أي إن تنتهوا عن معاداة الرسول وخصومته ، واللجج في أنكم جعلتموه عدوا ، وتتكتلون وتتآمرون عليه ، فإن تنتهوا فهذا خير لكم في دنياكم لأنكم قد رأيتم النتيجة . حيث قتل البعض من صناديدكم ، وأسر البعض الآخر ،

وأخذت منكم الأسلاب والغنائم . فإن انتهيتم عن العمل الذي سبب هذا فهو خير لكم في دنياكم ، وخير لكم أيضاً في أخراكم؛ إذا كان الانتهاء سيئول بكم إلى أن تنتهوا عن مخاصمة الدين الذي تخاصمونه وتصبحوا من المنتمين إليه .

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

{ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ } [الأنفال : 19] .

وإن لم تنتهوا وعدتم إلى العداء ومحاربة هذا الدين فسنعود لنصرة المؤمنين ، وإياكم أن تقولوا إنكم فئة كثيرة؛ ففئتكم لن تغني من الله عنكم شيئاً ، والدليل على ذلك أنكم هزمتم في بدر وأنتم كثرة ، وأصحاب عدد ، وأصحاب عدة . فما أغنت عنكم كثرتكم ولا عدتكم شيئا .

{ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ الله مَعَ المؤمنين } [الأنفال : 19] .

وكان المؤمنون قلة ورغم ذلك كانوا هم الغالبين .

وما تقدم إنما يعني الكلام بالنسبة للكفار ، فماذا إذا كان الكلام والاستفتاح بالنسبة للمؤمنين ، ففي أي شيء ينتهون؟ .

إن عليهم أن ينتهوا عن اللجاج والخلاف في الغنائم ، الذي جاء فيه قول الحق تبارك وتعالى : { قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول } [الأنفال : 1] .

وهم قد اضطروا أن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ربه ، فإن عادوا للنزاع والجدل فيما بينهم وكأنهم فريقان متعارضان غير مجموعين على إيمان ، فلن تغني فئة عن أخرى شيئا ، وعليكم أن تعلموا يا أهل الإيمان أنه إن عزت طائفة منكم ، فلتهن أمامها الطائفة الأخرى ، ولا تظنوا أنكم بالنصر قد صرتم كثيراً لأن النصر لم يكن لا بالفئة ولا بالملائكة ، ولكن النصر كان من عند الله العزيز الحكيم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { يأيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20)

وهذا نداء واضح من الله عز وجل للمؤمنين ، وأمر محدد منه بطاعة الله والرسول؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم القلبي بالله وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، وعلى المؤمنين أن يؤدوا مطلوب الإيمان . ومطلوب الإيمان – أيها المؤمنون – أن تنفذوا التكاليف التي يأتي بها المنهج من الله عز وجل ، ومن المبلغ عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الأوامر وفي النواهي .

وقد فصلنا من قبل مسألة الطاعة ، الطاعة لله تكون في الأمر الإجمالي ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تكون في اتباع الحكم التفصيلي التطبيقي الذي يأتي به رسول الله للأمر الإجمالي .

وكذلك تكون طاعة الرسول واجبة في أي أمر أو حكم؛ لأن الله قد فوض رسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك : { مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله } [النساء : 80] .

ويتمثل التفويض من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في قول الحق تبارك وتعالى : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا } [الحشر : 7] .

وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الملحظ الجميل في الأداء القرآني :

{ ياأيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } [الأنفال : 20] .

والتولي – كما نعلم – هو الإعراض ، والأمر هنا بعدم الإعراض ، وما دمتم قد آمنتم فلا إعراض عما تؤمنون به . والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقل : ولا تولوا عنهما . قياساً بالأسلوب البشري . لكنه قال : { وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ } أي أنه سبحانه وتعالى قد وحد الكلام في أمرين اثنين؛ طاعة الله وطاعة الرسول ، ولأن الرسول مبلغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين؛ لأن طاعة الرسول هي طاعة لله تعالى .

أو نقول : إن التولي لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله ، فلا أحد بقادر على أن يتولى عن الله؛ لأن الله لاحقه ومدركه في أي وقت .

لذلك نجد الحق تبارك وتعالى يقول في آية ثانية : { يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ } [التوبة : 62] .

وهو سبحانه وتعالى في هذا القول يوحد بين رضاء الله والرسول فيجعله رضاءً واحداً ، فالواحد من هؤلاء يقسم أنه لم يفعل الفعل المخالف للإيمان إرضاءً للمؤمنين ، وليبرىء نفسه عند البشر ، لكن هناك رضاء أعلى هو رضاء مراعاة تطبيق المنهج الذي أنزله الله عز وجل وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهناك قيوم أعلى يرقب كل سلوك ، ويعلم ما ظهر وما بطن . فلو كنا متروكين لبعضنا البعض لكان لأي إنسان أن يواجه الآخر ، كل بقوته ، لكن نحن في الإيمان نعلم أننا تحت رقابة المقتدر القيوم ، فمن ظلم أخاه؛ وغفر المظلوم لظالمه ، فالله سبحانه وتعالى رب الظالم ورب المظلوم – لا يغفر للظالم بل يؤاخذه .